الإعلام الروسي

من جورباتشوف إلى بوتين

تأليف

د . محمد حسام الدين إسماعيل



الإعلام الروسي

من جورباتشوف إلى بوتين

د . محمد حسام الدين إسماعيل



الناشر



www.russiannewsar.com

رئيس مجلس الإدارة ورئيس التحرير
د. حسين الشافعى
secertary_ert@yahoo.com

المراسلات
القاهرة – مدينة العبور
44971 مكتب بريد جمعية أحمد عرابي - ص. ب . 72
Tel. & Fax: + (202) 24698170 & 071
+ (20) 01006774027

الإخراج الفني/ أيمن العيسوي

الطباعة
دار الطباعة المتميزة
مدينة العبور – القاهرة
Tel. & Fax: + (202) 44789644 & 46

الطبعة الأولى 2017
(دار نشر أنباء روسيا)

رقم الإيداع
3980/2017

بالتعاون مع



المؤسسة المصرية الروسية
للثقافة و العلوم
Египетско-российский
Фонд культуры и наук
www.a_rfcs.org

الإعلام الروسي

من جورباتشوف إلى بوتين

د . محمد حسام الدين إسماعيل



إهـــــداء

إلى ابني الغالي .. علي

عليٌّ في الدنيا والآخرة إن شاء اللّه

مقدمة الكتاب

ما بين مستقبل روسيا ودورها في قيادة العالم، واندلاع حرب بين روسيا وتركيا، ووقوف روسيا بجانب سوريا أو دعم روسيا لإسرائيل، يقدم لنا الإعلام العربي شذرات عن الإعلام الروسي ربما تحمل الخبر ونقيضه، ومن هذه الشذرات لا يعرف المتخصص ولا المثقف الكثير عن الإعلام الروسي، ومن هنا تنبع أهمية هذا الكتاب.

فمنذ أن كتب جيل الرواد عن المدرسة الاشتراكية في الإعلام لم تصدر دور النشر العربية - خاصة تلك المتخصصة في الإعلام - شيئا عن إعلام ما بعد زلزال انهيار الاتحاد السوفيتي السابق عام ١٩٩١.

وقد تعرض الإعلام الروسي لانقلابات عدة في الفترة من ١٩٩١ إلى ٢٠١٦ على صعيد الملكية والحرية وسياسات التحرير وكذا على صعيد طبيعة جمهوره والقائم بالاتصال، ويحاول هذا الكتاب أن يقدم – عبر ما يقرب من ربع قرن – صورة بانورامية عن الإعلام الروسي، خاصة علاقته بالسلطة السياسية ورجال الأعمال.

في خلال الخمسة عشر سنة الأخيرة من سيطرة فلاديمير بوتين على روسيا كرئيس وكرئيس وزراء، طورت روسيا بشكل حثيث نوعا حديثا من الإعلام الذي يتبنى التكنولوجيا الغربية المتقدمة لتقديم وجهة النظر الحكومية للكرملين والرئيس إلى الجمهور الروسي والعالم أجمع، وأعاد بوتين هيكلة الإعلام الروسي الذي يحوز شعبية في روسيا بتغيير نمط ملكيته أو تغيير إدارته، لكي يؤسس لسيطرة مركزية أكثر عليه وليذيع رسائل متشابهة لم تتحقق منذ الحقبة السوفيتية.

وإذا كانت صورة العرب النمطية في إعلام الدول الغربية كالولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا معروفة بحكم التراكم المعرفي الكبير، فإن صورتهم في إعلام روسيا قليل ما يتم رصدها وتحليلها، فالعرب عندما نفضوا الاهتمام عن روسيا في التسعينات، علت وبقوة الأصوات الصهيونية في الإعلام الروسي وهو سبب أخر لأهمية دراسة هذا الإعلام.

والحق أن وسائل الإعلام الروسية مطيعة للسلطات في كل شيء، إلا عندما يتعلق الأمر بمواقف حيال العرب وقضاياهم، فهي تغدو «مستقلة» و«جريئة» وبارعة في استخدام «حرية التعبير.»

هكذا يبدو المشهد عندما يتناول الأمر الحقوق الفلسطينية مثلاً، تقول السلطات الروسية: إنها تدعم قيام الدولة الفلسطينية وتطالب إسرائيل بوقف الاستيطان، لكن الصحافة وقنوات التليفزيون الحكومية لها رأي مختلف، فالعرب كما يقول الضيف «المحبب ودائم الحضور» في كل قنوات التليفزيون يفجيني ساتونوفسكي «بنوا دولاً فاشلة»ويجب ألا تظهر "دولة إرهابية جديدة" على خريطة الشرق الأوسط.

و «الخبير» صاحب المواقف التي تزايد على الليكود ومن هم أشد تطرفًا من بنيامين نتنياهو في إسرائيل، يُقدّم في وسائل الإعلام الروسية ليس بصفته رئيسا سابقا للمؤتمر اليهودي، بل كرئيس لمعهد دراسات الشرق الأوسط، وأبرز خبير في شئون العالم العربي.

وينسحب الأمر ذاته على كثيرين، بينهم فلاديمير سوفوليوف أبرز مقدمي البرامج في القناة الحكومية الأولى، الذي يفاخر بصهيونيته ويوجه أقذع الشتائم إلى العرب في أي مناسبة، وفشلت محاولات أوساط دبلوماسية واجتماعية عربية لـ «التوسط» لدى الجهات المعنية الروسية لتخفيف اللهجة ضد العرب في وسائل الإعلام الحكومية، أو حتى منح العرب فرصة مماثلة للظهور في وسائل الإعلام، وتقديم وجهة نظرهم بشكل متكافئ مع وجهة النظر الأخرى.

ويركز إعلام التيار السائد في روسيا على إعادة إنتاج الصورة النمطية للعرب عند الروس، بحسب عنوان مقالة نشرتها أخيراً مؤسسة إعلامية حكومية كبرى.

وتحت هذا العنوان يقدم العربي بصفته «ثريا يعيش في قصر فاخر ويرتدي جلبابا أبيض اللون، ويكثر من الزواج، ويضطهد المرأة، ويغرق في

تشدده الديني بالإضافة إلى كسله وعدم حبه للعمل»، بينما يتجاهل القائمون على مؤسسات الإعلام هذه أن ملايين الروس يزورون سنويا مصر ودبي والأردن وتونس والمغرب للسياحة والعمل، والسعودية للحج، وبلدانا عربية أخرى بهدف التعاون التجاري والاقتصادي، ما يعني أن كثيرين منهم باتوا مطلعين على حقيقة الأوضاع في المنطقة.

هذا في الوقت الذي يعتقد البعض مثلا أن محطة روسيا اليوم بالعربية هي محطة فلسطينية بامتياز، فقد أسسها الرئيس الفخري السابق للجالية الفلسطينية في موسكو الإعلامي ألكسندر سيدوروف صديق بوتين، ومعظم العاملين فيها فلسطينيون وتسودها اللهجة الفلسطينية، وكذلك فإن محطة روسيا اليوم بالاسبانية هي الأولى من حيث المشاهدة في أمريكا اللاتينية، ومحطة روسيا اليوم الا نجليزية هي المحطة الثانية من حيث المشاهدة في الولايات المتحدة بعد سي إن إن، وقد فضحت جرائم الاحتلال الإسرائيلي أثناء حرب غزة.

وكذلك فإن شخصية بوتين الكارزمية وزعامته الفائقة قد ألهمت الكثيرين من القادة في العالم العربي لاستنساخ بعضا من السياسات الروسية الداخلية والخارجية، لا سيما في تأسيس خطابا قويا معارضا لسياسات الولايات المتحدة في الشرق الأوسط، عندما استطاعت موسكو إعادة إطلاق علاقاتها مع حلفائها التقليديين في المنطقة على أسس جديدة.

ومن اللافت للانتباه التطور غير المسبوق في علاقات روسيا بدول الخليج العربي، خاصة المملكة العربية السعودية، بعد عقود طويلة من توقف العلاقات بينهما منذ ثلاثينيات القرن الماضي، وكانت زيارات الرئيس الروسي فلاديمير بوتين المتكررة للمنطقة العربية نقطة تحول في العلاقات الروسية العربية، وإيذانا ببدء حقبة جديدة في السياسة الروسية تجاه المنطقة، تستعيد فيها روسيا مكانتها كفاعل أساسي في شئون المنطقة وقضاياها التي تتزايد حدة وتعقيدا.

وخلافا للعهد السوفيتي الذي كانت فيه موسكو الداعم لكل الثورات وحركات التحرر الوطني في العالم، لم تعلن روسيا تأييدا صريحا للثورة والثوار أثناء الربيع العربي، فقد التزمت الصمت إزاء الأحداث لحين نضجها وإزاحة من بالسلطة، كما حدث في تونس ومصر، ووقفت موقف المحايد أو المتابع، واتسم موقفها بالتأني الذي وصل لحد البطء في رد الفعل في حالة اليمن والبحرين.

في حين أبدت مواقف مؤيدة بوضوح للسلطة الحاكمة في ليبيا وسوريا، ولمصر عقب الثورة على حكم الإخوان المسلمين مع اختلاف نمط ودرجة

التأييد، ولكن مع الحرص في الوقت ذاته علي إبقاء قنوات اتصال مفتوحة مع الثوار، في محاولة لتحقيق أكبر قدر ممكن من التوازن والتأكيد الدائم على نزاهة مواقفها وحرصها على الاستقرار الداخلي والإقليمي للدول العربية.

وعلى صعيد أخر، فقد حرص الباحثون الروس في مجال الإعلام منذ ٢٠٠٨ على نشر أبحاثهم باللغة الإنجليزية فظهرت إلى الوجود عدة دوريات إنجليزية متخصصة في الإعلام الروسي، كما حرصوا على دعوة صفوة باحثي الإعلام في العالم للنشر في هذه الدوريات، وللإطلاع على المدرسة الروسية في بحوث الإعلام كمحكمين وخبراء، وللحوار الأكاديمي الثقافي حول إدراك الباحثين الأمريكيين والأوروبيين لقضايا الإعلام الروسي وأوضاعه.

وقرار الروس بأن يكون لهم حضور أكاديمي باللغة الإنجليزية هو قرار سياسي - علمي بامتياز في ظل الانفجار المعرفي العولمي للنشر باللغة الانجليزية، ويتواءم مع الحضور الإعلامي الروسي باللغة الانجليزية في شكل وكالات أنباء متقدمة مثل إيتار تاس ومحطات تليفزيون تصرف عليها الحكومة الروسية بسخاء وفي مقدمتها قنوات روسيا اليوم.

ويُمكن هذا الكتاب الباحثين من التعرف على الاتجاهات الحديثة في الإعلام الروسي وقضاياه وموضوعاته، والمجالات التي تم التركيز عليها والأخرى التي لم تحظ باهتمام كبير مما يعني تقديم مؤشرات لتوجيه نظر الباحثين لموضوعات بحثية جديدة في الإعلام الدولي، ويسعى الكتاب أيضا لتقديم رؤى مستقبلية عن مستقبل الإعلام الروسي كنظام إعلامي لدولة

ذات أهمية خاصة لمصر وللعالم العربي ثم للعالم جملة. في الفصل الأول يرصد الكتاب الإطار الاقتصادي والسياسي للإعلام الروسي أو التطور الاقتصادي والسياسي في روسيا في ربع القرن الأخير، ويركز الفصل الثاني على تطور ملكية الإعلام الروسي وانعكاساته، وعلى تشخيص النظام الإعلامي الروسي الراهن الذي أسس لنظام جديد هجين فيه ملامح ليبرالية وأخرى سلطوية.

وفي الفصل الثالث يحاول الكتاب أن يقدم تطورا تاريخيا وتقنيا للإعلام الجديد في روسيا، الإعلام الذي لم تطاله يد الدولة الروسية القوية حتى الآن، تلك اليد المسيطرة على أغلب القنوات الإذاعية والتليفزيونية وأغلب الجرائد والمجلات، وكذلك لأن هذا الإعلام الجديد هو الذي يحرك الأحداث السياسية الدرامية في روسيا منذ احتجاجات نهاية عام ٢٠١١، ولأنه الإعلام الذي يؤثر خطابه على خطاب وسائل الإعلام التقليدية، ونتيجة للزيادة المطردة في جمهوره خاصة من الشباب.

أما الفصل الرابع فيناقش الرقابة وثقافة المعلومات في روسيا محللا الثقافة السائدة في وسائل الإعلام والتي هي ثقافة الموائمة الموقفية وليست ثقافة القيم الديمقراطية العالمية، وراصدا التركيز على الأفكار الجمعية بأهمية وجود أمة قوية مثالية قادرة على الدفاع عن نفسها وحماية أراضيها وهي قيمة تجب قيمة حرية التعبير الفردية بما لا يقارن.

على حين يرصد الفصل الخامس السياسات التحريرية للإعلام الروسي في دراسات حالة ممثلة عن تغطية هذا الإعلام للحروب في الشيشان وجورجيا والقرم وأوكرانيا، وللحرب في سوريا، وكذلك يرصد الفصل صورة روسيا في إعلام الدول الأوروبية وغيرها، ويقوم الفصل السادس من الكتاب باستقراء واقع جمهور وسائل الإعلام في روسيا، خاصة تحول روسيا من أمة قارئة إلى أمة مشاهدة للتليفزيون.

ثم يختتم الكتاب بفصل تطبيقي سابع عن صورة العالم الإسلامي في الكاريكاتير الروسي من ٢٠١١ إلى ٢٠١٥ محللا هذا الفن الصحفي الجذاب علاماتيا وثقافيا.

ويتقدم مؤلف الكتاب بجزيل الشكر للطبيب الدكتور حميد المصري مدير مكتب التعاون التعليمي والثقافي مع روسيا الاتحادية على معاونته المخلصة لي في نطق الكلمات الروسية وكتابتها بحروف عربية بشكل صحيح.

ونأمل أن يجد القراء في (الإعلام الروسي من جورباتشوف إلى بوتين) الجديد والمفيد في مجال الإعلام الدولي ودوره في السياسة العالمية، وأن يجد الباحثون في الإعلام مصادر تفكير وتأمل في نظام إعلامي لقطب عالمي شديد الأهمية جدير بالبحث والاستقصاء، والله من وراء القصد.

د. محمد حسام الدين إسماعيل

الجيزة - يناير ٢٠١٧

الفصل الأول

الإطار الاقتصادي والسياسي للإعلام الروسي

يقدم هذا الفصل التطور الاقتصادي والسياسي في ربع القرن الأخير من حياة روسيا، الدولة الأكبر في أعقاب انهيار الاتحاد السوفيتي السابق، والذي تحكم في مقدرات الإعلام الروسي، وسيطر على نمط ملكيته ومستوى حريته ومنطق سياساته التحريرية.

وفقا للدستور الروسي، فإن روسيا الاتحادية دولة فيدرالية ذات نظام حكم شبه رئاسي، حيث رئيس الجمهورية هو رئيس الدولة، ورئيس الوزراء هو رئيس الحكومة، وتتمحور روسيا الاتحادية أساسا، كدولة ديمقراطية تمثيلية متعددة الأحزاب، مع حكومة فيدرالية مكونة من ثلاثة سلطات:

السلطة التشريعية، الجمعية الاتحادية ذات نظام تشريعي ثنائي، يتكون مجلس الدوما من ٤٥٠ عضوا، و١٦٦ للمجلس الاتحادي، ومن صلاحيات السلطة التشريعية: وضع القانون الاتحادي، والتصديق على قرار رئيس الدولة بشأن إعلان الحرب، والموافقة على المعاهدات، كما لديها قوة إقرار الميزانية وسلطة إقالة الرئيس.

السلطة التنفيذية، رئيس الجمهورية هو رئيس أركان الجيش، له حق نقض مشاريع القوانين قبل أن تصبح قوانين سارية المفعول، كما يعين مجلس الوزراء، والمسئولين الآخرين، الذين يديرون ويطبقون القوانين الاتحادية وسياساتها.

السلطة القضائية، تتكون من المحكمة الدستورية، والمحكمة العليا، والمحاكم الاتحادية الأدنى، ويتم تعيين القضاة من قبل المجلس الاتحادي بناء على توصية من الرئيس، ويمكنها تفسير القوانين وإلغاء القوانين التي تراها غير دستورية.

ويتم انتخاب الرئيس بالاقتراع الشعبي المباشر لولاية مدتها أربع سنوات (مؤهل للحصول على فترة رئاسية ثانية فقط، ولا يمكنه لفترة ثالثة) وتتكون وزارات الحكومة من رئيس مجلس الوزراء، ومساعديه، ووزراءه، وغيرهم من أشخاص يتم تعيينهم من قبل الرئيس بناء على توصية من رئيس الوزراء (في حين أن تعيين هذا الأخير يتطلب موافقة مجلس الدوما)، وتشمل الأحزاب السياسية الرائدة في روسيا :روسيا المتحدة الذي يقوده فلاديمير بوتين، الحزب الشيوعي، والحزب الليبرالي الديمقراطي الروسي، وروسيا العادلة.



خريطة روسيا الاتحادية

وقد ثارت تساؤلات المراقبين الغربيين حول النظام السياسي في روسيا، هل يتوافق مع مثيلاته في الديمقراطيات الليبرالية الغربية؟ وشكا الأكاديميون في كثير من الأحيان من صعوبة تصنيف النظام السياسي في روسيا، والمفتاح لشرح الأوضاع في روسيا يكمن في قول بوتين خلال فترة رئاسته لروسيا: من الواضح أنه ليس لروسيا نية لإنشاء «الطبعة الثانية» من النظام السياسي الأميركي أو البريطاني، بل إنشاء النظام الذي هو أقرب إلى التقاليد في روسيا وظروفها الخاصة.

فقد توقف تطور النظام السوفيتي بعد انتصار ثورة أكتوبر ١٩١٧ عند مرحلته الأولى، مرحلة «اشتراكية الدولة» التي أسس قواعدها لينين ثم ستالين، ثم تحجر النظام عند هذه النقطة حتى أخذ يميل إلى أن يتحول إلى رأسمالية الدولة في عصر ليونيد بريجينيف.

ومنذ بداية السبعينات من القرن العشرين، رعى بريجينيف صعود طموحات الطبقة القائدة المستفيدة من النظام أو طبقة «النومنكلاتورا» والأخير (مصطلح روسي يعني فئة الموظفين الإداريين أصحاب النفوذ في كافة الأنشطة: الحكومية، والزراعية، والصناعية، والتعليمية ... الخ، والذين حصلوا على وظائفهم بترشيح من الحزب الشيوعي، حينما كانت الأحزاب الشيوعية في سدة الحكم في روسيا وبلدان أوروبا الشرقية) إلى أن تحول أعضاؤها إلى رأسماليين أصحاب ملكية على نمط بورجوازية الغرب، ثم اعتمد ميخائيل جورباتشوف ومن بعده بوريس يلتسين على هذه الطبقة من أجل إنجاز الإصلاحات المزعومة تحت عنوان جذاب: «إعادة هيكلة النظام وإضفاء الشفافية» أو البيروسترويكا والجلاسنوست.

وقد أثبتت التطورات التالية فراغ الشعار الذي اختفى وراءه مشروع إسقاط النظام بكامله، لتحل محله رأسمالية منفلتة لصالح بورجوازية خرجت من صفوف النومنكلاتورا.

وصاحب سقوط الاشتراكية المزعومة (في واقع الأمر سقوط رأسمالية الدولة) بالضرورة ردة فاحشة في مجال الحفاظ على ما يمكن تسميته بالمصالح الوطنية لشعوب الاتحاد السوفيتي، فانفجر الاتحاد وأصبحت الجمهوريات المكونة له دولاً تابعة للغرب بشكل استعماري جديد بالنسبة إلى بعضها مثل دول البلطيق، ودخلت روسيا نفسها في نفق لم يظهر بعد ضوء المخرج منه .

اعتمدت خطة الرأسمالية الغربية عابرة القومية ـ باشتراك جورباتشوف ثم يلتسين في تنفيذها ـ على تبنى وصفة «العلاج بالصدمة»، التي صممتها رأسمالية الاحتكارات الغربية من أجل تدمير فوري وشامل لمؤسسات الدولة بحيث يصبح المجتمع عاجزاً في مواجهة الهجوم المنهجي المخطط.

وقد ساهمت قطاعات واسعة من البورجوازية الروسية، ومثيلاتها في الجمهوريات المستقلة الجديدة، في تنفيذ البرنامج، بل قبلت أن تتحول إلى بورجوازيات كومبرادورية (بورجوازية الوكلاء التجاريون للشركات الرأسمالية الكبرى، وبالتالي ترتبط مصالحهم وتوجهاتهم بالدول الرأسمالية المتقدمة أكثر من ارتباطها بمقتضيات التنمية الوطنية لبلدانهم) لمعرفتها أن هذا هوثمن إثرائها السريع، وترتب على تضافر هذه العوامل إقامة نظام رأسمالي هش الهيكل، يتسم بالسمات التي سنتناول وصفها فيما يلي:

أولاً: تحول روسيا إلى وضعية هامشية في النظام الرأسمالي العالمي

تميل المنظومة الإنتاجية الروسية إلى أن تنحصر في قطاعات إنتاج المواد الخام للتصدير ـ ومنها النفط والغاز بصفة رئيسية ـ فلم تقم الحكومة بإصلاح القطاعات الصناعية والزراعية وهي قطاعات لا يهتم بها رأس المال الدولي ولا البورجوازية الكومبرادورية الجديدة المحتكرة للسلطة العليا.

وتعاني هذه القطاعات من شح الاستثمار المخصص لها، بالإضافة إلى إن الحكومة سمحت بتدمير التعليم والقدرات الإبداعية التي كان النظام السوفيتي يحافظ عليها حفاظ العين، وكان نمط التعليم السوفيتي ـ لا سيما التعليم العلمي التقني ـ يُعتبر من أرقى ما أُنجز عالمياً، وقد تم تدمير هذا الإنجاز بأسلوب منهجي صممه خبراء أمريكان.

من المسئول عن الكارثة؟ الطبقة الحاكمة التي فُتحت لها أبواب الإثراء الفوري من خلال نهب الملكية العامة، ولا سيما القسم من هذه الطبقة الذي استولى على الكومبينات أو المجمعات السوفيتية العظمى في استخراج النفط والغاز، فشكل هذا القسم نواة الأوليجاركية (حكم القلة من رجال الأعمال) الجديدة على نمط بلاد الجنوب المنتجة لمثل هذه الثروات من أجل التصدير.

وأصبحت الدولة الروسية بمثابة دولة ريعية تعتمد ميزانيتها على الريع ولا غير، وخضع الإصلاح الضريبي لنصائح البنك الدولي فتم تخفيض نسبة الضرائب المحصلة على أرباح الشركات إلى ١٧٪ فقط، في مقابل ما يتراوح بين ٣٠ و٤٠٪ في الدولة الغربية، وكذلك أُلغيت أو تكاد الضرائب على الأرباح الموزعة ونسبتها في روسيا هي أيضاً ١٧٪، في مقابل ما يتراوح بين ٤٠ و٧٠٪ في الدول الغربية !

ثم تم تفكيك الصناعات التحويلية وبيع أقسام منها بأثمان رمزية لا صلة لها بالقيمة الحقيقية للأصول العينية (نموذج بيع القطاع العام في مصر في عهد الرئيس الأسبق مبارك) وذلك لإقامة منشآت تعمل من الباطن لصالح الاحتكارات الأجنبية التي تمتص الفائض المنتج في نشاطها، أي بعبارة أخرى تبنت روسيا أسوأ نمط من أنماط التبعية الجديدة.

فيما كان الوضع أسوأ في الجمهوريات الأخرى للاتحاد السوفيتي السابق، فأصبح رأس المال المالي يحكم أوكرانيا كما يحكم مستعمراته الأخرى في أوروبا الشرقية (بولندا، دول البلطيق، المجر الخ). وتقوم منظمات غير حكومية تمولها بسخاء أجهزة الإمبريالية بتنظيم "مظاهرات" تدعو أوروبا لتولى أمور إدارة الدولة.

ويعتمد نظام السلطة على طبقة «وسطى» جديدة نشأت مع التحول الكومبرادوري، وتتشكل هذه الطبقة من موظفين يقبضون مرتبات مرتفعة وظيفتهم خدمة الكومبرادور في إدارة أعمالهم.

وتختلف أوضاع روسيا الموصوفة هنا عن الصين التي رفضت «العلاج بالصدمة» وحافظت على استقلال رأسمالية دولتها ولم تسمح بتحويل صناعاتها إلى منشآت تعمل من الباطن لصالح رأسمال الاحتكارات الإمبريالية كما يقرر المنظر سمير أمين، ويبدو أن بوتين قد بدأ يدرك مدى التدمير الذي أصاب اقتصاد روسيا ويبدو أنه ينوى اتخاذ مبادرات من أجل إصلاح الأوضاع .

ثانياً: مركزية القلة الأولجاركية

لا يمكن فهم ما يجري في روسيا دون نظرة متعمقة على رجال الأعمال الكبار في روسيا أو تايكونات الصناعة الروسية الذين يطلق عليهم القلة الأوليجاركية أو (الأوليجاركيون)، فهم خلاصة تحول روسيا إلى الرأسمالية ولا يمكن أن يكتب شيء عن الاقتصاد والسياسة أو الإعلام الروسي دون الإشارة إلى دورهم وفهمه.

ولنقاد هذا التحول الرأسمالي، فإن الأوليجاركيين يمثلون: سياسات الخصخصة غير العادلة وغير القانونية، تجريد روسيا من أصولها القومية، تهريب رؤوس الأموال، السيطرة على السياسة الاتحادية والمحلية أو سياسات الدولة عموماً، والصعود الطاغي لانعدام العدالة الاجتماعية.

بينما يقرر المدافعون عنها وعن الإصلاح الروسي، أن الأولجاركيين هم المحرك وراء التغيير المؤسسي والتعافي الاقتصادي منذ ١٩٩٩ والقوة المجتمعية الوحيدة التي يمكن أن توازن البيروقراطية الروسية الفاسدة والمتوحشة.

وتعد درجة التركيز في الاقتصاد الروسي عالية للغاية، ولذا فإن اهتمام صناع السياسة بهم يتعدى موضوعات عدم الثقة، فالقوة الاقتصادية تتحول بشكل آلي إلى قوة سياسية ولذا فهم رقم مهم في معادلة التحول الديمقراطي في روسيا (أو ربما الفشل في هذا التحول الديمقراطي)، وكذا فإنهم يتحكمون في صادرات روسيا الأساسية وبالتالي يحددون وضعها في الاقتصاد العالمي، فضلا عن دورهم الحيوي في تأسيس الرأسمالية الحديثة والملكية الخاصة.

ولفظة القلة المالكة (الأورليجاركيين) له دلالات سلبية في أغلب الكتابات، وإن كان بعضها بدأ يعترف بوجودهم ويدعو إلى ضرورة احتواء السلبيات التي تشكلت في العقد الأول من الحقبة ما بعد السوفيتية والتي شهدت صعودهم الكبير أي أن كل من الصور الذهنية السلبية والإيجابية عن (الأوليجاركيين) حقيقية.

ويتحكم الأورليجاركيون في القطاع الأكبر من الاقتصاد خاصة صناعات الموارد الطبيعية (البترول - الغاز - المعادن - الخ) ويعد تركيز الملكية في روسيا أكبر من المعتاد في أي دولة رأسمالية، بل وربما يزداد ذلك التركيز في صناعات الموارد الطبيعية في ظل خصخصة حتى بعض الكيانات الاقتصادية التي تسيطر عليها الدولة.

ويبدو أن الأوليجاركيين يديرون مواردهم الاقتصادية بشكل أكثر كفاءة من بقية الاقتصاديين والملاك، ووزنهم كما تقدم كبير وإن كان لا يعد كبيراً للغاية في وزن الاقتصاد العالمي، ولا يمكن الجزم بأنهم حصلوا على أصولهم بشكل قانوني؛ إذ أن بعضهم الذي كان يدير مشروعات الدولة هو الذي اشتراها مانعاً بقية من بيدهم المال من شرائها، ويعتقد أغلب الروس أنهم حصلوا عليها بشكل فيه الكثير من التلاعب، وهو الأمر الذي يشكل عقبة ضخمة في طريق التحول الديمقراطي.

وهي مشكلة لا تقتصر على روسيا وليست مستعصية على الحل، ولكن قليلة هي الدول التي نجحت في تخطي مصاعب التركيز العالي للملكية، فالأمر ليس سهلا وسوف يأخذ وقتا.

وكل السيناريوهات المحتملة مؤلمة وإمكانية نجاح أي منهم ليست مضمونة، والأمر يتوقف على سياسات الرئيس الروسي في ظل نظام سياسي عالي التركيز ويرجح سيرجي جورييف أستاذ الاقتصاد بجامعة ساينس برو بباريس، وأندريه راتشينسكي أستاذ الاقتصاد المساعد بكلية الاقتصاد الجديدة بموسكو أن السيناريو المتصور سوف يجمع بين بقاء الوضع القائم والصفح عن تاريخ الأوليجاركيين الملطخ بعدم العدالة والسطو على أصول الدولة الروسية.

وقد زاد التدمير الجزئي الذي طالهم بفعل سياسات بوتين من القوة التفاوضية للبيروقراطيين ورجال الدولة الكبار على عكس فترة يلتسين التي شهدت صعود نفوذهم وإيصالهم إياه لسدة الحكم.

وكذلك فإن حال الأوليجاركيين الآن أفضل في ظل دفعهم ضرائب أكبر وهو ما يعفيهم من ابتزاز كبار المسئولين ورغبة البيروقراطيين في حلبهم، فالفاسدون من رجال الدولة يفضلون الرشاوى على الضرائب ولكن مع الشفافية ودفع الضرائب سوف ينجح الأوليجاركيين في التحايل على الفساد، وتحسين صورتهم في عيون الناخبين، وهو ما سيدعم شرعيتهم عبر الزمن على خلاف الوضع الراهن الذي يحرص فيه رجال الدولة الكبار على إبرازهم في صورة المستغلين غير الشرعيين حتى يسهل التحكم بهم.

والتداعي السيئ لهذا التحليل هو أن التحول الديمقراطي في روسيا سوف يأخذ وقتاً طويلاً، فالدول التي شهدت تركيزاً مشابهاً أسمى المحللون نظامها السياسي بنظام (الحزب ونصف)، أي حزب روسيا الموحدة الحاكم المحتفظ بالسلطة وبعض الأحزاب الاصطناعية التي تلعب على هامشه فضلاً عن جماعات المعارضة غير المنظمة، والوضع يمكن أن يستمر لعقود قادمة.

والمنافسة الحقيقية بين أحزاب قوية يمكن أن تحدث فقط عندما يحدث التطور الاقتصادي والمالي في ظل سياسات تنافسية وشفافية تقلل من معوقات دخول رأسماليين آخرين للسوق وتدعم صعود الطبقة الوسطى.

ولكن للأسف لا الأوليجاركيون ولا البيروقراطيون يبدو أنهم مهتمون بتطبيق هذه السياسات في روسيا قريبا، وهو الأمر الذي يجعل من قول المحللين السياسيين بغموض مستقبل النظام السياسي الروسي قولاً ذا مصداقية.

في ظل هذا الوضع، يتحكم الرئيس الروسي والكرملين في الأوليجاركيين المالكين لوسائل الإعلام الذين تعلموا الدرس الذي أعطاه بوتين بإمكانية نزع ملكية وسائل الإعلام بأساليب حاذقة غير مباشرة لا تصل للتأميم، وهو ما يجعل الإعلام طرفا تابعا في هذه المعادلة.

ثالثا: سلطة أوتوقراطية غير مسئولة

يحول نمط الرأسمالية الروسية دون تقدم ديمقراطي، وليس استمرار الممارسة الأوتوقراطية تعبيراً عن «بواقي الماضي»، بل تعبيراً عما تقتضيه ممارسة سلطة الأوليجاركية الكومبرادورية الجديدة، وفي هذا الإطار أقام

دستور ١٩٩٣ نظاماً رئاسياً يخفض سلطات الدوما أو (البرلمان المنتخب).

تتجاهل وسائل الإعلام الغربية عمداً هذه الحقيقة، فلا تدين النظم التي تتبنى الوصفة الليبرالية بنقص الديمقراطية، وتدينها فقط إذا سارت في سبيل آخر.

يحل الفرق بين أساليب الأوتوقراطية الجديدة وسابقتها السوفيتية في مجال آخر، فتخدم الأوتوقراطية الجديدة مصالح الأوليجاركية الكومبرادورية الجديدة، وانعكست النزاعات بين أطراف هذه الأوليجاركية داخل نظام الحكم. فأصبح كبار موظفي الدولة أطرافاً في هذه النزاعات من أجل استخلاص فوائد مالية في مقابل تحيزهم لطرف أو آخر، ويعتبر هذا الوضع أهم مصدر للفساد. وشهد الأمر بعض الأحوال عناصر من الأوليجاركية يدعون الغرب لإنقاذهم باسم الديمقراطية طبعاً.

اندرجت سياسة بوتين في مرحلتها الأولى في هذا الإطار، فاستخدم الرئيس تلك الوسائل ذاتها من أجل وضع أصدقائه من حلقات سان بطرسبرج (وهي قاعدته الأصلية في انطلاقه) في وظائف قائدة، و يحاول بوتين أن يعيد النظر في هذا المجال، بعد استقراره في السلطة.

يشارك الشعب الروسي بالطبع في مسئولية الانهيار علماً بأنه وجد نفسه في اضطراب بعد انهيار المؤسسات السوفيتية التي كان قد تعود على التعامل معها، ولكن النظام الجديد هو الذي يحمل المسئولية الكبرى في نهاية المطاف. فلجأ هذا النظام إلى استخدام العنف لتدمير ما تبقى من مؤسسات العصر السوفيتي حتى ضرب بالمدافع أول برلمان منتخب، ولم يكن اليمين الجديد قادراً على تخطى حدود تكوين جماعات صغيرة ترعد بالضوضاء، وعلقت وسائل الإعلام الغربية على هذه الضوضاء أهمية لا تستحقها.

ولا يزال هذا اليمين عاجزاً عن خلق حزب سياسي بالمعنى الصحيح، كما أنه لم يصبح قادراً على بلورة مشروع بديل للسوفيتية يكون متماسكًا ومقنعًا، يصاحبه خطاب أيديولوجي جذاب، وظل هذا اليمين أسيراً لبيروقراطية السلطة، ومضطراً إلى الاعتماد على مساندتها لتحقيق أهدافه

من نمط شبه رأسمالي في روسيا، مثل ما أسماه المنظر سمير أمين في ظروف مصر: النمط المنحط لرأسمالية المحاسيب.

أما الحزب الشيوعي فقد ظل يتمتع بدرجة ما من الشعبية، الأمر الذي انعكس في قدرته على جمع نصيب محترم من الأصوات في الانتخابات الأولى، إلا أنه ظل متجمداً دون تجاوز حدود الشعارات الدوجماتية الموروثة، وبالتالي ظل عاجزاً عن مواجهة التحدي الجديد، وشجع هذا العجز خشيته وخجله حتى أنه قبل تنازلات ـ مثل مساندته لدستور ١٩٩٣ـ لم تكن الموافقة عليها في مصلحته، ثم ظهر على يسار هذا الحزب مجموعات «ماركسية» مجددة ولكن هذه المجموعات هي الأخرى لم تخرج- إلى الآنـ من عزلتها في حلقات نقاش دون مكاسب جماهيرية.

رابعا: تفكك النقابات

كان من المحتمل أن تقوم النقابات ـ في غياب الحزب الشيوعيـ بدور فعال، على الأقل من أجل حماية الإنجازات الاجتماعية المحققة في ظل نظام الطائفية السوفيتية السابق، وفعلاً استمرت الجماهير تثق في نقاباتها، على الأقل خلال العقد الأول للنظام الجديد، أي التسعينيات.

ثم ارتكبت النقابات خطأ جسيماً، فتصورت إمكانية استمرار نظام الطائفية القديم الذي كانت طرفاً فيه، وقد شجع موقف العديد من كوادر إدارة الاقتصاد السوفيتي السابق دوام هذا التخيل، فوقف هؤلاء الكوادر مع عمال المنشآت المعنية في مواجهة نهب القطاع العام.

وذهب البعض منهم ـ مع كوادر نقاباتـ إلى تصور حل على نمط الاشتراكية الديمقراطية الغربية، أي إقامة مؤسسات ثلاثية الأطراف (أصحاب رأس المال، الدولة، النقابات) تقوم بمفاوضات بينية حتى تصل إلى قرارات جماعية في مختلف القضايا التي تمس إدارة المنشآت والشئون الاجتماعية (شروط التوظيف والعمل، الأجور، المعاشات الخ). ولعل هؤلاء تجاهلوا إن أيام الأسلوب الاشتراكي الديمقراطي المذكور قد فاتت في الغرب نفسه.

لم تمنع خشية النقابات وخجلها صعود النضال الطبقي الذي تجلى في إضرابات متكررة قوية، على أن هذه المبادرات ظلت «تلقائية» في معظم الأحوال - ونتاج لقرارات صادرة من القاعدة دون موافقة قيادات النقابات وعاجزة عن دفع النقابات لإصلاح نفسها أو- في غياب حدوث ذلك عن إنشاء نقابات بديلة.

أدى تضافر هذه العوامل السلبية إلى ردات متواصلة لوجود النقابات في الساحة، كما حدث في الغرب أيضاً، ولنفس الأسباب.

خامسا: صعود طموحات إقليمية منفلتة

أنتج سقوط النظام السوفيتي ظروفاً ملائمة لانفجار طموحات إقليمية منفلتة. ولئن كانت هذه الطموحات موجودة في ظل النظام السوفيتي، إلا أن السلطات بذلت المجهود المطلوب بروح من المسئولية، كي لا تنفلت الأمور باللجوء إلى التفاوض (لعله «المساومة») مع القوى المعنية، والعنف إن لزم الأمر.

تبخرت روح المسئولية، وصارت كل فئة تدفع مصالحها الخاصة دون اعتبار للمصالح الأعلى، بل أخذت تكتلات الأوليجاركية تستغل الطموحات الإقليمية عندما وجدتها تفيد مصلحتها.

ليست الحركات الإقليمية في روسيا «قومية» (أو «دينية») الطابع بالضرورة، فهناك على سبيل المثال طموحات إقليمية في أماكن نائية في سيبريا بالرغم من كون سكانها من الروس. ولكن هناك أيضاً حركات إقليمية ازدهرت على أرضية مطالب قومية، لاسيما في المناطق الإسلامية (مثل إقليم الشيشان). واستغل العدو الإمبريالي (الولايات المتحدة) المناسبة للتدخل السافر في شئون روسيا الداخلية، ثم لجأت السلطة المركزية الروسية إلى استخدام العنف في مواجهة هذه الحركات واستغلت عمليات الإرهاب التي باشرتها بالفعل بعض هذه الحركات لتبرير رد الفعل العسكري.

وهناك إشارات توحي أن بوتين بدأ يدرك خطورة الموقف، ولاسيما أن العديد من محافظي الأقاليم المنتخبين طبقاً للدستور قد أصبحوا أطرافاً في الحركات الإقليمية، فأصدرت الرئاسة قانوناً يتيح لها حق تعين موظفين

(أسمتهم «مديري الأقاليم») لهم حق الفيتو ضد قرارات المحافظين. مرة أخرى لا يتجاوز هذا الحل حدود ممارسة الأوتوقراطية تفاديا البحث عن حلول صحيحة من خلال التفاوض.

سادسا: غياب روسيا مؤقتاً عن الساحة الدولية

دعت القوى الإمبريالية العظمى الممثلة في «مجموعة السبع» روسيا للاشتراك في مجالسها (فأصبحت المجموعة مكونة من ثماني أعضاء) وذلك بعد سقوط النظام السوفيتي بقليل.

ولا تزال هذه المشاركة رمزية، دون أن يكون لها أي تأثير في مواقف الدول السبعة. فبينما تم حل اتفاقية وارسو العسكرية لا يزال الناتو قائماً، بل صارت ممارساته أكثر استفزازاً وعجرفة، وكذلك قُبِل انضمام روسيا لمجموعة السبع على أساس تبنيها مبادئ الليبرالية الاقتصادية دون تحفظ.

إلا أن تطور الأمور جعل قيادات روسيا تدرك خطورة الحال، إذ إن حضور روسيا في مجموعة الثماني (والمفروض أن روسيا أصبحت «صديقاً») لم يمنع الولايات المتحدة وأوروبا خلفها من التدخل السافر في شئون روسيا الداخلية، والقيام بمؤامرات عدوانية لاسيما في جورجيا ودول وسط آسيا وأوكرانيا.

يبدو أن بوتين قد أدرك أن الغرب لا يزال عدواً لروسيا الأمر الذي يفسر مواقفه الجريئة التي اتخذها في مواجهة الأزمات الدولية الأخيرة (سوريا، إيران، أوكرانيا)، ولذلك يمكن القول أن زمن غياب روسيا عن الساحة الدولية قد انتهي.

ويتذكر سمير أمين حوارًا جرى بينه وبين بعض المسئولين الروس (اليمينيين) في أعقاب سقوط النظام السوفيتي، إذ قالوا له: «خسرنا الحرب، ولكن سوف نكسب السلم، كما أن ألمانيا التي خسرت الحرب لم يمنع هذا صعودها الاقتصادي، فسوف نستفيد نحن أيضاً من تبنى مبادئ الليبرالية الرأسمالية بعد أن تخلصنا من الأوهام الاشتراكية الخيالية".

وكانت إجابته كالآتي: «أنتم لا تدركون اختلاف الظروف، لقد ساعدت الولايات المتحدة ألمانيا على نهضتها بعد الهزيمة، لأن واشنطن كانت بحاجة لأن تكون ألمانيا قوية في مواجهة العدو الحقيقي القائم الاتحاد السوفيتي، ويختلف الأمر اليوم فليس هناك وجود لأي عدو يذكر أمام الولايات المتحدة، وبالتالي لا تريد واشنطن مساندة صعود روسيا حتى لا تصبح مرة ثانية قوة عظمى، فالأفضل بالنسبة لها هو مواصلة تدمير بلادكم».

سابعا: التدهور الأيديولوجي

قامت الأيديولوجية السوفيتية الرسمية على تكرار بلا ملل لخطاب «الاشتراكية» إذ كان المصدر الوحيد لشرعية النظام قائماً على ذكر ثورة ١٩١٧.

طبعاً كانت الفجوة بين الكلام (حول الاشتراكية) والواقع عميقة، ولكن ليس هذا الوضع الشاذ يخص الاتحاد السوفيتي فقط.

فلا تقل عمقاً الفجوة التي تفصل الخطاب الأيديولوجي السائد في الغرب (ومفاده أن الليبرالية الاقتصادية مرادفة لتقدم الديمقراطية واستتباب السلم عالمياً) عن الواقع، فوظيفة الخطاب الأيديولوجي المبتذل هي بالتحديد إخفاء الحقيقة.

لجأ الخطاب السوفيتي أيضاً إلى تعبئة الشعور «بالوطنية فدعا إلى تكريس وحدة الشعب وراء زعمائه في مواجهة العدو الإمبريالي الرأسمالي، ووجد هذا الخطاب صدى ملحوظاً لأنه قام على تاريخ العداء للإمبريالية، علماً بأن هذا الخطاب قد ساعد الحكام على إخفاء نواقصهم في إنجاز التقدم الموعود، وليست هذه الممارسة خاصة بالتجربة السوفيتية، إذ يلجأ زعماء دول الجنوب إلى خطاب وطني مماثل حول معاداة الإمبريالية لمشروعهم المستقل.

واليوم، في ظروف صعود عداء الغرب لروسيا، يقوم الشعور بالوطنية الروسية بدور إيجابي. إلا أن مثل هذا الخطاب ما زال يؤثر في الشعب الروسي المشغول بمواجهة النتائج الكارثية للسياسة الليبرالية التي ينفذها النظام، فحل خطاب شوفيني بحت محل تعبئة الوطنية الصحيحة، ويغذى الخطاب

الشوفينى كراهية الجار ويحمله مسئولية (وهمية طبعاً) المصاعب التي يعاني منها الشعب الروسي. فأصبح المهاجر القوقازي أو الآسيوي يمثل هذا العدو، وليست هذه الظاهرة خاصة بروسيا، إذ أصبحت أداة خداع الشعوب في الغرب «المتقدم» (الحملات ضد المهاجرين) وفي الجنوب "المتخلف" مثل الحروب الأهلية «الدينية» أو «العرقية» في الوطن العربي وفي أفريقيا المعاصرة.

خروج روسيا من النفق؛ الرؤية الرأسمالية:

يرى مفكرو الرأسمالية الغربية أن روسيا وقيادتها حالة ما بعد حداثية، فهي ليست دولة سلطوية وليست دولة ديمقراطية، هي دولة تستخدم آليات الديمقراطية ومظاهرها فقط لتدعيم قوة الكرملين والرئيس بوتين، وتهميش أي معارضة له؛ أي دولة تستخدم آليات الديمقراطية لغايات غير ديمقراطية.

روسيا لديها انتخابات ولكن يتم تنظيمها بحيث تصب نتائجها في صالح الكرملين عوضاً عن صنع التوازنات بين كيانات الدولة، روسيا لديها مجتمع مدني ولكن مراقب حكومياً ومنظماتها غير الحكومية التي تتلقي دعمًا من الخارج يجب أن تسجل نفسها بل وتعلن عن نفسها تحت اسم (وكيل/ عميل أجنبي)، وخارج أسوار القنوات التليفزيونية الحكومية الكبرى بعدد مشاهديها الضخم، يوجد نوع نقدي من وسائل الإعلام خاصة على الإنترنت ولكن محاصر بشكل لا يمكنه من دعم أي معارضة حقيقية، وروسيا لديها شركات خاصة ولكنها تدار بشكل شبه إقطاعي أبوي داعمة الرئيس والكرملين بلا شروط، كالأفصال الإقطاعية مع الإمبراطور بوتين.

روسيا القرن الحادي والعشرين هجين ما بعد حداثي بمعنى أنها تستخدم تكنيكات ارتبطت بالفن ما بعد الحداثي وفلسفته، باستيش أو مزج عناصر مستعارة من الآخرين، مؤسسات كارتونية زائفة تذكرنا بمقولة/ وصف المفكر الفرنسي جان بودريار محاكاة أو حكائية زائفة، ومجتمع الفرجة بتعاظم شأن الإعلام المرئي الروسي دون جوهر.

يستطيع قادة روسيا اليوم الحديث عن الديمقراطية كما رواد التحديث الليبرالي في الصباح، وعن القومية الروسية مثل المتعصبين الشوفينيين بعد الظهيرة.

ويتخذ النظام الشكل الملكي متحولا إلى حكم الأقلية، ومن «سلطوية» السوق المفتوح على غرار (بونشيه) إلى جماهيرية متطرفة على غرار (شافيز) تحت شعارات خلقتها القيادة الروسية مثل: التحديث المحافظ، الديمقراطية الموجهة، منافسة بلا تغيير، وقادة الروس يجربون كل طريقة سياسية للتحكم عرفها التاريخ، ولذا يمكن أن تسمى الحالة الروسية (دكتاتورية ما بعد حداثية) في دولة تعيش في عالم المؤسسات المصطنعة، والحكايا المصطنعة بلا شيء حقيقي، دولة فيها النظام المالي وحتى اللغة والأفكار أصبحت فاسدة.

ويوافق المثقفون الروس في غالبيتهم على ذلك طالما ظلت روسيا الدولة والنظام في قوة ومنعة تحميها من التفكك ودعوات الانفصال وجماعات العنف السياسي، نعم ليس هناك حراك من تحت لفوق كما تقتضي الديمقراطية الكلاسيكية، ومعظم النخب المؤثرة لا ترى ضرورة لذلك.

وتعود جذور الشخصية السياسية لروسيا القرن الحادي والعشرين إلى التقاليد السوفيتية التي تتسرب من القمة للقاعدة الممثلة في الإحساس بالعبث الموروث من الفترة الأخيرة للحقبة السوفيتية.

فإعادة البناء أو (البيروسترويكا) جاءت متأخرة جدًا على حد تعبير (ألكسندر يوكوتفليف) أحد مستشاري ميخائيل جورباتشوف الذي يرى أن سنوات الجمود الاجتماعي هذه قتلت المثالية الاشتراكية وزرعت وأشاعت العبث وفقدان الإيمان وفتور الهمة، وبجانب هذه الأمراض الاجتماعية، يضيف (ليف جودكوف) - رئيس مركز الاستشارات ليفادا - Levada مرض الازدواجية مستشهدًا بالنكتة التي تقول: "كنا نمثل أننا نعمل وكانوا يمثلون أنهم يدفعون لقاء هذا العمل".

تعلم الإنسان السوفيتي أن يعيش بوعي منفصم في عالمين: العالم الخاص وله قيمه النفعية الأنانية وعالم الشعارات الفارغة والتمثيل، فأن تسأل أحدهم بماذا تؤمن دائمًا كان السؤال الخاطئ.

فهذه الدراما العظيمة في العقود الأخيرة للأمة الروسية ليست انتقالا من مجموعة معتقدات يؤمن بها أناس متحمسون إلى مجموعة أخرى من المعتقدات، ولكنها ببساطة التحول من العقود الأخيرة للاتحاد السوفيتي التي كفرت فيها النخب بالشيوعية وإن كانوا يمثلون أنهم مازالوا يؤمنون بها، إلى الحاضر الذي لم تفتر فيه قدرة هذه النخب على الادعاء والتمثيل والمحاكاة عوضا عن تحقيق أشياء ذات معنى.

وخلال عقد التسعينات، جرى ترسيخ هذه الاتجاهات والعادات مع الاستفاقة من الوهم التي سادت في كل الطبقات والتي جرت في سياقها عمليات إصلاحية فاسدة مؤلمة وسريعة، وعندما خسر بوريس يلتسين الانتخابات الرئاسية عام ١٩٩٦، بدأ الكرملين في استخدام المؤسسات الجديدة للرأسمالية الديمقراطية لصالح غايات غير ديمقراطية على الإطلاق.

واصطنعت الدولة الروسية أحزاباً سياسية عملت بمثابة الفزّاعة أو خيال المآتة مثل حزبي (الديمقراطيون الليبراليون، والقوميون الجدد) اللذين استحدثهما الكرملين من أجل كسر الدعم الذي يستحوذ عليه منافسيهم من الشيوعيين.

وعملت الدولة بتنسيق مع الميديا التجارية التي امتلكها قلة من الرأسماليين اليهود أمثال بوريس بيريزوفسكي وفلاديمير جوسينسكي الذين كسبوا ماليا من انتصار يلتسين والذين نشروا الأسطورة التي تقول أن روسيا في خطر داهم من رجوع فاشستي للشيوعيين.

وانتشرت أسطورة البلشفيك المسلحين بالخناجر بين أسنانهم الذين سوف يأتون للاستيلاء على الأملاك، أما في الحقيقة فقد كان هناك إجماع (ضم حتى الشيوعيين) على حرية السفر للخارج، وحرية النشاط الاقتصادي، والمسيرات والمظاهرات والانتخابات كآليات للديمقراطية، ولم يتعرض أي

منها للتهديد باعتراف (جليب بفالوفسكي) أحد مديري الدعاية الانتخابية لـ (يلتسين) ثم بعد ذلك (بوتين).

وببلوغ تلك النقطة، كانت روسيا في الواقع قد ابتعدت عن الرأسمالية الديمقراطية، واستبدلت بالمؤسسات الحقيقية أخرى مصطنعة من قبل الكرملين بواسطة (التقنيين السياسيين) أمثال بافولوفسكي والذين كانوا الوزراء في روسيا الجديدة.

وبشكل مفارق كان التحرك في اتجاه ديكتاتورية ما بعد حداثية يجرى تحت لافتة (إنقاذ الديمقراطية الروسية)، ويقول (مرات جولمان) أحد قادة التكنوقراط السياسيين الذين يعملون بالكرملين: (خطأنا في ١٩٩٦ أننا ظننا أن الديمقراطية تعني إيقاف الشيوعيين بكسر العملية الديمقراطية)، وبعد وصول بوتين للرئاسة عام ٢٠٠٠، نظم الكرملين هذه الآليات التي تم اختبارها في التسعينات ووضعها في إطار مؤسسي متمحور حول بوتين.

واستغل الكرملين ارتفاع أسعار الطاقة العالمية للتحكم في التلفزيون الروسي واستبعاد الفاعلين السياسيين والاقتصاديين المستقلين، وكانت النتيجة انتصار عبث النخب وانتشار فقدان المعنى بينهم انتشار النار في الهشيم.

وتحكمت شخصيات مثل (فلاديسلاف سوركوف) مساعد بوتين للعلاقات الخارجية بالمجتمع الروسي مثل (ساحر أوز) خلال السنوات التي قضاها في مؤسسة الرئاسة، وعلى مكتبه كانت هناك تليفونات قادة أحزاب المعارضة الذين لبثوا في انتظار تعليماته اليومية عن كيفية إدارة الأصوات والانتخابات، وماذا يقولون في مؤتمراتهم الصحفية.

وفي كل أسبوع كان يلتقي مدراء قنوات التليفزيون بـ (سوركوف) في مكتبه في تلقين مختصر لاتجاهات نشر الأخبار، وكان (سوركوف) يحب أن يسمى نظامه (ديمقراطية ذات سيادة)، التي ليس لا أدنى علاقة بالديمقراطية بمعناها الكلاسيكي، ومنذ عام ٢٠١١، حل محله في منصبه تكنوقراطي أخر هو (يشيسلاف فولودين) الذي أسمى نفس النظام (المنافسة

دون تغيير الحكومة)، وفي كل الأحوال كان الكيان الذي يدير البلاد حقا هو (مؤسسة الرئاسة).

ويرى المنظرون الغربيون أن خروج روسيا من أزمتها يقتضي تقليص سلطة الكرملين والرئيس وفتح الأبواب لتكوين أحزاب جديدة تتيح للرأسماليين قيادة البلاد وإقالة البلاد من عثرتها بالانضواء تحت لواء الاتحاد الأوروبي، أي إلغاء روسيا كقطب عالمي مؤثر في مقابل تمتع المواطنين الروس بثمار التنمية على النمط الغربي.

خروج روسيا من النفق؟ الرؤية الاشتراكية:

توحي قراءة الصفحات السابقة بأن روسيا تعيش عصر أفولها لدرجة بائسة، وأن مبادرات بوتين لقلب الاتجاه لم تأت بثمار تذكر إلى الآن، وهناك ظواهر اجتماعية توحي بأن الأفول لا يتعلق فقط بتدهور المنظومة الإنتاجية بل يلمس أيضاً المجال الديموجرافي - تعداد سكان روسيا في انخفاض- الأمر الذي يدل على أن فقدان الأمل في المستقبل أخذ يتفشى في المجتمع.

وترى بعض شخصيات اليسار الجذري الروسي بأن الأفول المذكور مؤقت، ويقوم تفاؤلهم على ملاحظة غياب شرعية نظام السلطة الراهن في أعين الشعب الروسي، وتشبيه الظروف الراهنة بما كانت عليه روسيا قبل انفجار ثورة ١٩١٧، فالمنتظر في نظر هؤلاء إنما هو انفجار موجة متكررة لحركة الثورة الاشتراكية، وليس أقل.

ويرى سمير أمين أن كلتا وجهتي النظر تفتقران للحجة، فمن جانب لم ينجز النظام الرأسمالي الليبرالي الحاكم أهدافه المعلنة، ولم يحقق أي درجة من الاستقرار الاقتصادي والسياسي والاجتماعي تضمن استمراره، وبالتالي تظل الأبواب مفتوحة على تغيرات تمس جوهر الأمور، والمقولة صحيحة بالنسبة إلى روسيا كما هي صحيحة بالنسبة إلى أي منطقة أخرى من الكوكب، بما فيها الدول المركزية القائدة، وبالأولى دول الجنوب الصاعدة وغيرها.

ومن الجانب الآخر لم تظهر بعد ـ لا في روسيا ولا في غيرها من أقاليم العالم ـ قوة استطاعت أن تقيم الجبهة الواسعة المطلوبة لانقلاب في اتجاه التطور العام للنظام الاقتصادي العالمي العابر للقومية.

والسؤال المطروح لدى بعض الاشتراكيين هو الآتي: ما الشروط التي تتيح صعود موجة ثانية للحركة نحو الاشتراكية؟ علماً بأن هذه الموجة المطلوبة لا يمكن أن تكون تكراراً للموجة الأولى التي حركت الشعوب خلال معظم القرن العشرين، ثم بعد ذلك يمكننا أن نطرح نفس السؤال بصورة ملموسة وخاصة ظروف روسيا الراهنة: ما هي الخطوات الأولى المطلوبة والممكن تحقيقها والتي تدفع الحركة إلى الأمام في ظروف روسيا؟

انطلق بعض المفكرين من نظرة مجددة لقضية "بناء الاشتراكية"، قائمة على اعتبار أن السير نحو الاشتراكية يتجسم في مسيرة تاريخية تمتد على عقود من الأعوام، بينما قامت نظرة القرن العشرين على تخيل انتقال سريع للاشتراكية، ثم لفت النظر إلى تحول هام لطرح القضية نظرياً وعملياً، يمس إشكالية تعددية الأطراف المشتركة في الحركة نحو الاشتراكية، ويختلف هذا الطرح هو الآخر عن أطروحات ماركسيات القرن العشرين.

ورأت هذه الأخيرة أن هناك طبقة واحدة ووحيدة عليها أن تقود وتنجز التحول الثوري إلى الاشتراكية هي البروليتاريا، كما أن بعض فروع الماركسية التاريخية رأت أنه ـ في ظروف مجتمعات تخوم المنظومة الرأسمالية المعلومة ـ يمكن أن تقوم البورجوازية الوطنية (أو الدولة الوطنية) بتحقيق أهداف مرحلية أولى تنخرط في التطلع نحو الاشتراكية.

وتتبلور خلاصة التحليل في طرح مقولة (المشروع الوطني المستقل) بصفته الخطوة الأولى على الطريق الطويل للاستمرارية، ويرى بعض المنظرين أن «الاشتراكية» مرحلة أعلى في حضارة الإنسانية تقوم على مبدأ لحم النسيج المجتمعي على أساس سيادة الديمقراطية، ويحل محل لحمه على أساس سيادة السوق.

ويتجلى مضمون «المشروع المستقل» المطلوب والممكن في إقامة «رأسمالية دولة مستقلة» ذات توجه اجتماعي شعبي بصفتها الخطوة التي تفتح الباب لتطويرها إلى «اشتراكية دولة» ثم بالتدريج إلى تقدم الأخيرة نحو الاشتراكية.

والسؤال: كيف يمكن ترجمة هذه الخطوط العامة إلى برنامج عمل ملموس في ظروف روسيا اليوم؟

الحق أن عام ٢٠١٥ حمل ثلاث صدمات اقتصادية لروسيا كلها تدفع الاقتصاد الروسي نحو الركود متمثلة في: تراجع أسعار النفط والغاز، وإرسال قوات إلى أوكرانيا، والعقوبات المالية الغربية، ولن يعود التعافي للاقتصاد الروسي إلا بعودة الارتفاع في مستوى أسعار النفط العالمية وهذا أمر مستبعد في القريب العاجل، وإلا برفع العقوبات الاقتصادية التي فرضتها الدول الغربية على روسيا وهذا لن يحدث إلا إذا انتهجت روسيا سياسة مغايرة في أوكرانيا وهو أمر مستبعد أيضا.

ولا يمكن تصور دور فاعل لدولة ما، إقليميا ودوليا، دون تماسك مجتمعي، واستقرار سياسي، وانتعاش اقتصادي مع قدرات عسكرية تكفل لها الهيبة والمكانة، إذ إن استعادة أي دولة لدورها تبدأ من تقوية الداخل، واحترام مواطنيها، والنهوض بهم صحيا، وتعليميا، ومعيشيا، فهل يجدي وجود قيادة كارزمية استثنائية وقدرات عسكرية هائلة مع ضعف اقتصادي؟، وهل تجدي تطمينات الزعيم فلاديمير بوتين عندما أكد أن العقوبات التي فرضت على روسيا ستواجهها بمزيد من الانفتاح والحرية الاقتصادية وليس بالانكماش؟!.

***

مراجع الفصل

١- أحمد عبد الله الطحلاوي: «استعادة الدور .. المحددات الداخلية والدولية للسياسة الروسية»، آفاق سياسية، المركز العربي للبحوث والدراسات، نوفمبر٢٠١٤. ص ص ٥٥ـ ٦٠.

٢- سمير أمين:»سمات الرأسمالية في روسيا بعد السوفيتية»، السياسة الدولية، عدد (١٩٨)، سبتمبر- أكتوبر ٢٠١٤. ص ص ٦٠ـ ٧٥.

٣- سيرجي غورييف وآليه تسيفنسكي: «روسيا وحتمية التحول الديمقراطي»، السياسة الدولية، عدد (١٨٨)، إبريل ـ يونيو ٢٠١٢. ص ص ١٢٠ـ١٣٥.

٤- معتز سلامة: «القطب العائد .. الدور الروسي في سياق إقليمي متغير»، ملف مجلة السياسة الدولية، العدد (١٩٥)، يناير ـ مارس ٢٠١٤. ص ص ١٥٠ـ١٧٠.

٥- نورهان الشيخ: «مصالح ثابتة ومعطيات جديدة: السياسة الروسية تجاه المنطقة بعد الثورات العربية»، السياسة الدولية، عدد (١٨٦)، أكتوبر ـ ديسمبر ٢٠١١. ص ص ١٥ـ٢٥.

٦- هاني شادي: «روسيا .. بوتين يعود إلى الكرملين»، الديمقراطية، عدد (٥٤)، مايو ٢١٠٢. ص ص ١٥١ـ ١٦٠.

٧- هاني شادي: التحول الديمقراطي في روسيا من يلتسين إلى بوتين: التجربة والدروس في ضوء الربيع العربي، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٥.

8- Peter Pomerantsev, Russia: A Postmodern Dictatorship, Global Transitions, Institute of Modern Russia, October 2013, pp. 5-15.

9- Sergei Guriev and Andrei Rachinsky, Oligarchs: The Past or the Future of Russian Capitalism, Journal of Economic Perspectives, 19(1), winter 2005. Pp. 131–150.

***

الفصل الثاني
تطور ملكية الإعلام الروسي وانعكاساته

أولا: التطور التاريخي للإعلام الروسي

من أجل تفسير طبيعة تأثير الدولة الروسية على الإعلام يجب أن نأخذ فكرة عن التطور التاريخي للمجتمع الروسي ووسائل إعلامه.

إذ تعتبر الرقابة والتحكم والسيطرة أبعادا ضمنية مكينة في الخبرة الحياتية الروسية لقرون، فالدولة لها تقاليد سلطوية متجذرة تغلغلت في الحياة اليومية للروس، وجاءت هذه التقاليد كنتيجة لظروف الحياة الصعبة والحدود المترامية للدولة التي يجب الدفاع عنها من هجمات الأعداء من كل الجهات، وارتكز العيش تحت مثل هذه الظروف على وحدة الشعب الروسي تحت قيادة حاكم أو قائد قوي وعلى تنظيم سياسي تراتبي مسيطر.

وقد أثر المناخ السياسي كثيرا في تطور وسائل الإعلام الروسية، فقد تم تأسيس أول صحيفة روسية (فيدموستي) Vedomosti كوسيلة لإعلام الشعب بخطط وأمنيات الإمبراطور بطرس الأكبر.

وكانت الصحيفة متحكم فيها من قبل العرش الروسي، ولم يكن بطرس الأكبر ناشرها فقط ولكن من كتابها الفاعلين، والصحيفة لم يكن من بين أهدافها خدمة الجماهير بقدر إعلامهم بأولويات الدولة وحاكمها، وعلى عكس الصحافة الغربية التي كان يدفعها التنافس والمصالح الخاصة للرأسماليين، كانت الصحافة الروسية دوما أداة سياسية للحاكم.

١ـ الحقبة السوفيتية (١٩٢٢ـ ١٩٩١):

خلال الحقبة السوفيتية، قبضت الدولة بقوة على المؤسسات الإعلامية وتحكمت في مضامينها، ومن خلال الإعلام (الصحف – الراديو) قدم البلاشفة بعد ثورة أكتوبر ١٩١٧ نظاماً جديداً من الرموز والصور والطقوس الإعلامية بما في ذلك إعادة تعريف القيم الاجتماعية فتم استخدام الصحف

والراديو ثم التليفزيون بعد ذلك للدعاية للدولة وقيادتها وللنظام الشيوعي الذي يديرونه.

فالطبقة العاملة هي التي تمتلك السلطة في أي مجتمع اشتراكي، وحتى تحتفظ هذه الطبقة بالسلطة والقوة فإنها لابد أن تسيطر على وسائل الإنتاج الفكري التي يشكل الإعلام الجزء الأكبر منها، لهذا يجب أن تخضع وسائل الإعلام لسيطرة وكلاء لهذه الطبقة العاملة وهم في الأساس الحزب الشيوعي، والمجتمعات الاشتراكية تفترض أنها مجتمعات لا طبقية، وبالتالي لا وجود صراع للطبقات، لذلك لا ينبغي أن تنشأ وسائل الإعلام على أساس التعبير عن مصالح متعارضة حتى لا ينفذ الخلاف ويشكل خطورة على المجتمع.

وعندما حدد لينين اختصاصات الصحافة وأهدافها شدد على أن تخضع وسائل الإعلام للرقابة الصارمة، وأن تقدم وسائل الإعلام رؤية كاملة للمجتمع والعالم طبقا للمبادئ الشيوعية، وأن تبرز وجود قوانين موضوعية تحكم التاريخ، وكان للحزب الشيوعي فقط الحق في امتلاك وإدارة وسائل الإعلام من أجل تطويعها لخدمة الاشتراكية.

كان على وسائل الإعلام أن تخدم قيم النظام الأصيلة وتدعيم إيديولوجيتها المهيمنة على المجال العام من خلال الاتصال المباشر والروتين اليومي، وكانت المعلومات في النظام السوفيتي حق للنخبة فقط التي وجدت السبيل لقراءة الكتب والدوريات الممنوعة ومشاهدة الأفلام التي لا يجب أن يشاهدها المواطن الروسي العادي، في الوقت الذي تأسس فيه النظر للجماهير على أنها هشة ضعيفة تحتاج للحماية من أي مادة خطرة عليها.

وتم منع نشر التقارير السلبية عن أي شيء في الدولة السوفيتية بما في ذلك الكوارث الطبيعية أو حوادث الطرق أو اصطدام القطارات وكان هذا الفصل "العنصري" للإطلاع على المعلومات حاداً للغاية.

حتى أن وكالة تاس السوفيتية كانت تصدر نشرات خاصة للمسئولين الروس لا يجوز إطلاع العامة عليها وكانت تطبع على ورق له لون مختلف، ووصل هذا التقليد للمطبوعات الخدمية مثل خرائط الشوارع، والأدلة

كدليل التليفون، إذ كانت تعتبر أسراراً عسكرية، وكان للكتب الممنوعة نسخة خاصة للاستخدام الإداري فقط.

وكان للنموذج السوفيتي المركزي المغلق دوراً في انهيار الاتحاد السوفيتي لاحقا، فهذا النظام الصارم كان سببا في عجز النظام الشيوعي عن تبني اقتصاد المعلومات الذي بدأ يفرض نفسه على العالم منذ أوائل الثمانينات.

ومن التغييرات التي اعترت الصحافة السوفيتية في أخر ٥ سنوات من عمر الاتحاد، وبالتحديد في السنوات الخمس التي أمسك فيها ميخائيل جورباتشوف بمقاليد الأمور من ١٩٨٦ – ١٩٩١، أن الصحافة تحولت من (الأصل الثابت الذهبي للحزب الشيوعي) على حد تعبير ليونيد بريجنيف إلى كيان مستقل يراقب عمليات صناعة القرار، والحكومة، والتحول الديمقراطي.

أصبح الإعلام وبحق أكبر قوة معارضة للحزب الشيوعي في تلك السنوات الخمس الحاسمة والتي لم تشهد ظهور أحزاب سياسية جديدة، وأصبحت سياسة المصارحة أو (الجلاسنوست) جزءا من العمليات السياسية التي تجري في البلاد آنذاك، فيما كانت معبرا عن أكبر الدعوات في تلك الفترة وهي سيادة واستقلال الجمهوريات غير الروسية ومناداتها بالانفصال عن الاتحاد.

وشهدت هذه الفترة المبهمة السلطات المركزية تتدخل لتعديل مضامين بعض وسائل الإعلام الاتحادية ولكنها لم تعد هي السلطات التي تأمر فيستجيب إليها الصحفيون، إذ أن السلطات لم تعد "قاهرة" كما كانت عبر ٦٠ عاماً.

وشهدت السنوات الأخيرة قبل سقوط الاتحاد السوفيتي محاولات من بعض الصحف مثل (ليتراتورنايا جازيتا) للاستقلالية التحريرية بل والدعوة لإعادة البناء في سنوات بيرجنيف الأخيرة، بل وظهرت بعض الأصوات الناقدة للشيوعية في بعض المطبوعات مثل (نوفي مير) عام ١٩٨٩، أما الخطوة الحاسمة التي عجلت بانهيار الاتحاد السوفيتي فكانت قانون حرية التعبير في أغسطس ١٩٩٠ الذي أزاح الرقابة على الصحف وقنوات التليفزيون، وشهد عام ١٩٩١ قانونا جديدا للإعلام، وشهد أيضا بعض محطات التليفزيون ـ التي وقعت تحت تأثير

بوريس يلتسين - تذيع برامج مختلفة تماما عما تذيعه المحطات السوفيتية الأخرى.

وحذر بعض المنظرين منذ تلك الفترة الباكرة من ارتداد على حرية الصحافة التي يمكن أن تشهد ردة إذا لم ينظم الصحفيون أنفسهم، وبالفعل كان غياب التنظيم الذاتي للصحافة الروسية عاملا حاسما في رجوع هيمنة الدولة وهندسة الإعلام التي شهدتها سنوات بوتين.

وعلى صعيد أخر، كان المستوى المهني لوسائل الإعلام السوفيتية رغم غياب الحرية الإعلامية جيدا، وكانت هناك منظومة جيدة لتدريس الإعلام، وكانت توجد كليات صحافة بجميع الولايات على المستوى القومي، وكان هناك إعداد جيد للصحفيين لدرجة أنه عندما بدأت التحولات بالاتحاد السوفيتي كان مستوى الصحفيين لافتا للنظر، هؤلاء الصحفيون الذين كانوا يدينون بولاء كامل للدولة، لكن بعد سقوط الاتحاد السوفيتي بدأت تحدث تغيرات في المحتوى بالغة الخطورة.

٢- من النظام السوفيتي إلى روسيا المعاصرة (١٩٩١- ٢٠٠٠):

حظت وسائل الإعلام الروسية بفترة حرية نسبية عقب انهيار الاتحاد السوفيتي السابق، واستخدمت الصحف استقلالها الجديد لقيادة المعارضة ضد الحزب الشيوعي، وأصبح بوريس يلتسين أول رئيس روسي منتخب ومع مجيئه للسلطة انتهت فترة الأحلام بشأن حرية الإعلام على النمط الغربي.

وقد جمع رجال الأعمال الروس ثروة طائلة من خلال استغلال الأصول الاقتصادية للدولة واستغل رجال الدولة الرسميون الاعتماد المالي للشركات الإعلامية الخاصة على تلك الأصول لاستعادة الخط الرسمي للتغطيات الإخبارية.

ويصف أستاذ الإعلام ياسين زاسورسكي الذي كان عميدا لكلية الصحافة في جامعة موسكو لومونوسوف الحكومية هذه الفترة بأنها فترة تشكل فيها نظام إعلامي سياسي جديد، فبدلا من أن يكون الإعلام محكوماً بالحزب الشيوعي، أصبحت وسائل الإعلام معتمدة على اللاعبين

من الملاك وقلة رأسمالية أولجاركية، وبدلا من أن تصل الأخبار لأمة موحدة تحت أيديولوجية وحيدة، بدأت وسائل الإعلام تخدم مصالح تجارية واقتصادية أحيانا متعارضة، وظهرت الرقابة ولكن أصبحت متعددة الاتجاهات وبالتالي لا يمكن التنبؤ بها.

في هذه المرحلة انهارت أهمية الصحافة المكتوبة، ومع توقف دعم الدولة للصحف ارتفعت أسعارها وتداعى نظام توزيعها، وأصبح التليفزيون أقوى وسيلة إعلامية روسية، وبالنسبة للصحفيين الروس كانت الفترة التي أعقبت سقوط الاتحاد السوفيتي السابق فترة انتقالية متقلبة.

وكانت هناك أوقات خاصة بعد اقتحام البرلمان الروسي في أكتوبر ١٩٩٣ بدت فيها حرية الإعلام معرضة لخطر محقق، وفي أوقات أخرى وتحديداً أثناء الحرب الشيشانية الأولى فإن الاستقلالية التحريرية للصحافة الروسية أذهلت العالم المتابع لهذه الصحافة، وقد صاحب تلك الفترة تعددية في الأصوات والرؤى ووعدت بتطور (لم يحدث).

ولكن في نفس الفترة، واجه الصحفيون الروس صعوبات طارئة جديدة على رأسها الأزمة الاقتصادية التي تعرضت لها الصحف، وتمخض عن عدم ترسخ الديمقراطية الروسية أن أصبحت حرية الصحافة عرضة لتدهورها مرة أخرى (وهو ما حدث بالفعل).

ويرى باحثون آخرون أن الفترة التي ذهبت فيها الميديا الروسية للسوق تعد الحقبة الذهبية، فقد وجد الصحفيون أنفسهم يشاركون في ملكية الصحف بينما بقيت المطابع في يد الدولة وكذلك خدمة التوزيع بالبريد، كما زادت تكاليف إنتاج الصحف في حقبة كان الكل يبحث فيها عن روبلات سهلة سريعة.

وبدأ رؤساء التحرير يدرسون آليات السوق التي لم يعرفونها، واكتشفوا أن الصحف لا تعيش على القصص الخبرية الجيدة ولكنها تعيش على المعلنين والمستثمرين.

وشاعت تعبيرات مثل: (الرأسمالية الصديقة)، (رأسمالية بارونات اللصوص) في العقد الأخير من القرن الماضي عندما قسمت ثروة البلاد بين عدة بنوك ومجموعات استثمارية، وسرعان ما سادت أخلاقيات العلاقات العامة ورغبت هذه المجموعات الاقتصادية ليس فقط في حيازة الأرباح ولكن التأثير أيضًا وكانت الميديا الروسية في أيدي الرأسمالية على حد تعبير رجل الأعمال الأمريكي جورج سوروس الذي كان يدعم الدوريات الأدبية الروسية.

على سبيل المثال، في صيف ١٩٩٧ تحولت صحيفة (إزفستيا) الحكومية إلى صحيفة خاصة يملكها رجل البنوك (بوريس بيريزوفسكي) ومنه إلى (فلاديمير بوتانين) الذي تحكم في أغلبية الأسهم وأقال رئيس التحرير من منصبه مما اضطر بقية المساهمين إلى إصدار (إزفستيا الجديدة) وتعيين الصحفيين المقالين من الجريدة الأولى.

ويعد عمدة موسكو السابق (يورى لوجكوف) - الشخصية السياسية التي كانت تسعى للترشح لانتخابات ٢٠٠٠ - مثالا أخر على التحالف مع رأس المال عندما تحالف مع رجل البنوك (فلاديمير جوسينسكي) الذي كان يتحكم بأغلبية أسهم صحيفة (سيفودنيا) وما كانت تسمى بالقناة التليفزيونية المستقلة، وعندما تخلى رجل الأعمال عن العمدة لجأ الأخير إلى إنشاء قناة تليفزيونية أسماها (القناة المركزية) معتمدا على تمويلها حكوميا.

وقد اختفت الصحف القديمة التي كانت تطبع في عدة مدن وتوزع قوميا وأضحت ٧١٪ من الصحف محلية تخدم المصالح الضيقة لحكومات المقاطعات، فمن يدفع أجر العازف هو الذي يحدد اللحن الذي يلعبه.

وكانت (ومازالت) الحكومات المحلية ذات قبضة قوية على الصحافة المحلية لأن القائمين عليها يتحكمون في المطابع والتوزيع والتسعير والرواتب، ويكافئون الأصدقاء ويعاقبون الخصوم، وإذا كانت هناك ثمة صحافة معارضة فإنه يتم إغلاقها، ولذا تلجأ ربما لطباعة صحيفتها في المقاطعة القريبة، ويتم استخدام الصحافة المحلية في معارك وخصومات رجال السياسة في المحليات، وليس نادرًا ما تؤسس قنوات تليفزيونية محلية

باستخدام صناديق المقاطعة المالية وتستعر هذه الصراعات في ولايات أقصى الشرق أو ولايات التخوم.

وأصبحت وسائل الإعلام أبواقا للصراعات القوية التي تمزق القوميات، فهناك الطابع القومي الروسي، والقومي اليهودي، والقومي السوفيتي لجمهوريات روسيا الاتحادية المتمتعة بالحكم الذاتي، وحدث تمزيق لبنية الإعلام مما جعل النزاع أكبر ومعظم الصحفيين أصبحوا يقودون دعوات للاستقلال، كما أخذت الصحف الشبابية تنشر أشياء خليعة وأكثر مرونة ومجلات جنسية.

واعتبرت الباحثة الأمريكية من أصل صيني (وينجي زانج Zhang) أن الإعلام الروسي فشل في هيكلة نفسه على النمط الغربي إذ تخلفت عن حقبة التسعينات فوضى إعلامية في الملكية وشطط في النقد، وانغماس في الصراع السياسي والاقتصادي الأمر الذي أعطى السلطة السياسية إشارات خطر جعلتها تعيد السيطرة على وسائل الإعلام الروسية بشكل غير مباشر متبعة آليات شتى تعفيها من التأميم والسيطرة المباشرة على النمط السلطوي.

فمن وجهة نظر ليبرالية، تعتبر حرية الإعلام ضرورية لصحة الديمقراطية لأن حرية إتاحة المعلومات تخدم الوظيفة الرقابية، وذلك بالتأكيد على أن ممثلي الشعب المنتخبين سوف يتمسكون بالقسم الذي أقسموه قبل توليهم المناصب العامة وسوف ينفذون أمنيات الجماهير التي انتخبتهم، ففي بعض الأحيان تمثل العداوة بين الحكومة والإعلام دليل صحة حيوي على أن الديمقراطيات تعمل بشكل كفء.

وتأسيساً على ذلك، فإن هدف فترات تحولات الإعلام تبغي دائماً تحويل وسائل الإعلام المسيطر عليها من قبل الحكومات أو المصالح الخاصة لوسائل إعلام منفتحة متحررة تتمتع بقدر كبير من الاستقلال التحريري الذي يخدم المصلحة العامة.

ويتم قياس مدى تحقق المصلحة العامة بتعددية الأصوات داخل وسائل الإعلام، ليس فقط داخل وسائل الإعلام بشكل مسموعة / مرئية / مقروءة

ولكن داخل كل نوع على حدة، وعلى الرغم من أن خطاب إصلاح الإعلام ارتكز على ضرورة استيراد المفاهيم الغربية الديمقراطية لحرية الإعلام، فإن القصورات في التطور الاقتصادي والسياسي مثلت عقبات هائلة في طريق تحول وسائل الإعلام الروسي.

على أحد الأصعدة، وتحت الرئاسة الفائقة أو الرئاسة السوبر للرئيس يلتسين ومن بعده فلاديمير بوتين، فشلت روسيا في تحرير سوق الإعلام وتحرير الصحفيين من القيود التي عانوها في الحقبة السوفيتية.

وعلى صعيد أخر، فإن الفشل في التحول من الاقتصاد المخطط إلى الاقتصادي الحر فضلا عن وقوع الفترة الانتقالية في فترة أزمة اقتصادية عالمية منتصف التسعينات دمرت المقومات المالية للإعلام الروسي.

في الفترة الرئاسية الأولى للرئيس بوريس يلتسين، لم تكن النزعة السلطوية بنفس وضوح سنواته الأخيرة، ففي بداية التسعينات خبرت الميديا الروسية فترة ذهبية قصيرة فساندت التخلص من الآليات الرقابية للدولة، وكافحت من أجل التحرر من اعتماد وسائل الإعلام على دعم الدولة ومساعداتها، وعلى الرغم من ذلك ونتيجة لتأثرها بجماعات مصالح مختلفة ظل صوتها ضعيفاً ومنخفضاً وعندما واجهتها الصعوبات الاقتصادية القوية وإرادة يلتسين بالتحكم في وسائل الإعلام، وصلت لحل وسط معه.

وفي فترة يلتسين الثانية فإن الأمل بتحرير الإعلام من كل القوى تحطم على يد تحالف (قلة من الملاك) والرئيس، ومنذ تلك الفترة بدأت وسائل الإعلام الروسية وكأنها تحن إلى الفترة الشيوعية، فلم تصبح فقط جواز مرور رجال الأعمال إلى السلطة والقوة، ولكنها أصبحت مثل الحلوى في يد الرئيس الذي يريد إرضاء القلة الأوليجاركية وكبح جماحها في آن، وسلاحاً قوياً لتحقيق طموحاته السياسية.

في هذه الفترة، لم يستطع ممارسو الإعلام أن يوفوا بالتزاماتهم تجاه الجماهير، وكان من الصعب الإشارة لهم على أنهم صحفيون أو محررون أو معلقون فقد كانوا أقرب لرجال الأعمال، باعوا أقلامهم ورؤاهم وشرفهم المهني

للرئيس والقلة الأوليجاركية من أجل أن يعيشوا، من أجل البقاء والتمتع بالنزعات الاستهلاكية التي انفتحت شهيتهم لها.

وعلى الرغم من أن وسائل الإعلام الروسية نجحت في الحصول على استقلالية تحريرية من نوع ما خلال العقد من ١٩٩٠ - ٢٠٠٠، إلا أن المشاكل التي واجهتها في العقد الأخير أجبرت معظمها على قبول تغييرات محت الحرية التي تمتعت بها خلال هذه السنوات العشرة.

وقد أعطت انتخابات عام ١٩٩٦ الرئاسية والحملات التي واكبتها كلا من السياسيين ورجال الأعمال دوافع قوية للتحكم المالي في وسائل الإعلام، وسهلت الاعتماد المتزايد لوسائل الإعلام على الأفراد الأغنياء وجماعات البيزنس والقادة السياسيين، في ظل محاولات الملاك والمعلنين استخدام هذه الوسائل كأسلحة سياسية.

وفي نهاية فترة يلتسين الثانية، خطط مسئولو الدولة لإستراتيجية واسعة النطاق تستخدم بشكل أمثل مقدرات الدولة الإعلامية وتحجم الاستقلالية التحريرية لوسائل الإعلام الخاصة، وكان في اعتماد أغلبية وسائل الإعلام على جماعات المصالح والبيزنس بذور نهايتها إذ نجحت سياسات الدولة بتخطيط من «الداهية» بوتين في السيطرة على وسائل الإعلام دون اللجوء لإجراءات التأميم، بل أجبر رجال الأعمال على البيع لمؤسسات اقتصادية وترعاها الدولة وعلى رأسها مجموعة (جازبروم) العملاقة.

١ـ مرحلة بوتين (٢٠٠٠ـ الآن):

في بداية فترة فلاديمير بوتين الرئاسية الأولى، بدا الوضع الإعلامي محبطاً ومثقلاً بالمعاناة، إلا أن روسيا كلها كانت تنتظر تغييرا على يد قائدها القوي الذي بدأ في تكوين إمبراطورتيه.

ويعتبر معظم المحللين السياسيين بوتين محظوظًا بشكل كبير، فقد بزغ نجمه عندما غرقت روسيا في وحل التراجع الاقتصادي والانشقاقات السياسية التي مزقت الحياة السياسية، ويصدق عليه المثل الصيني الشائع: «البطل هو ابن زمنه»، وبشكل مفارق يبدو بوتين بطلا ارتفع فوق الفوضى في روسيا.

وأعاد نجاحه بناء الاقتصاد القومي وحسَّن من الوضع المعيشِي للمواطنين مما زاد من شعبيته ودعم الشعب الروسي لإدارته، وعندما وضع نصب عينيه هدفه بأن يجلو صورة روسيا أمام العالم، حاز بوتين على قوة سياسية طاغية.

وحوّل سلطته النافذة ضد الصحفيين والقلة الإوليجاركية على حد سواء، الذين تحكموا في معظم المقدرات الإعلامية للبلاد. وساعدته على ذلك الإستراتيجية الإعلامية التي اقترب بها من القضايا السياسية الحساسة كحرب الشيشان الثانية، وواجه الصحفيون والمحررون الذين كانوا ضد الحكومة في هذه الفترة التهديد بالاعتقال أو حتى القتل.

وعندما تولى بوتين السلطة اصطدم باللوبي الصهيوني، وقد اتبع معهم منهجا قانونيا واقتصاديا فبدأ يطالب الشركات المخصخصة بالضرائب والرسوم فلم يدفعوا، فاستولى على أسهمهم وحول ملكية معظمها لمجموعة (جازبروم) التي تمتلك الدولة أغلب أسهمها أي أنها عادت لملكية الدولة بشكل قانوني، ومن لم يعد أصبح يعرف أن سيف الدولة القانوني مسلطا عليه.

وفي مارس ٢٠٠٨ عقد بوتين صفقة مع صديقه وتلميذه الرئيس ميدفيديف ليتولى الأخير الرئاسة فترة رئاسية على أن يستمر بوتين رئيسا للوزراء ومهندسا للقوة الروسية من وراء ستار، وأكدت الصفقة نجاح إستراتيجية بوتين في فترتيه الأوليين، وفي هذه الفترة لم يعد بوتين فقط الزعيم الذي يحظى بشعبية طاغية في روسيا بل تعدى ذلك إلى حيازة الشعبية والاحترام خارج روسيا.

وتأسيسًا على ذلك، لم يكن من المرجح أن يغير سياساته حيال الإعلام ولكن مع التطور الديمقراطي وتحسين الاقتصاد كان بوتين متأكدًا من شيء واحد: أن الشعب الروسي لم يكن سعيداً بالنزعة السلطوية التي تمارسها الحكومة على الإعلام على المدى الطويل.

بدأ بوتين في تخفيف هذه القبضة وتغيير استراتيجيات السيطرة ليحولها لأساليب أكثر نعومة وأقل مباشرة ليصل لنقاط وسط وتسوية مع الإعلام

والأصوات السياسية الأخرى، ولعل استجابته حيال أزمة المسرح في موسكو كانت علامة على ذلك، وفي ٢٠٠٢، اعترض بوتين على تعديلات قانون الصحافة والقانون المكافحة للإرهاب التي تضع قيوداً جديدة على الإعلام، إلا أن مجلس الدوما الروسي أقر التعديلات قبيل الحادث الإرهابي الكبير للمسرح الروسي.

وعلى الرغم من أن الصحفيين كانت لديهم شكوك حيال القيود القانونية على العمل الصحفي في فترات الأزمات، فإنهم رحبوا باعتراض بوتين ووجدوا فيه علامة ما على توسيع الهامش الديمقراطي.

في السنوات الأولى لرئاسة فلاديمير بوتين، رجع التحكم السياسي الحكومي لقنوات التليفزيون القومية، وبتولي بوتين السلطة، تبني عددا من السياسات التي استهدفت تقليل استقلالية وسائل الإعلام الجديدة، وزاعماً أنه يحرر وسائل الإعلام من سيطرة القلة الرأسمالية، شنَّ حملة لضم كل قناة تليفزيونية ذات تأثير إلى حظيرة التحكم الحكومي.

ونتيجة لذلك أصبحت القنوات الروسية الرئيسية الذائعة الصيت وعدد كبير من الصحف تحت تحكم الدولة والكرملين.

وهذه الإمبراطورية الحكومية الجديدة تضم وكالتي الأنباء: إيتار تاس ورايا نوفوستي (التي تحولت في ٢٠١٤ إلى روسيا اليوم)، محطات الراديو الرئيسية: راديو ماياك وراديو روسيا ، وقنوات التليفزيون الفيدرالية أو الاتحادية مثل، وروسيا و NTV وأصبح التحكم في التليفزيون الحكومي مهما لأن أكبر الوسائل نشرا للأخبار بين الغالبية من الروس، ففي دراسة أجرتها المؤسسة الحكومة الأمريكية BBG، أوضحت أن ٩٥٪ من الجمهور الروس يتعرض للتليفزيون على الأقل مرة في الأسبوع.

وبينما دفعت القيود الدستورية بوتين للتخلي عن الرئاسة في الفترة من ٢٠٠٨-٢٠١٢، فقد ظل رئيس الوزراء وأقوى شخصية في روسيا وهو حتى الآن أقوى زعيم سياسي واستمر احتفاظه بعلاقات قوية للغاية مع ملاك وسائل الإعلام الروسية التي تشكل التيار العام.

ومع رجوعه للرئاسة عام ٢٠١٢، أحكم بوتين قبضته على وسائل الإعلام التقليدية والالكترونية، فشهدت الصحافة المكتوبة يد الدولة القوية الباطشة تتدخل في تحريرها أثناء وبعد أزمة القرم.

وتسببت الضغوط السياسية القوية من الكرملين في إعادة هيكلة وسائل الإعلام الروسية الكبرى وتغيير قياداتها، وتضمن ذلك تصفية وكالة الأنباء الرسمية رايا نوفوستي وإقصاء يوري فيندكتوف مدير راديو (Ekho Moskovy) إيكو موسكوفي، الراديو الذي كان يتمتع بأعلى سقف للحرية في روسيا.

ولكن لماذا يبدو وضع الإعلام معقدا في روسيا لمن يتابعه؟، لأن عوامل كثيرة تتشارك في المشهد الراهن: تراث الحقبة السوفيتية، خصائص الصحافة الروسية، السلطات، بنية الملكية، التشريعات، والقيم المهنية الصحفية.

وهذا يقودنا لنظام مزدوج بمثل ما يشيع عن الازدواجية في المجتمع الروسي، ويتكون النظام المزدوج من: الإعلام شبه المستقل ذو الصوت المعارض

الذي يتمتع بحرية الكلام ويشمل عدة صحف ومحطة راديو واحدة وعدد من مواقع الإنترنت، ثم إعلام التيار السائد بمعظم الصحف القومية والمحلية وكل قنوات التليفزيون ومعظم محطات الراديو فيما عدا واحدة (إيكو موسوكوفي) الذي يتبع الخط السلطوي ويخفى الأصوات الأخرى، وحتى الأخيرة جرى التخلص من مديرها وتغيير سياستها التحريرية.

ويرى دارسو الإعلام الدولي أن النظام الإعلامي الروسي الحالي لا يمكن أن يقارن بالنظام الإعلامي السوفيتي بعد ستالين وإن كان هناك بعض المشابهات و يخبر الصحفيون مجتمعاً لا يوفر الحماية لهم من العنف والتنكيل والتطبيق العشوائي والانتقائي للقانون وتحاول وسائل الإعلام المناورة في ظل ظروف غير آمنة محاولة إرضاء الملاك والمعلنين والمشرعين والسلطات الفيدرالية والمحلية، إذ لا يمتلك المواطن الروسي القدرة على مساءلة السلطات

سواء كانت فيدرالية أو محلية، وقدرته على جعل هؤلاء الذين أنتخبهم مسئولين عن أفعالهم بعد الانتخاب تكاد تكون منعدمة.

ويسمى متخصصو العلوم السياسية هذه الظاهرة بالديمقراطية المسرحية، وفيها يتم إجراء انتخابات مسرحية تحت ظروف تتأكد فيها الحكومة من إعادة انتخابها، ويرى أحد مستشاري بوتين ويدعي (سوركوف) أن على روسيا أن تبنى ديمقراطيتها على طريقتها وبما يناسب ظروفها، ولتحقيق ديمقراطية ذات سيادة يجب أن يظل حزب روسيا الموحدة في سدة الحكم من ١٥-٢٠ سنة.

وتمتلك روسيا الحالية مشابهات قوية مع الديمقراطية المسرحية، تجري الانتخابات لكي تجئ بحزب روسيا الموحدة الحاكم لمقاعد الدوما محتلا أغلبية مريحة.

وبالتحكم في الانتخابات يجري التحكم في التغطية الإعلامية لتبدو كما لو كانت نزيهة، فالنظام الإعلامي الروسي تم هيكلته ليقنع أغلبية الجماهير بضرورة إعادة انتخاب الحكومة، وتحافظ قنوات التليفزيون على مظاهر الدولة الناجحة الكفء التي تمتلك حكومة ترعى مصالح المواطنين.

بينما تقدم وسائل الإعلام المستقلة خدمات صحافة نقدية واستقصائية فقط للنخبة المثقفة وللدول الغربية طالما هذه النخبة وهذه الصحافة لا تأثير كبير لها يعرقل مسيرة حزب روسيا الموحدة والحكومة المظفرة في الاستحواذ على السلطة، ويعمل النظام الإعلامي في صالح الحكومة السلطوية أكثر مما يشجع على اتجاهات ديمقراطية مسئولة.

ولذا فإنه في روسيا كان هدف (خلق قطاع إعلامي داعم للديمقراطية) هدفًا صعب التحقيق، فبعد ٢٥ عاما على الانتقال من مصارحة جورباتشوف إلى الوقت الحاضر، انتقل الإعلام الروسي فقط من ماكينة الدعاية الشيوعية إلى منتج سلطوي متأثر بالأيديولوجية الغربية وبقايا الأيديولوجية الشيوعية، وكل المؤشرات تقول أن تحرير الإعلام الروسي كان فشلاً ذريعا، وتؤكد أن الإعلام الروسي الحالي هو نوع ما من الإعلام سلطوي يهجن طرائق التحكم والسيطرة المباشرة والخفية للكرملين والرئيس.

١- سوبر بوتين: استخدام التليفزيون على النمط الغربي كتعبير عن القوة أو السلطة

على المستوى الجمالي الشكلي، تبدو قنوات التليفزيون الإخبارية الروسية نسخة كربونية من الـ CNN والـ BBC، حتى أنها تستخدم موسيقى مشابهة، ولكن في الدور الذي تلعبه فإنها تعمل بمثابة مجامر البخور التي من خلالها يتم تقديس شخص الرئيس بوتين على حد تعبير أستاذ الإعلام السياسي (ياسين زاسورسكي).

وانتشرت الصور حول العالم للرئيس بوتين وهو يمتطى صهوة جواده عار الصدر، وهو يطارد النمور، وهو في ملابس جلدية يقود أحد الدراجات النارية الهارلي، وهذه الصور التي تصور بوتين كنجم لأفلام الأكشن تم زرعها وتدويرها للترويج لصورة البطل الخارق أو الإمبراطور الذي يتعالى على نزاعات السياسة الحقيقية، بطل نبيل يريد روسيا قوية وموحدة.

وهناك مشهد يعاد باستمرار في البرامج الإخبارية يظهر فيه بوتين وهو مجتمع بقادة المحليات ومحافظي الأقاليم يتهمهم بإفشال البلاد، والتاريخ يعاد كتابته اعتمادا علي هذه الصور.

يضع الأوتوقراطيون الروس المعاصرون - بفضل الكتب المدرسية الجديدة وعروض التليفزيون - بوتين ضمن تقاليد القادة الروس العظام "الأقوياء" منذ القيصر إيفان الرهيب مرورًا بالإمبراطور بطرس الأكبر وحتى جوزيف ستالين.

وفي الكتب والتليفزيون، تم تخفيف نغمة النقد لجرائم ستالين وتم التأكيد على انتصاره في الحرب العالمية الثانية، فالتاريخ كأي شيء أخر في حالة سيولة ويمكن تشكيله ليلبي الاحتياجات السياسية الحديثة والآنية.

وحتى الآن على الأقل، فإن هذا المزيج من صورة السوبرمان والقيصر والمستبد ناجح للغاية حتى وإن كانت الموافقة على سياسات الحكومة أقل

من ٥٠٪ ، ومع أن ٥٪ فقط يرون أنها جذابة للغاية، إذ إن شعبية بوتين لم تقل أبدًا عن ٦٠٪.

ويخدم نظام الانتخابات الروسي وظيفة مماثلة، فالمراقبون الروس دائمًا يتحيرون من هذا التناقض الواضح: إذا كانت شعبية بوتين عالية حقًا وإذا كانت المعارضة الحقيقية تم حجبها من الظهور التليفزيوني، فلماذا إذن مازال بوتين في حاجة إلى إجراء انتخابات سيفوز بها على أية حال وتحت أي ظروف؟!، وأليس بوتين سيكون أكثر مصداقية إذا اصطنع منافسا حقيقيا له على مسرح السياسة الروسية حتى يثبت أنه منتخب ديمقراطيًا؟!

ولكن هذه الأسئلة تسئ تفسير دور الانتخابات في روسيا، فهدفها الأساسي هو أن تظهر بوتين على أنه متعال لا يمكن لمسه أو النيل منه، وأي مناقشة قد تفسد وتدمر صورة بوتين وليس العكس.

والأولوية التي تلح على الكرملين هو أن يظهر بوتين على أنه متحكم بسيناريو الأحداث، وهي نفس الأولوية التي تظهر القادة المستقلين في محاكمات صورية هزلية مثل محاكمة رجل الأعمال اليهودي (ميخائيل خودوركوفسكي) الذي لم يستطع الكرملين استقطابه واستيعابه عام ٢٠٠٩ ومحاكمة المعارض الروسي (إلكسي نفالني) عام ٢٠١٣ والتي كانتا مليئتين بالعبث واللامعقول: فقد تم اتهام الأول بأنه سرق بترولا من شركته، والثاني بإدارة أعمال فاسدة من دون دليل عليها.

كان هذا العبث متعمدا، وهو يظهر للرأي العام وللمواطنين أن الكرملين يمكن أن يتلاعب بالأحداث كيفما يشاء، يمكن أن يقول على الأسود أبيض وعلى الأبيض أسود دون أن يجد مَنْ يعارضه.

١ـ قيود شديدة على المستثمرين الأجانب في سوق الإعلام الروسي (قانون ٢٠١٤):

وبحلول عام ٢٠١٤، لم يعد بوسع الأجانب أن يؤسسوا وسائل الإعلام في روسيا أو يتملكوا حصصاً كبيرة بها أو أن يسيطروا على محتواها التحريري إذ قرر البرلمان الروسي (الدوما) أن يوافق على التشريع الجديد الذي تم تحرير مسودته الأولى في ١ أكتوبر ٢٠١٤، وحصر القانون الجديد الملكية غير المباشرة من قبل الأجانب في ما لا يزيد عن ٢٠٪.

يؤثر القانون الجديد على وسائل الإعلام المطبوعة ونسخها الالكترونية وعلى محطات الراديو والتليفزيون، ونتيجة لصياغة القانون الموسعة المطاطة فإن القانون الجديد يؤثر أيضًا على الأعمال التي تستخدم التجارة الإلكترونية رغم أن القانون لم ينص صراحة على ذلك، ولكن تأويله في هذا الاتجاه أصبح ممكنا للغاية.

ويعرف «القانون الجديد» الأجانب على أنهم:

- دولة أجنبية أو مؤسسة دولية أو أي كيان يتحكمون به
- كيان قانوني أجنبي
- كيان قانون روسي يملك الأجانب به أكثر من ٢٠٪
- شخص أجنبي (فرد)، شخص غير حامل لأي جنسية

ويمنع هؤلاء من الآتي:

- تأسيس أو المشاركة في تملك أو العمل كمكتب تحريري لأي وسيلة إعلامية روسية جديدة.
- ملكية أو إدارة أو التحكم (بشكل مباشر أو غير مباشر) بأكثر من ٢٠٪ من أسهم أي شركة إعلام روسية أو العمل كمكتب تحريري لها.
- أي مالك لأسهم شركة إعلامية قائمة عليه أن يخفض نسبة أسهمه لأقل من ٢٠٪، ويتخلى عن إدارة تحرير وسيلته الإعلامية.

ويراقب تطبيق قانون (الخدمة الاتحادية للمراقبة التابعة لدائرة الإعلام بوزارة تكنولوجيا المعلومات ووسائل الإعلام) Roscomnadzor، وأي كيان إعلامي قائم يفشل في توفيق أوضاعه وفقا للقانون يتعرض لمخاطر وقف أنشطته الإعلامية من قبل مؤسسة الدولة المسماة Roscomnadzor ويبقي تفسير القانون وإدخال الشركات في دائرته التطبيقية مسألة وقت فور تمرير القانون بشكل نهائي.

وقد وقع الرئيس الروسي بوتين القانون الجديد ١٤ أكتوبر ٢٠١٤ ثم غدا فعالا بدءا من الأول من يناير ٢٠١٦، وأعطيت تمنح وسائل الإعلام فترة سماح لا تتجاوز أول يناير ٢٠١٧ إذا تم تحويل ملكية أغلب الأسهم إلى ملاك روس يملكون أكثر من ٨٠٪ من هذه الكيانات الأجنبية إذا تم الموافقة على هذه التعديلات قبل ١ فبراير ٢٠١٦.

وأصبح للقانون الجديد تأثيرًا هائلا على الشركات الأجنبية العاملة في مجال الإعلام الروسي وامتد إلى الشركات التجارية الإلكترونية على الإنترنت، وسوف يتم اكتشاف طرق تطبيق القانون وتوفيق الأوضاع قريبا لأن طرائق التوفيق أيضاً من المرجح أن تكون متعددة بإعادة هيكلة الكيانات القائمة بالفعل، وربما يقتضي الأمر نزع الملكية قائمين كحل نهائي.

والاستثناء الوحيد من هذه التعديلات على قانون الإعلان الروسي هو أن تكون هناك معاهدات ثنائية أو متعددة الأطراف تكون روسيا طرفًا منها ويقرر منها ويقرر منها الاتحاد الروسي حماية استثمارية معينة لطرف دولي وعدد المعاهدات الروسية التي توفر هذه الحماية جد قليل وكل حالة سوف تعالج بإنفراد.

ومن المؤسسات الغربية التي وسعت خدماتها بالروسية وسوف يطالها هذا القانون: وكالات الأنباء: رويترز، والفرنسية، والأسوشيتدبرس، والصحف الاقتصادية التي حظت بشراكة لا يستهان بها من مجموعات أوروبية وأمريكية مثل: Delovoi Petesburg المملوكة من قبل المجموعة السويدية Bonnier وصحيفة Vedomosti التي أطلقتها مجموعة الماينشيال تايمز وول ستريت جورنال وصحف بريطانية مثل Indepe - dent.

وتعتبر المجموعات الخارجية فاعلة أيضًا في ملكية الإعلام الروسي خاصة ملكية المجلات والصحف الاقتصادية، ولها أسهم في تمويل الإعلام والبرامج الجماهيرية عابرة القومية (Got talent)، (النجم)، و(من سيربح المليون) وغيرها.

ثانيا: مَنْ يملك ماذا في الإعلام الروسي؟

من بين مصادر التعرف على ملكية الصحف في العالم تقرير المتابعة لمؤسسة BBC ومركز بيلفر للعلوم وبحوث الشئون الدولية التابع لجامعة هارفارد الذي تم إنشاءه في إطار مشروع (تقوية المؤسسات الديمقراطية).

ويقسم خبراء ملكية وسائل الإعلام الروسية الذين درسوا ديناميات ملكية الإعلام في روسيا ما بعد السوفيتية ربع القرن الأخير إلى فترتين: من (١٩٩١ـ ٢٠٠٠) ثم من (٢٠٠١ـ ٢٠١٦).

وتتميز الفترة الثانية بمجيء بوتين للسلطة وخطته في نزع ملكية وسائل الإعلام من المعارضين من الملاك الأولجاركيين وقسر المؤسسات الموالية للحكومة على شراءها، بينما يشبه الخبراء الفترة الأولى في التسعينات بالتعبير الإيطالي Lottizzazione أو تقسيم الغنائم، والتي تمتعت فيها الصحافة بحرية مشروطة أو محكومة بتصارع الملاك على القوة السياسية، وبالطبع لم يعد هذا التنازع موجوداً في فترة بوتين التي تتميز بالحدود غير الواضحة، إذ أن معظم الميديا المملوكة ملكية خاصة موالية للكرملين وبوتين ولها بيزنس مشترك مع الحكومة.

وسائل الإعلام المملوكة للدولة

١ـ وكالات الأنباء:

- روسيا اليوم Russian Today (رايا نوفوستي سابقا:
- Previously RIA Novosti)

تأسست عام ١٩٤١، ولها ٧٠ خدمة معلوماتية على الإنترنت بـ ١٤ لغة مختلفة وبجانب خدمة الأخبار ذات الوسائط المتعددة، فهي تملك أيضًا خدمة الأخبار الاقتصادية المسماة Prime، وفي عام ٢٠١٤ تم تصفية وكالة رايا نوفوستي، وورثت مكاتبها وكالة جديدة اسمها روسيا اليوم.

- إيتار تاس ITAR – TASS

تأسست عام ١٩٠٤، ولها ٢٠٠ خدمة معلوماتية تغطي الشئون السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والرياضية بست لغات مختلفة.

١ـ الصحافة المطبوعة:

- صحيفة روسيسكايا جازيتا Rossiyskaya Gazeta

صحيفة يومية تعد الناشر الرسمي للوثائق والمراسيم الحكومية، أسستها الحكومة الروسية عام ١٩٩٠ وهي أهم صحيفة حكومية، تنشر أيضا الأخبار والتحليلات السياسية والاجتماعية، وتصف قراؤها بأنهم من البالغين الذين يتميزون بهادئ الطباع والميول المحافظة.

- بارلمنتسكايا جازيتا Rarlamentskaya Gazata
- تأسست من قبل المجلس الاتحادي (الدوما) في عام ١٩٩٨.
- كرسنايا زفيزتاKrasnaya Zvezda
- المصدر الرئيسي للمعلومات والأخبار المتعلقة بوزارة الدفاع الروسية
- موسكوفسكايا نوفوستي Moskovskiya Novosti

صحيفة يومية تصدرها وكالة روسيا اليوم (رايا نوفوستي سابقا)

بالروسية والإنجليزية والعربية.

١ـ الراديو والتلفزيون:

- فيجترك القابضة Vgtrk Holding

تكونت شركة (فيجترك) لتلفزيون وراديو الدولة عام ١٩٩٠، وانتهت لشكلها النهائي عام ١٩٩٨ وتدير المجموعة الحكومية (أو شركة قطاع الأعمال العام) كل من: القناة الأولى والثانية الروسية، وقناة K الشبابية، وقناة بابي جون .

- زهاء ٩٠ قناة راديو وتليفزيون محلية.

- شركة روسيا ٢٤ والتي تمتلك: RTR Planeta، الخدمة الروسية لقنوات Euro news، وخمس محطات راديو جماهيرية: Radio Kayak ، راديو روسي Rossi، الثقافة Kultura، فيستى إف إم Vesti Fm، وراديو يونست Yunost.

- مجموعة زفيزدا الإعلامية: التي تمتلكها وزارة الدفاع الروسي وتدير محطة راديو وقناة تليفزيون تحت اسم النجم أو Zvezda.

وسائل الإعلام المملوكة لحكومة مدينة موسكو

١ـ وكالات الأنباء: لا يوجد

٢ـ الصحافة المطبوعة:

- تافرسكايا ١٣

الصحيفة الرسمية لحكومة موسكو وقد تكونت من شركة متحدة ما بين عمدة موسكو والدار الحكومية الروسية وتصدر صحف: موسكوفيسكى تورجي Moskovskiye Torgi، (الآباء والأبناء) أو رودتلي وبرفوكلاسنيكي Roditeli i Pervoklassniki، شاستليفايا زفزدا أو Shastlivaya Zvezda.

- فتشرنايا موسكوفا: صحيفة يومية مسائية

٣ـ الراديو والتليفزيون:

مركز التليفزيون : قناة تليفزيونية تأسست ١٩٩٧ معنية بالعاصمة ولكنها تشاهد في كل ربوع روسيا.

- موسكو ٢٤ : Moscow ٢٤
- قناة تليفزيونية إخبارية على مدار الساعة
- مركز الراديو: Radio Center

تأسس عام ١٩٩٧ بقرار من عمدة موسكو وتدير محطات الرياضة ومحطة Govorit Moskova في العاصمة فضلا عن شبكة محلية.

وسائل الإعلام التي تمتلك الدولة أغلب أسهمها ومن ثم تديرها

١ـ وكالات الأنباء: لا يوجد

٢ـ الصحف المطبوعة:

- فيرمايا نوفوستي Vremaya Novostii:

تصدر خمس مرات أسبوعياً مركزة على الحياة السياسية والاجتماعية، تملكها رسميا دار نشر غير ربحية تحمل نفس الاسم، وهي ذات روابط قوية مع (ألكسندر فولشين) الذي كان يرأس الإدارة الرئاسية الروسية من ١٩٩٩ إلى ٢٠٠٣، وخطها ليبرالي ناقد للحكومة أحياناً.

٣ـ الراديو والتليفزيون:

- القناة الأولى الروسية، التي تعتبر أكثر القنوات مشاهدة في كل روسيا Channel 1.

وسائل الإعلام التي تتحكم فيها الدولة بشكل غير مباشر

١ـ وكالات الأنباء:

- وكالة أنباء ريجنم Regnum News Agency

تأسست في يوليو ٢٠٠٢، ولها مكاتب في الجوار القريب لا سيما دول القوقاز ووسط آسيا، ويرجح المراقبون أنها الذراع الإعلامي للمخابرات الروسية الـ FSB، وريثة الـ KGB السوفيتية.

٢ـ الصحافة المطبوعة:

- مجموعة الأيام السبعة: التي تنشر مجلات: الأيام السبعة، itogi، كرافان استوري Karavan Istoriy، تربيونا Tribuna.

٣ـ الراديو والتليفزيون:

- مجموعة جازبروم: Gazprom Media

تأسست عام ١٩٩٨ وتملك الأسماء الكبيرة في عالم الراديو والتليفزيون الروسي: TNT, NTV, Plus ومحطات الراديو: صوت موسكو، ,City FM FPR ، Relax FM، راديو الأطفال دتسكايا Detskoye Radio ، وراديو إيكو موسكوفي بعد شراءه من مجموعة Most.

وسائل الإعلام المستقلة

١ـ وكالات الأنباء:

- إنترفاكس Interfax:

وكالة أنباء مستقلة تأسست عام ١٩٨٩ ولها أكثر من مكتب فرعي في روسيا ودول الاتحاد المستقلة (دول الاتحاد السوفيتي السابق) والصين ودول اسكندنافيا.

٢ـ الصحافة المطبوعة:

- مجموعة أونيكسيم Onexim Group

يملكها ميخائيل بروخوروف وتتحكم المجموعة بشركة الإعلام القابضة RBK التي تمتلك عدة مواقع إلكترونية هامة متخصصة في الشئون الاقتصادية، وقناة تليفزيون RBK، وجريدة يومية تحمل نفس الاسم وكذا مجلة إخبارية شهيرة بنفس الاسم، فضلاً عن مجلات : F5، Snop، والرائد الروسي Russian pioneer.

- مجموعة إكسبرت القابضة: Expert Media Holding

تأسست عام ١٩٩٥ وتنشر المجلة الأسبوعية المتخصصة في مجال الأعمال المسماة (الخبير) وعدة طبعات محلية من نفس المجلة، فضلا عن مجلة المندوب الصحفي الروسي Russian Reporter.

- مجموعة ميديا ٣ Media ـ٣

تأسست عام ٢٠٠٧ وتدير الأصول الإعلامية لشركة (بروم سافيان) التي تتضمن مجلات: الحقيقة والرأي Argumenty i Fakty، ترود Trud أو العمل، ودارين للنشر هما: إكسترا إم، سنتر بلس.

وصحيفة أرجومنتي إي فاكتي (Aif) تأسست عام ١٩٧٨ وجذبت جمهوراً كبيراً وبلغ عدد قرائها ٣٣ مليون في ١٩٩٠، قل قراؤها كما حدث لكل الصحف الروسية ولكنها تظل الصحيفة العامة الأكثر قراءة بما يميزها من مزج التحليل والتوقع السياسي بالحس الوطني بالمقابلات مع الشخصيات المؤثرة وملاحقها الجهوية التسويقية.

تمتلكها مجموعة تحمل نفس الاسم وبنك (برمزفايز) أكبر البنوك الروسية وتصف قرائها بأنهم من العمال ورجال الأعمال المثقفين والسياسيين والمدراء وتتبع الخط الوطني لبوتين، وأسهمها من نوع (ZAO) أي يتم تداولها بشكل مغلق.

- دار نشر كومرسانتKommersant Publishing House

تأسست عام ١٩٨٩، وتصدر الصحيفة اليومية التي تحمل نفس الاسم والتي تعنى (رجل الأعمال) وعدة مجلات أسبوعية: فلاست (السياسة)، د نجي (البيزنس)، أوجنويوك Ognoyok للشئون الاجتماعية السياسية، لايف ستايل، ومجلة السيارات (أوتوبايلوت) Autopilot ومجلة الشراء الشهرية (كتالوج) والشهرية في مجال الأعمال (سيكرت فيرني)، وكذا النسخة الأوروبية لمجلة (كوفرسانت) ولها محطة راديو وقناة تليفزيون تحمل نفس الاسم.

وصحيفة كومرسانت Kommersant هي الصحيفة اليومية الاقتصادية الرائدة في روسيا، وأكثر الصحف مصداقية وموثوقية وتأثيراً في صانعي القرار الروسي، ونصف قرائها تقريباً من المديرين والمتخصصين.

يملك الصحيفة الآن مجموعة تحمل نفس الاسم وأسهمها يتم تداولها بشكل مغلق وهذا النوع من الشركات يسمى (Zao) وكانت من قبل مملوكة لرجل الأعمال بوريس بيريزوفسكي قبل أن يستقر حتى الآن

في منفاه الذي أجبر عليه . في عام ٢٠٠٦ بيعت إلى إمبراطور صناعة الحديد (علي شير عثمانوف) الذي يعد شريكاً في عملاق الطاقة (جازبروم) والذي يمتلك الحصة الأكبر في نادي الأرسنال الإنجليزي، ويعد عثمانوف مواليا للكرملين وذا علاقات قوية مع عملاق الطاقة (جازبروم)، وعندما أصبح مالكا لمجموعة كومرسانت استقال رئيس تحرير الجريدة (فلاديسلاف برودولين) وحل محله (أندريه فاسليف) حتى عام ٢٠٠٥ ووقتها أعلن أنها ستظل ناقدة للحكومة وتنشر مقالات ربما لا ترضي المالك.

- دار نشر رديونوفا Rodionova Publishing House

تأسست في عام ١٩٩٦، ويملكها (سيرجي روديونوف) وتنشر مجلة أسبوعية تدعى (بروفيل أند كومباني) والمجلات الشهرية اللامعة للرجال FHM ، XXL، كريستينكا، ومجلة الآباء والأمهات (موي مالينكي) أو صغيري.

- دار نشر كومسوملسكايا برافدا Komsomolskaya Pravda Publishing House

تأسست عام ١٩٩٢، تملكها الآن مجموعة (ESN) التي يديرها جريجوري برزكينا، وتصدر الصحيفة اليومية الشهيرة التي تحمل نفس الاسم، والصحيفة الأسبوعية (كي. بي. تولستوخا)، واليومية (تيلي بروجراما)،

وصحيفة التابلويد (إكسبرس جازيتا) واليومية الرياضية (Soviet Sport) ولها محطة راديو وقناة تليفزيونية تحمل نفس الاسم.

وصحيفة كومومولسكايا برافدا أشهر صحيفة نصفية تابلويد في روسيا، ورثت أسمها من الحقبة السوفيتية، وصلت لأعلى قارئية عام ١٩٩٩بحوالي ٢٢ مليون نسخة، ويتميز خطها التحريري بدعم الكرملين والاهتمام بأخبار المشاهير وفضائحهم في روسيا وحول العالم.

تمتلكها مجموعة نشر أسهمها من نوع متداول مغلق (ZAO) والتابعة لمجموعة الطاقة (Yesiv) التي يمتلكها (جريجوري بيرزكين) الذي له علاقات قوية بمجموعة (جازبروم) العملاقة التي تنتهي عندها كل الخيوط تقريباً.

- فيدوموستى: Vedomosti

هي صحيفة يومية اقتصادية تأسست عام ١٩٩٩، تنشر بالتعاون مع صحيفة (وول ستريت) وصحيفة (فايننشيال تايمز) وترجع ملكيتها إلى شركة Business News Media، والتي تملكها مجموعة بيرسون عابرة القومية كندية المنشأ، وشركة داوو جونز، مع مجموعة سانوما للنشر الفنلندية، وأسهمها من نوع (ZAO) وهي لا تديرها مؤسسة روسية ولذلك فإن قانون ٢٠١٤ وضعها في موقف حرج إذ تجد لزاماً عليها أن تديرها شركة إعلامية روسية.

- نوفايا جازيتا: Novaya Gazeta

أهم صحيفة معارضة روسية تأسست عام ١٩٩٣، كانت تصدر ٣ مرات أسبوعياً وأصبحت تصدر يوميا، وخطها المعارض ليبرالي، تشتهر بصحافتها الاستقصائية وتغطيتها الناقدة للحياة السياسية والاجتماعية في روسيا.

وخلال ٨ سنوات من ٢٠٠٠ـ ٢٠٠٨، لقي ٤ من صحفيي نوفايا جازيتا مصرعهم منهم الصحفية الاستقصائية والناشطة الحقوقية (أنّا بوليتكوفسكايا) ولم يتم التوصل لمرتكبي هذه الحوادث، وتمتلكها مجموعة نشر تحمل

نفس الاسم التي تعرف نفسها على أنها مستقلة وغير ربحية يملكها العاملون بها، ولكن في يونيو ٢٠٠٦ امتلك ٤٩٪ من أسهمها أخر رئيس سوفيتي ميخائيل جورباتشوف ورجل الأعمال (ألكسندر ليبيديف).

- مجموعة نيوز ميديا: News Media

يملكها (آرام جابريلينوف) والتي تدير أشهر صحيفة تابلويد روسية (جيزن) Zhizn وصحيفة إزفستياIzvestiya ، وصحيفة Tvoy Dyen، ومجلةHeat ، والموقع الإلكتروني Life، وقناة تليفزيون Life.

وصحيفة إزفستيا Izvestya صحيفة يومية تأسست في الحقبة السوفيتية،وتملكها مجموعة نشر تحمل نفس الاسم وبيعت عام ٢٠٠٥ لمجموعة (جازبروم ميديا) الحكومية ومن وقتها تبنت خطاً مواليا للكرملين،

وفي ٢٠٠٨ امتلكت أغلب أسهمها شركة (سوجاز) للتأمين التي يمتلكها بنك روسيا في سان بطرسبرج والمشارك في ملكيته رجل الأعمال (يوري كوفاليتشك) الذي يقال أنه الشريك الرئيس للرئيس بوتين، وأسهمها ذات تداول مفتوح OAO.

- صحيفة موسكوفيسكي كومسوموليتس Moskovsky Komsomolets

صحيفة يومية تنحو إلى انتقاد الحكومة الروسية الاتحادية ولكنها تدعم حكومة موسكو وخاصة عمدتها (يوري لوجكوف)، يتم انتقادها بأن خطها التحريري يؤسس لكراهية للأجانب ولغتها تحفل بالكراهية العنصرية، تملكها دار نشر تحمل نفس الاسم ويرأس تحريرها (بافيل جوسييف) الذي يعتقد أنه يشارك في ملكيتها وشركتها ذات تداول مغلق.

- نيزافيزيمايا جازيتا: Nezavisimaya Gazeta

صحيفة يومية تصدرها في موسكو شركة النشر التي تحمل نفس الاسم، تركز على تحليل الأحداث السياسية والاجتماعية، وكان يملكها رجل الأعمال المبعد (بوريس بيريزوفسكي) بيعت للمدعو (قسطنطين ريمتشكوف) عام ٢٠٠٥ الذي كان مستشاراً للحكومة الروسية والذي أصبح عام ٢٠٠٧ رئيس تحريرها.

٣ـ الراديو والتليفزيون:

- مجموعة الإعلام الوطني National Media Group

تأسست عام ٢٠٠٨، وهي عبارة عن مجموعة تضم عدة شركات ورجال أعمال هم: AB Russia ، إلكسي مورديشوف، ومجموعة Surgutneftegaz ، وشركة التأمين (سوجاز).

وفي يونيو ٢٠١١ اشترت شركة RTL الأوروبية أسهمًا فيها وتدير محطات تليفزيون: Petersburg Channel 5، قناة REN، ولها أسهم في مجموعة STS الإعلامية.

- مجموعة بروف ميديا: Prof Media

تأسست عام ١٩٩٧، وهي جزء من مجموعة تسمى إنتروس Interros يملكها (فلاديمير بوتانين) وهي تدير قنوات تليفزيون: TV_3 ، 2×2، MTV Russia ، ومحطات راديو: Avto Radio ، Energy ، Humor FM ، R ـ mantika ، ولها عدة صحف أشهرهم مجلة (لايف ستايل)، ولذا فهي شريك دار نشر كومرسانت.

- مجموعة يوتيفي القابضة: Yutv Holding

تأسست عام ٢٠٠٩ من التقاء رؤوس أموال كلا من: إيفان تافرن وعلي شير عثمانوف وأشهر قنواتها الموسيقية: MUZ– TV وقناة_TV 7

- مجموعة إس تي إس STS Media

معظم أسهمها تملكها الشركة السويدية Modern Times ، وشركة الغاز (إترنا)، ومجموعة الإعلام الوطني، وتدير ٣ قنوات تليفزيونية: منزلي Domashny، Peretz أو الفلفل STS .

وستة من الصحف العشرة الرئيسية في روسيا هي شركات اقتصادية ربحية أسهمها تدار في البورصة الروسية ولكن بشكل غير علني أي سوق مغلق على شركات بعينها ويشار اختصارا لهذه الشركات باختصار (ZAO).

وسبعة من بين العشرة يملكها رجال أعمال ذوي علاقات وثيقة بالحكومة الروسية ولذا فالمتغير الأهم ليس نوع أسهمها أو بنيتها الرسمية بقدر مستوى ولائها للحكومة التي (فعلياً) تمتلك دور النشر هذه، ودرجة تدخل الحكومة في عمل هذه الصحف.

وسائل الإعلام الروسية التي تخاطب الجمهور الخارجي

أولاً: الخدمة الإخبارية لوكالة أنباء روسيا اليوم (رايا نوفوستي سابقا)

تحولت في فبراير ٢٠١٤، وتقدم خدماتها الإلكترونية الإخبارية السبعين بـ١٤ لغة مختلفة هي: الروسية والإنجليزية والألمانية والفرنسية والأسبانية والفارسية والعربية، والصينية واليابانية والأرمينية والأذربيجانية، والجورجية، والكازاخية، والمولدوفية.

وللوكالة عدة خدمات خاصة:

١- جريدة أنباء موسكو وهي النشرة العربية (موسكو نيوز)، وهي صحيفة شهرية تأسست عام ١٩٦٩ وظلت متواجدة حتى ١٩٩٢، ثم أعيد إطلاقها إلكترونيا في أكتوبر ٢٠٠٩ بعد انقطاع دام ١٧ عامًا.

٢- الملف الروسي: وتتكون من خدمة إلكترونية Russia Profile.org

والتي ينشر تقارير فصلية متخصصة باللغة الإنجليزية، وهو شائع بين الصحفيين المجيدين للإنجليزية.

٣- فكرة جديدة عن العلاقات الروسية الهندية:

مجلة تصدر باللغة الإنجليزية وهي الجريدة الوحيدة التي تقدم معلومات عن روسيا للقراء الهنود وتصدر ٦ مرات في السنة.

ثانيًا: الخدمات الإخبارية لوكالة أنباء (إيتار تاس)

ثالثة أكبر الوكالات الإخبارية الروسية والمتخصصة أيضًا في الصور والوسائط المتعددة وتقدم تقاريرها المحدثة عن روسيا بالروسية والإنجليزية والفرنسية والألمانية والإسبانية والعربية.

ثالثًا: تليفزيون روسيا اليوم RT

قناة تليفزيونية إخبارية على مدار الساعة تأسست عام ٢٠٠٥ لتغطي العالم أجمع ولها ٣ قنوات تبث بالإنجليزية والإسبانية والعربية، وأصبح الاختصار RT بمثابة اسم تجاري حتى لا يختلط مع وكالة (روسيا اليوم) الجديدة.

رابعًا: مجموعة إنترفاكس للخدمات المعلوماتية

تضم ٣٠ شركة تتحكم في شبكات قومية وإقليمية ودولية تضم وكالات الأنباء التابعة لروسيا ودول الاتحاد السوفيتي السابق وكذا دول وسط وشرق أوروبا والصين.

خامساً: راديو سبوتنيك (صوت روسيا سابقا The Voice of Russia)

راديو دولي تموله الحكومة الروسية منذ عام ١٩٢٩، وتم تصفيته ٢٠١٤ ودمجه مع وكالة روسيا اليوم، وتحويل اسمه إلى راديو سبوتنيك.

سادسًا: روسيا فيما وراء العناوين

وهو الملحق الخارجي للمجلة الشهرية (روسيسكايا جازيتا) التي تنشر أخبارًا عن الحياة في روسيا منذ ٢٠٠٧ وهي مندمجة شبكيًا من عدد من الصحف الرائدة حول العالم مثل التايمز البريطانية .

***

مراجع الفصل

١ـ محمد فراج أبو النور: هيكلة الإعلام في المراحل الانتقالية: خبرات عربية ودولية، موقع الائتلاف الوطني لحرية الإعلام، http://ncmf.info/?p=3570

2- Alexander Merkushev, the Russian and Soviet Press: A Long Journey from Suppression to Freedom, the Joan Shorenstein Barone Center, JFK School of Government, Harvard University, August 1991. pp.12-14.

3- Brigitte Hopstad, the Russian Media under Putin and Medvedev: Controlled Media in an Authoritarian System, MA Thesis, Department of Sociology and Political Science, Faculty of Social sciences, University of Science and Technology, Norway NTNL, Feb 2011, pp.8486-.

4- David Wedgwood Benn, The Russian Media in Post-Soviet Conditions, Europe-Asia Studies, 48(3), 1996. Pp. 471 – 779.

5- DLA Piper, Navigating the New Russian Media Law, @ www.dlapiper.com.

6- Elena Rodina, How Publication Type, Experience, and Ownership affect Self- Censorship among Moscow Newspaper Journalists, MA Thesis, Department of Russian and East European Studies, University of Oregon, USA, June 2010.

7- Katherine Ognyanova, Careful What You Say: Media Control in Putin's Russia, International journal of E-politics, 1(2), 2010, pp. 115-.

8- Laura Belin, The Russian Media in the 1990's, Journal of Communist studies and Transition Politics, 18 (1), 2002. Pp. 139160-.

9- Peter Pomerantsev, Russia: A Postmodern Dictatorship, Global Transitions, Institute of Modern Russia, October 2013, pp.

10- Rutger Von Seth: The Language of the Press in Soviet and post -Soviet Russia: Creation of the Citizen Role through Newspaper Discourse, MA thesis, Department of Politics, University of Glasgow, 2011.

11- Wenjie Zhang: The Post-Soviet Russian Media Reform, MA Thesis, University of North Carolina at Chapel Hill, Center of Russian and East European studies, 2006, pp. 210-.

***

الفصل الثالث

الإعلام الجديد في روسيا

مقدمة:

في الوقت الذي تولى فيه فلاديمير بوتين الرئاسة، كان الإنترنت موجوداً في الحياة الروسية زهاء ١٠ سنوات إذ تأسست الشبكة الحكومية Relcom/ Demes كجهد مشترك بين وحدة أبحاث جامعية ومعهد للفيزياء النووية، وقد ظهرت أهميتها أثناء محاولة الانقلاب على ميخائيل جورباتشوف عام ١٩٩١ لبث الأخبار إلى مستخدمي الاتحاد السوفيتي وللغرب.

وعلى الرغم من أن هذه التجربة دفعت إلى التفاؤل بمستقبل الإنترنت في روسيا، كبديل للفضاء الاجتماعي العام، فإنه قبل عام ٢٠٠٠ لم يعتمد الكثيرين على الإنترنت كمصدر للأنباء.

وبداية من عام ٢٠٠٠، بدأت الحكومة الروسية في ملاحظة أن الإنترنت سيصبح وسيلة كبرى للتأثير، ولهذا فقد أطلقت عددا من المشروعات الإلكترونية الطموحة وعلى رأسها الخدمة القومية للمعلومات Strana.ru وهو نظام معلومات وطني يشمل بوابة رئيسية ومواقع إقليمية في كل واحدة من المقاطعات الفيدرالية الروسية، وتتم إذاعة جميع القنوات التليفزيونية الوطنية الرائدة على هذا الموقع في الوقت الفعلي، وعلى الرغم من أنه موقع مستقل رسمياً على الانترنت إلا أن سياسته التحريرية قريبة للغاية من الإعلام الحكومي.

كانت خدمة Strana.ru تهدف للدعاية الرسمية للحكومة، ووفرت لها الحكومة مراسلين في كل مناطق الإتحاد الروسي، ولكنها لم تحقق نجاحاً كبيراً لأن الجمهور العام التصق بالتليفزيون، وفضلت نخبة الإنترنت مواقع أخرى إخبارية أصبحت أكثر نجاحاً وتجارية بفضل الاستثمار فيها.

وبالنسبة لجماهير معينة وهم الشرائح العليا من الطبقة الوسطى الروسية التي تعيش في المدن والعواصم، فإن الإنترنت يحتل في حياتهم مكانة التليفزيون بعد أن كفلت التطورات التكنولوجية مشاهدة برامجهم التليفزيونية المفضلة على الإنترنت، وهو جمهور يتميز بالتعليم العالي والوعي الجيد بالقضايا السياسية.

وحتى السنوات الأخيرة، لعب رأس المال الخاص المسيس دورا كبيرا في مستقبل الإنترنت في روسيا كما في وسائل الإعلام التقليدية.

ويعد موقع Polit.ru وهو بوابة للأخبار والسياسة على الإنترنت واحداً من أقدم مواقع الأخبار الروسية على الإنترنت وقد تأسس عام ١٩٩٦، وبحلول عام ١٩٩٩ كان لدى روسيا بالفعل العديد من الصحف الرائدة على الإنترنت، وأول صحيفة يومية على الإنترنت هي Gazeta.ru وأول خدمة أخبار على مدار الساعة هي Lenta.ru وروسكي جورنال والصحف على الإنترنت utro.ru وvesti.ru، وكل وسيلة إعلامية روسية من التي تم ذكرها في الفصل الثاني لها موقع إلكتروني على الإنترنت.

وأشهر محرك بحث روسي هو ياندكسYandex وهو اسم للشركة المالكة له أيضا، ويستوعب ياندكس حوالي ٦٠٪ من نسبة البحث على المحركات في روسيا، ظهر محرك البحث الروسي في سبتمبر ١٩٩٧ أما الشركة نفسها فيعود تاريخ تأسيسها إلي ١٩٩٠ عندما قام روسيان بتأسيس شركة باسم أركاديا لتصنيف السلع وبراءات الاختراع معتمدين على تقنيات البحث والفهرسة باستخدام اللغة الروسية.

يأتي محرك البحث ياندكس في المرتبة الخامسة بالنسبة لمحركات البحث على مستوى العالم بمعدل وصل إلي ١٥٠ مليون عملية بحث (في ١٥ أبريل ٢٠١٢) وأكثر من ٢٥ مليون زائرا يوميا (مايو ٢٠١٢)، وترى الشركة صاحبة المحرك أن دورها هو محاولة الإجابة على كافة الأسئلة التي تشغل بال الباحثين .

ومعظم البحوث التي أجريت على شبكة الإنترنت في روسيا أجريت بحس نقدي ينعي حرية الإعلام الروسي التي ضاعت مع وصول بوتين لكرسي الرئاسة إلا أن البعض ثمَّن الجهود الروسية التي تبغي السيطرة على الإعلام الإلكتروني منعاً لانتشار دعاية الجماعات المتطرفة على الإنترنت.

وطبقا لتقرير أعدته مؤسسة (بيت الحرية) عام ٢٠١٢، يوجد ثلاثة طرق رئيسية للتحكم في الإنترنت في روسيا:

- معوقات للدخول على مواقع معينة تستخدم تقنيات وتطبيقات الحجب.
- قيود على المضامين تستخدم برامج الفلترة وحجب المواد الإعلامية والرقابة الذاتية والدعاية الإلكترونية المضادة، وتعّول على ثقافة المعلومات السائدة والتقاليد السياسية للدولة.
- انتهاك حقوق المستخدمين بتطبيق القوانين المطاطة انتقائياً، ومقاضاة أصحاب المواقع، والتحرش بهم واستهدافهم، وذلك عبر التأطير السلبي للإنترنت، وتهديدات السلطة للمدونين.

أولا: طرائق التحكم والسيطرة على الإنترنت في روسيا

لا يمكن فهم تأثير الحكومة على مضامين الإنترنت إلا بفهم السياق السياسي الإعلامي للنظام في البلاد وكذا اتجاهات الجمهور الروسي.

فقد أثبتت البحوث إنه لا توجد قبضة قوية على الطريقة السوفيتية تتحكم في المضامين الإلكترونية، وليس هناك فلترة كاملة لهذه المضامين كما في الصين، عوضاً عن ذلك تتبع الدولة إستراتيجية متقدمة للتلاعب بمضامين الإنترنت واحتوائها، والذي يجعل ذلك ممكنا ثقافة المعلومات السائدة في المجتمع الروسي.

ومع التحكم الكبير في وسائل الإعلام التقليدية التي يثق بها الناس: الصحافة المطبوعة، والراديو والتليفزيون، لا تحتاج الحكومة الروسية إلى

فرض رقابة قوية على الإنترنت ومواقعه الإلكترونية، فالوسائل التقليدية هي التي يثق بها الناس على الرغم من علمهم بأن الدولة تتحكم فيها فهم يؤمنون بأن الدولة يجب أن تفعل ذلك.

ذلك لأن ديناميكيات النظام الروسي تختلف عن تلك في الدول الديمقراطية وحتى عن تلك في الدول السلطوية كالصين.

وأحد العوامل الهامة أيضًا في قلة الرقابة المفروضة على الإنترنت والتعامل فرديًا مع الأصوات النقدية العالية هو قلة عدد المرات التي حرك فيها الإنترنت - وتحديدًا مواقع التواصل الاجتماعي - الشارع الروسي، وكفاية الوسائل التي اعتمدتها الدولة في الفترة من ٢٠٠٩ – ٢٠١٢، وزيادة الرقابة «نسبيًا» على هذه المواقع تواكبًا مع ثورات الربيع العربي، فالحشد ضد بوتين لم يكن من ضمن مطالبه إزاحة بوتين ولكن تطهير الحكم من الفساد.

١- التوتر بين المجالين الخاص والعام

مثلما هو الحال في النظم الشمولية السلطوية (الديكتاتورية) فإن المجتمع الروسي لديه فارقا بين المجالين العام والخاص، وهذا الفصل ما بين العام والخاص يضع حدوداً تقسم الأماكن والأفعال والحوارات إلى عالمين منفصلين وكانت هذه ضرورة في الفترة السوفيتية تحل التناقضات ما بين الأيديولوجية المثالية وحياة كل يوم.

وكما في طبيعة الشخصيات التي رسمها جورج أورويل في روايته ١٩٨٤، كان الجمهور الروسي في حاجة إلى هذه الازدواجية، هذه القوة التي تجمع نوعين متضاربين من المعتقدات.

كان الخطاب الشائع عن العدالة والمساواة يتحاور مع خطاب حياة كل يوم التي يوجد فيه منافع الحزب، وندرة الموارد والبيروقراطية والفساد، ولم تكن معايير العام والخاص متسقة بحال.

وفي روسيا المعاصرة فإن هذه الازدواجية مستمرة، فالمثال البوتيني عن (روسيا الموحدة) وهو اسم الحزب الذي يرأسه يعطي المبرر للتعسف ضد وسائل الإعلام المناوئة والممارسات التي لا تناقش في المجال العام والتي تعبر عنها في روسيا بعبارة (حوارات طاولة المطبخ).

فعبارات المشاركة الديمقراطية الشائعة مثلا في الخطاب الأكاديمي الغربي لا يرددها الأكاديميون في روسيا، وعبارة (المجال العام) الذي دشنها يورجين هبرماس ليس لها علاقة بالواقع الروسي، وعوضاً عنها اقترح المنظر الروسي زاسروسكي بديلا أسماه (المشهد العام) Public Scene الذي هو أقرب لمفهوم (دي بور) عن مجتمع الفرجة والذي يوحي بأن المجال العام الروسي متخيل ومصطنع وليس حقيقياً.

فعلى الرغم من أن الإنترنت وسيلة مفتوحة ويمكن الوصول إليها، فإن المستخدمين الروس يعاملونها على أنها بيئة غير رسمية شبه خاصة.

وإذ أضحى للمنشور على المواقع الالكترونية تأثيرا على العالم الحقيقي فقد زاد عدد المحررين والمدونين المتعرضين للعقوبات والتهديد والقتل أحياناً حتى لا يتحول الإنترنت لمجال عام حقيقي.

وتثبت الدراسات الحديثة أن الإنترنت في روسيا هو بديل للمجال الذي يحدث فيه النقاش الاجتماعي العام، هو بديل عن هذا المجتمع المدني فنادراً ما يظهر فيه الأقاويل بصدق وصراحة وأمان والإنترنت مازال فيه فجوة بين من يملك الدخول عليه ومن لا يملك ولأنه يعتمد مع التليفون فأصبح استخدام الإنترنت مماثلا لاستخدام وسائل الإعلام الأخرى وليس بديلا لها.

والنتيجة أنه من الصعب جدا أن تفكر أن الإنترنت وسيلة للتعبير الحر خالية من الرقابة، ولم يلعب حتى الآن دوراً كبيراً في التحول الديمقراطي، فالمجتمعات الأون لاين تميل إلى أن تكون مغلقة وغير متسامحة، وبالنسبة لقادتها إما أن يتم احتواءهم أو التوصل لصيغة للتفاهم معهم حتى لا تبلغ المضامين حداً حرجاً تستلزم التدخل الحكومي المباشر.

وتأسيسا على بيانات موجودة عن حرية الصحافة والرقابة على المضامين الالكترونية، تستكشف الدراسات الحديثة السياق الاجتماعي الثقافي لسيطرة وتحكم الكرملين في الإنترنت وفي هذا الإطار تناقش ٣ دوائر من علاقات القوة:

الأولى: تناقش روتين الرقابة الذاتية، روتين الرقابة عامة المتأصل في التقاليد المعلوماتية الروسية، والثانية: تناقش تحكم الدولة في وسائل الإعلام التي تشكل التيار الرئيس العام للإعلام في روسيا وفيه تدخل الأخبار عبر مرشح (فلتر) سياسي وعبر تأطير معين لدور الإنترنت السلبي في الحياة الروسية والثالثة: تتعلق بمناقشة الأطر التشريعية في روسيا وتطبيقاتها الانتقائية.

ويشير التحليل أن أغلب الوسائل المستخدمة في التحكم في المضامين غير المرغوبة من الإنترنت ليست خاصة بهذه الوسيلة بل هي امتداد لآليات الرقابة على وسائل الإعلام التقليدية.

٢ـ التحكم في تدفق المعلومات

تستخدم روسيا في التحكم في الإنترنت نفس الآليات وديناميات السلطة والأطر التشريعية التي تستخدمها في التحكم في الإعلام التقليدي، ويعتبر التأثير غير المباشر عبر وسائل الإعلام التي تشكل التيار السائد آلية قوية للغاية تحل في أغلب الحالات محل السيطرة المباشرة على الوب.

والتحكم في الإعلام التقليدي السائد ينتج عنه شيئان يؤثران على الإنترنت الأول: تقليل تدفق الأخبار والثاني التركيز على تأطير معين للإنترنت وبيئة الإعلام الالكتروني الذي يؤثر على اتجاهات الجماهير حيال الوب ومصداقية المضمون الإلكتروني في أعينهم.

وأي ضغط يوضع على وسائل الإعلام التقليدية يمتد إلى الإنترنت ببساطة لأن أغلب وسائل الإعلام التقليدية المميزة لها مواقع على الإنترنت، وهي معتمدة بشكل شبه تام على وضع الأجندة في وسائل الإعلام التقليدية.

فمن الصعب على وسائل الإعلام الالكترونية بما فيها المدونات ومواقع إنتاج الفيديو والمنتديات أن تجلب موضوعا للنقاش ليس مطروحاً على وسائل الإعلام التقليدية، فآلية الحضور/ الغياب في وسائل الإعلام التي تشكل التيار السائد هي التي تحدد ماذا يؤثر على صانع القرار في البلاد.

وبجانب وضع أجندة الإعلام الالكتروني، فإن الصحافة وقنوات التليفزيون الرئيسية ترسم الخطوط والحدود للخطاب في المجتمع، ففي روسيا ما بعد السوفيتية يتشكل الخطاب الإعلامي المسموح به تحت ضغط شديد من الحكومة.

وهناك بالطبع قوائم بالموضوعات التي لا يمكن مناقشتها في وسائل الإعلام وقوائم بالشخصيات الممنوع ظهورها في التليفزيون، ومن خلال الملكية والتطبيق الانتقائي للقوانين المالية والجنائية، تحكم الحكومة قبضتها على الإعلام التقليدي، وما تبقى من وسائل إعلام مستقلة ليس لديها الرغبة في انتقاد سلطة الكرملين، لأن الذين فعلوا ذلك في الماضي تعرضوا لعقوباتها ومحاصرتها.

ونادراً ما تلجأ السلطة إلى قضايا السب والقذف أو التشهير إذ إن التطبيق «المزاجي» لقوانين الضرائب كفيل بإسكات هذه الوسائل، والتهديد بعقوبات مستقبلية كفيل بجعل هذه الوسائل مطيعة.

٣ـ تأطير الإنترنت

الآلية الثانية التي تعيق الإمكانية الديمقراطية للإنترنت تأتي عبر إقناع الجماهير بأن الإنترنت وسيلة خطرة متحيزة لا يعول عليها، ومما يسهل ذلك الانقسام الرقمي في روسيا أو الفجوة الرقمية في روسيا، فحتى عام ٢٠١٣، كان نصف السكان تقريبا لا يعرفون شيئا عن الإنترنت ولا يملكون الإمكانات المادية لحيازة هذه التكنولوجيا واعتمادهم الأكبر على التليفزيون، فحوالي ٥٣٪ فقط يمكنهم تصفح الانترنت، ولهذا فإن التأطير المعين للانترنت يبدو فعالاً في هذا الصدد.

والتأطير كما يرى (روبرت إنتمان) هو اختيار بعض أوجه الحقيقة المدركة والتركيز عليها، علاوة على تكرار تفسير بعض الحقائق وتقديم أسباب معينة للمشكلات وحلولها، وهؤلاء الذين يشاركون في وضع الإطار هم: الرئيس، الكرملين، والنخب السياسية الأخرى، والصحفيون ومؤسسات الإعلام بصفة عامة، فضلا عن هؤلاء الذين يمتلكون المصادر التي تشكل

قوى الإنتاج والقهر على حد تعبير المفكرين ميشيل فوكو ودي سيرتو، مثل المؤسسات التي تحتكر استخدام العنف وتطبيق القانون كالشرطة والجيش، ومؤسسات وضع القوانين كالقضاء، وأصحاب رؤوس الأموال، وهؤلاء أيضا قريبون من الرئيس والكرملين.

والتأطير الذي يتعلق بالإنترنت يلعب على أوتار التخويف في الأغلب، ويردد الاستعارات الخاصة به، فتم تصوير الإنترنت كما في مقال عمدة روسيا يورى لوجكوف عام ٢٠٠٤ على أنه:

- مكان يتم فيه الترويج للمخدرات والعنف والدعارة، فضلا عن تجارة الرقيق الأبيض ودعارة الأطفال.
- استغلال الإنترنت من قبل الإرهابيين الذي يعلمون في الخفاء ليس فقط لمراسلاتهم ولكن أيضاً كبنية أساسية للإرهاب المسلح.
- مكان لسرقة الحقوق الأدبية وحقوق التأليف.
- مكان لانتهاك الخصوصية والاطلاع على حياة الآخرين وهويتهم وهوية أصدقائهم وأقاربهم.
- مكان يتم الترويج فيه للأكاذيب مستخدماً قاعدة (جوبلز): كلما كانت الكذبة أكبر كلما أمكن تصديقها.
- الإنترنت مشروع أسسته ورعته وما زالت وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية.

ولذلك فإنه في استطلاع رأي قام به مركز (أننبرج) الأمريكي للعلاقات العامة على عينة من الجمهور الروسي المغترب في الولايات المتحدة، جاء الإنترنت ذو مصداقية منخفضة بعد الصحف والتليفزيون.

ومما يثبت ازدواجية الخطاب العلمي الأمريكي تجاه الإنترنت في روسيا، دراسة شيريل كروس وهي أستاذة أمريكية متخصصة في العلاقات الأمنية الروسية الأمريكية، وخريجة معهد راند الجناح الأكاديمي للمخابرات

المركزية الأمريكية ثم حاضرت في كلية الحرب الجوية في ألاباما وعملت أستاذا للعلوم السياسية بجامعة سان جوزيه بكاليفورنيا وهي الآن أستاذة مرموقة بجامعة سانت إدوارد بأوستن ومديرة مركز كوزموتسكي للريادة والامتياز.

إذ ترى في دراستها أنه تم استهداف روسيا بمجموعة من الهجمات الإرهابية خلال السنوات الأخيرة وهناك عدد متزايد من الجماعات المتطرفة في المجتمع الروسي التي تستخدم الإنترنت ومواقع التواصل الاجتماعي في ترويج أهدافها وأفكارها.

وقد ابتكرت دوائر السياسة الروسية آليات مؤسسية وقوانين لتواجه تحديات العنف المتطرف في الإنترنت ومواقع التواصل الاجتماعي وإدراك أهمية التعاون الدولي تجاه هذه التحديات.

وهذه الدراسة التي أجريت في موسكو ٢٠١٢ تقدم تعريفا تقييميا لمصادر التهديدات المتطرفة لروسيا، وتفسر رؤية موسكو في الموازنة بين المبادئ الديمقراطية وبين تحديات مواجهة العنف المتطرف في الإنترنت ومواقع التواصل الاجتماعي، وكذا تقييم القدرات المتواجدة من أجل تعاون دولي مع روسيا في مواجهة ذلك، وتعرف بمبادرات معينة يمكن لروسيا والولايات المتحدة ودول أخرى في المجتمع الدولي تطويرها لمواجهة العنف المتطرف في المجتمعات الافتراضية على الإنترنت.

وتوضح هذه الدراسة رؤية متخصص في العلوم السياسية حين الاقتراب من قضايا الإعلام المختلفة عن رؤية المتخصص في الإعلام، فهي بقلم باحثة في التعاون الروسي الأمريكي لوقف الجماعات المتطرفة، ولم تر في إجراءات رقابة الإنترنت أية اعتداء على حرية الإعلام.

٤ـ الأطر القانونية للتحكم في الانترنت

بدأ التفكير في إدماج تكنولوجيا المعلومات في الأطر القانونية في روسيا مبكراً منذ أوائل التسعينات، وكانت تدرج في إطارين تشريعين: التجارة والإعلام.

ومنذ ١٩٩٤، بدا أن الأمر يحتاج لتنظيم إداري وتشريعي متمايز وخاص بتكنولوجيا المعلومات ولذا تأسست اللجنة الرئاسية الاتحادية الروسية لسياسات المعلومات (Roscominform) وكان هدفها الرسمي أن تضع تشريعا وتنسيقا مع المنظمات الدولية.

تم وضع مسودة قانون للإنترنت عام ١٩٩٨ من قبل المجلس الفيدرالي الروسي بيد أنه كان يحوي عيوبا في المفاهيم والأدوات، ولذا لم يناقش إلا بعد أن تم تعديله في الفترة من ٢٠٠١- ٢٠٠٤، وبسبب الضغوط الجماهيرية الساعية للديمقراطية فشلت هذه الجهود.

ولذا فإن أول تشريع (إجرائي) حقيقي كان عام ٢٠٠٠ عندما أجبرت إدارة الأمن الاتحادي الشركات المزودة لخدمات الإنترنت بوضع معدات مراقبة وعرف النظام اختصارا باسم SORM أو نظام أنشطة عمليات التحري، وتم معاقبة الشركات التي لم ترض بوضع هذه الأجهزة بالخروج من السوق (بإيقاف خدمات الإنترنت) وتم التهديد بسحب رخصها.

وبعد ضغوط من الرأي العام، تم مراجعة هذا النظام بحيث استلزم الحصول على موافقة من النيابة للتفتيش في ملفات المستخدمين، وتم تعديله عام ٢٠٠٨ مرة أخرى من قبل وزارة تكنولوجيا المعلومات الروسية، ومؤخرا وتأسيساً على هذا النظام تم توسعته ليشمل مكالمات التليفون والرسائل النصية دون علم الشركة المزودة أو المستخدمين.

وكانت هناك ثمة وثيقة هامة أخرى، وهي القرار الرئاسي الذي وقعه بوتين في ٢٠٠٠ وتم اعتبار الإنترنت موضوع أمن قومي وذلك بوضع الحكومة الروسية في حكم اللاعب الرئيس في البنية التحتية المعلوماتية وبناء الشبكات والتحكم فيها.

ونص القرار الرئاسي أن الوطنية والأهداف القومية فوق الحريات الشخصية وهو مثال مهم على القيم الجمعية في مواجهة القيم الفردية، وعني القرار الرئاسي بتكوين وسائل إعلام قوية تعبر عن الكرملين وأنشطته، وحدد القرار قيوداً على تغطية الأنشطة الإرهابية وعمليات مكافحتها، مرة أخرى

تم وضع الأمن القومي فوق حرية الإعلام وذلك بحماية المواطنين الروس من الدعاية التقليدية والالكترونية والمعلومات المهددة.

٥ ـ التطبيق الانتقائي للقانون:

وتعد القوائم السوداء لمواقع الإنترنت آلية واحدة ضمن آليات أخرى لمراقبة المضامين الإلكترونية والتحكم فيها التي استغلها الكرملين لإسكات الأصوات المعارضة ومعاقبتها، إذ أنها تستعمل أي نص قانوني أخر كي ينطبق على حالات مدونين ونشطاء منها نصوص قوانين اقتصادية مثل اتهام المعارض إلكسي نفالني بالنصب والاحتيال والحكم عليه بخمس سنوات من قبل محكمة ابتدائية قبل أن يُبرأ في الاستئناف.

وفي حالة نموذجية ذات دلالات رمزية، تم إغلاق صحيفة انتقدت عمدة مدينة تحت ذريعة أن المحررين الذين يستخدمون الكمبيوتر لا تمتلكون مساند من الخشب لإراحة أقدامهم مما يعد تهديدا للصحة ولأمان الصحفيين، وتم اتهام جرائد أخرى بحيازة برامج كمبيوتر مقرصنة، أو تحويل أموال غير قانوني.

ولهذا تعد الرقابة الذاتية شيئاً شائعاً في الإعلام الروسي وكذا التهديد بإلغاء الرخصة أو تطبيق مادة غامضة من قانون الضرائب، وعندما يتم تهديد الدولة من قبل وسيلة إعلامية فإن الدولة كرد فعل تخطط لتغيير ملكيتها أو إداراتها، ناهيك عن استخدام العنف البدني ضد الصحفيين والمدونين وأسرهم من قبل "مجهولين" تشير كل الاحتمالات إلى علاقاتهم بأجهزة الأمن.

٦ـ آليات تحقيق سيطرة الدولة

بحلول عام ٢٠١٣، لم يكن لدى روسيا تشريعاً يستهدف الفلترة الكاملة لمضامين الإنترنت كما في الصين، وعوضاً عن ذلك كانت هناك عدة قوانين في مجالات مختلفة تتيح للسلطات تتبع المعلومات السياسية الحساسة وحجبها ومقاضاة ناشريها، ومن بين هذه القوانين: (قانون وسائل الإعلام) ، (قانون مكافحة النشاط المتطرف) والأخير خصص للإفادة في حجب المعلومات التي ليست في مصلحة الرئيس أو الكرملين.

تم تمرير قانون التطرف عام ٢٠٠٢، والقانون يجرم ليس فقط إنتاج المعلومات وتوزيعها، ولكن أيضا حيازتها وقراءتها، ولا يمكن نشر فقرات مقتبسة من مستندات هؤلاء المتطرفين ولا نشر معلومات عن عمليات القبض عليهم.

وفي سنوات ٢٠٠٦، و ٢٠٠٧ ورغم انتقادات الرأي العام مرر البرلمان الروسي (الدوما) عدداً من التعديلات على قانون مكافحة النشاط المتطرف بالتوسع في تعريف التطرف ليشمل انتقادات مسئولي الدولة، الشغب المدفوع أيديولوجيا، إهانة الكرامة الوطنية، والتهديد بالعنف، ويعاقب من يقترف ذلك بالسجن ٣ سنوات وإغلاق وسيلته الإعلامية تقليدية كانت أم إلكترونية.

وكانت الصياغة المطاطة الغامضة لتعديلات القانون سيفاً على عنق النشر الإلكتروني والمدونات جعلتهم مرتعدين من أي نص يفسر على أنه انتهاك لهذا القانون، وتم تطبيق القانون على مواقع: Bankfax.ru, Pravda. ru ، Novaya Gazeta وتم اتهامهم بالترويج للأفكار المتطرفة، فيما تم تغريم رئيس تحرير (Kursiv) لنشره مقالا مهيناً للرئيس بوتين.

وتعتبر المادة (١٣) من قانون مكافحة النشاط المتطرف كلا من مدير الموقع الالكتروني وشركة الإنترنت المضيفة للموقع مسئولين عن حذف أي معلومات تخالفه.

وفي السنوات الأخيرة مررت الجمعية التشريعية الروسية والمجلس الاتحادي عدة تعديلات على قانون وسائل الإعلام منها اعتبار أي موقع يتجاوز زواره ٣٠٠٠ فرد في اليوم وسيلة إعلامية يجب تسجيلها وتم الموافقة على التعديل في أوائل ٢٠١٤ وذلك لاحتواء المدونات الشهيرة بجعلها وسيلة إعلامية تقليدية وهو ما جعلهم يعترضون على هذا القانون.

وفي عام ٢٠١٢، أصدر (الدوما) تشريعيا يخول له إصدار قوائم سوداء بمواقع الانترنت، في الظاهر لمواجهة المواقع الإباحية والمواقع المتطرفة ومواقع دعارة الأطفال والمروجة للمخدرات وللانتحار، ولكن امتد ذلك إلى المواد المعارضة لبوتين والكرملين مما أثار المؤسسات الدولية التي اعتبرت القانون قيدا خطيرا على حرية الإنترنت (تحديدا منظمة صحفيون بلا حدود).

وقد تعرضت بعض صفحات موسوعة ويكيبيديا للحجب وكذلك موقع يوتيوب نتيجة نشر مواد اعتبرت حساسة ومسيئة للأديان، والقوائم السوداءِ غير مصرح بنشرها، بالإضافة لاحتمال إساءة تأويل عبارات مثل (مضامين ضارة).

وخلال أزمة القرم ٢٠١٤، تم حجب عدة مواقع تدين التدخل الحكومي في أوكرانيا منها مواقع كبار نقاد بوتين ومعارضيه مثل الناشط إلكسي نافلنيNavalany ، وأسطورة الشطرنج جاري كاسباروف، وذلك لأن هذه المواقع دعت إلى مسيرات غير مصرح بها قانوناً من قبل هيئات الأمن الروسي والتي كانت ضد ضم القرم، وكذلك أغلقت السلطات صفحات المجموعات الأوكرانية على موقع التواصل الاجتماعي الروسي V/Kontakte.

ثانيا: المدونات الروسية، والتدوين المصغر، وبيئة الاتصال الإلكتروني الروسي

مازالت الجامعات الأمريكية هي الأكثر دراسة للظواهر الإعلامية الروسية بمراكزها المتخصصة في جامعات مرموقة مثل (مركز بيركمان للإنترنت والمجتمع التابع لجامعة هارفارد)، وتستخدم هذه المراكز الباحثين المقيمين في الولايات المتحدة الذين لهم دراية باللغة الروسية.

ومن بين البحوث الشاملة التي أجريت في الولايات المتحدة، يبرز بحث جماعي ممول من صندوق (ماك آرثر) امتد لمدة عامين بين ٢٠٠٨ و ٢٠١٠ حول دور الإنترنت في المجتمع الروسي مستخدماً عدة مداخل منهجية متكاملة لدراسة المدونات الروسية، والتدوين المصغر، وبيئة الاتصال الإلكتروني الروسي.

اشترك في الدراسة: بروس إتلنج المتخصص في العلوم السياسية والشئون الخارجية والذي له بحوث عن دوائر التدوين العربي والإيراني والروسي، وكارينا أليكسانيان المتخصصة في الإعلام بكلية الصحافة بجامعة كولومبيا (أرمنية تجيد الروسية)، وروبرت فارس المتخصص في العلاقات الخارجية ومدير مركز بيركمان، وجون بالفري أستاذ القانون الأمريكي بكلية هارفارد، وجون كيللي الذي يعمل في مجال التحليل الشبكي لوسائل التواصل الاجتماعي.

ومن بين ما يقرب من خمسة ملايين مدونة روسية تتعلق بالنقاش العام حول السياسة والشئون العامة، اختار الفريق البحثي ١١ ألف مدونة تمثل قلب النقاش للمدونات النشطة، ثم جرى فرزهم بشكل عنقودي تبعاً لأنماط وضع الروابط داخل المشاركة (البوست) وتم استخدام طرائق تحليل المضمون الآلي والإنساني للوصول لنتائج أساسية منها:

بخلاف المدونات الأمريكية، فإن المدونات الروسية تفضل منصات تجمع ما بين المدونة العادية والتدوين المصغر لمواقع التواصل الاجتماعي مثل فيس بوك، والتدوين الروسي يهيمن عليه عدد قليل من هذه التدوينات الهجينة.

يضم القلب النقاشي للتدوين الروسي المدونات عالية النشاط التي تحتوي على أغلبية الخطاب السياسي، ويشتمل هذا القلب بشكل أساسي على مدونات من منصة (لايف جورنال) Live Journal.

ويمكن تقسيم هذا القلب النقاشي إلى أربع مجموعات أساسية:

- السياسة العامة وتحوي المدونات التي تنشر الأخبار ومدونات الحركات السياسية والنشطاء الاجتماعيين وكذلك مدونات البيزنس.
- الثقافة وتشمل الأدب والسينما والثقافة الراقية والثقافة الجماهيرية.
- إقليمية وتشمل مدونات من روسيا البيضاء وأوكرانيا وأرمينيا وإسرائيل.
- عملية برجماتية وتشمل المدونات المدفوعة والتدوين المدفوع بعوامل/ محفزات خارجية.

ويغطي التدوين السياسي/ النقاش العام عدة اتجاهات وأجندات منها المستقل ومنها المرتبط بأحزاب سياسية وحركات اجتماعية أبرزها «المعارضة الديمقراطية» ومنها المرتبط بنشر قيود التدوين القومية، وتوقع الفريق البحثي زيادة أعداد المدونات الموالية للحكومة مع زيادة أعداد المدونات المعارضة كجزء من إستراتيجية السيطرة الروسية.

ولا يمثل المدونون الموالون للحكومة المدونات الأبرز ولكنهم جزء من تدوين النقاش العام ولكن المدونات العملية البرجماتية «المدفوعة» يبرز فيها المدونون الموالون للحكومة الروسية، ويغلب عليهم الانخراط العمدي الموجه لمعادلة نشاط المعارضين خاصة في الأوقات الحرجة مثل الانتخابات وأحداث الإرهاب.

وقد وجد الفريق البحثي دلائل على التعبئة السياسية والاجتماعية خاصة في عناقيد المدونات المرتبطة بحركات اجتماعية وسياسية أوف لاين أو على الأرض.

يمثل التدوين المتمحور حول الأخبار السياسية دوائر المدونين المستقلين والمعارضين للنظام في روسيا، وهم جماعة تتباين خصائصها مع أغلبية الجمهور الروسي المعتمد على القنوات التليفزيونية الفيدرالية المتحكم فيها من قبل الدولة فهم أكثر تعلماً وأصغر سناً، وهم يمثلون سقف الأصوات المعارضة في الإعلام الروسي عامة.

يغلب على فيديوهات اليوتيوب المدمجة بالتدوين الروسي معالجة أمور الفساد الحكومي وإساءة استخدام السلطة من قبل النخب والحكومة والشرطة، وترتبط بالمدونات التي تمثل وظيفة كلب الحراسة أو المراقب لأعمال الحكومة.

وإذا أردنا المقارنة بين اقتراب ميدفيديف وبوتين من الإنترنت، فإن الرئيس الروسي السابق ديمتري ميدفديف كان على دراية بتكنولوجيا المعلومات ومولعا بها، وكذلك حرص على مناقشة التحديث ومنتجات شركة (أبل) خاصة في مدونته الشخصية.

بينما الرئيس الحالي بوتين كان ومازال مترددا فيما يتعلق بالتواصل المباشر مع المواطنين عبر الإنترنت، ذلك على الرغم من أنه كان أول رئيس في ٢٠٠٦ يخاطب الجماهير على الإنترنت مجيبا على أسئلتهم خلال الحدث الذي نظمته شركة الإنترنت الروسية (ياندكس Yandex).

ولكن في ٢٠١٠ وفي مقابلة مع مجلس الدولة بدا بوتين متشددا في نزع المصداقية عن شبكة الإنترنت ومركزا على آثارها لسلبية مبرزا إحصائية تقول أن نصف المواقع على الإنترنت مخصصة للمواقع الإباحية.

وفي مقاله الذي نشره أثناء حملته الرئاسية ٢٠١٢ المعنون (روسيا والعالم المتغير) أبرز فعالية الإنترنت في ترويج السياسات المحلية والدولية، وحث وسائل الإعلام الروسية على البقاء قوية على شبكة الإنترنت لتقدم وجهة نظر روسيا، في الأحداث المحلية والعالمية ومكافحة الدعاية الغربية التي تركز على نقص الحريات في روسيا.

وحتى الآن يحجم بوتين عن فتح مدونته الخاصة للتواصل مع الجماهير الروس ولا يبدو ذلك شيئا محتملاً أن يفعله في المستقبل المتوسط إذ كانت صورة المدون العصري مرتبطة بالرئيس السابق ميدفيديف بينما يعد ذلك شيئا سلبيا لبوتين.

ولهذا فإن ميدفيديف يعد شخصية مهمة وطليعية بين النخبة السياسية الروسية، وهو في منصبه الحالي كرئيس للوزراء ساعد في ظهور عدة مشروعات إلكترونية دشنتها الحكومة الروسية ومازالت، ومدونته على LiveJournal يتم تحديثها وكذا صفحته الرسمية: Premier.gov.ru.

وهو الآن يدير مشروعا مستقبليا للديمقراطية الإلكترونية والحكومة المفتوحة تحت اسم (روسيا من دون أغبياء) وهو ما يزيد الحاجة لدراسات ترصد الفارق بين العالم الافتراضي والعالم الروسي الحقيقي.

ثالثا: حدود تأثير الإنترنت على التغيير السياسي في روسيا

في ورقة تحليلية استكشافية رائدة، توقع المفكر الأسباني (مانويل كاستيلز) منظر المجتمع الشبكي الأشهر والباحثة الروسية (إيما كيزيلوفا) في عام ١٩٩٨ صورة الخمس عشرة سنة اللاحقة من عمر روسيا.

استندت الورقة البحثية على نتائج الدراسات التي أجراها كاستيلز على المجتمع الشبكي البازغ في نهاية القرن العشرين والتي جمعها في ثلاثيته الشهيرة (المجتمع المعلوماتي: الاقتصاد والمجتمع والثقافة) والتي نشرها في أعوام ١٩٩٦ - ١٩٩٨ وعلى نتائج الدراسات التي أجريت على المجتمع الروسي منذ سقوط الاتحاد السوفيتي السابق حتى كتابة ورقته.

ورأى كاستيلز أن فك شفرة الغموض الروسي يرتكز على فكرته عن غياب الحركات الاجتماعية في الفترة الانتقالية التي تمر بها روسيا إذ أنها الدافع للتغيير الاجتماعي وبغيابها ينتفي وجود تغيير جذري في المجتمع الروسي.

فالمجتمع الروسي للأسف استجاب بسلبية للخطاب الديمقراطي من أعلى ولم يؤمن بمخلصيه السياسيين في ظل انتشار الجريمة المنظمة والفقر والإهانة القومية التي حلت بالروس، وخيانة آمالهم باستمرار، وهو السبب أيضاً بأن الجيل الروسي الجديد لم يستجب لإحياء الشيوعية مرة أخرى، ولم يستجب بالمعجبين بالنيوليبرالية على طراز (بينوشيه).

فالحركات الاجتماعية على مر التاريخ تنبع من القاعدة دون استئذان من قادة سياسيين، وكذلك فإن الحركات الاجتماعية لا تظهر نتيجة للألم والمعاناة والقهر، قد تكون هناك حركات احتجاجية وليس حركات اجتماعية تقود التغيير، فالمجتمع الروسي متعلم للدرجة التي لا يمكن معها أن يثور دون أن يحسب نتائج هذه الثورة في الوقت الذي يوفر فيه المجتمع للأفراد والجماعات طريقة ما للحياة فقط إذا لم يتغير العالم.

تمزج الحركات الاجتماعية دائماً ألم المعاناة بمثل اجتماعية جديدة، تلك المثل الغائبة عن المجتمع الروسي حتى الآن، وتمنع التحول الديمقراطي الحقيقي بظهور الحركات الاجتماعية.

ويعتقد الاقتصاديون أن الاقتصاد فقط يصنع الفارق، وهو أمر بعيد عن الصحة فالمجتمعات تخلق المؤسسات التي تتيح للاقتصاد أن يعمل بكفاءة والأسواق بدون مؤسسات عبارة عن غابة وما تملكه روسيا حتى الآن هي البيروقراطية الموروثة عن الاتحاد السوفيتي والتي هي من مصادر للقهر.

يعتمد التغيير الاجتماعي الروسي على تشكيل المجتمع المدني الذي تشكله الحركات الاجتماعية الجديدة غير المتواجدة في المستقبل المنظور.

وفي مجتمع المعلومات، فإن حيازة الرموز الاتصالية والإيمان بالقيم الإنسانية هي المصدر الحيوي لتحرك الجماهير، وهي حركات في مجتمع المعلومات لا مركزية شبكية تقود التغيير مستخدمة وسائل المعلومات والاتصال، والمنظمات غير الحكومية قد تكون لمحة من هذا التغيير.

وتوقع كاستيلز أن النظام السياسي القائم لن يصنع التغيير، بل سيحاول أن يمسك بأعنة الأمور أكثر في روسيا، إذ لابد أن يقدر المجتمع الروسي الديمقراطية ويربطها بحياة كل يوم وهو الأمر غير المتواجد، لابد أن يؤمن الروس بمثل جديدة حتى يتحقق التغيير، وأهمية الورقة تكمن في التنبؤ، نعم حدثت احتجاجات مجتمعية ما بين ديسمبر ٢٠١١ وإبريل ٢٠١٢ بفعل المجتمع الشبكي ولكنها لم تتحول لحركات اجتماعية وانتهت بسيطرة ومراقبة حكومية على المجتمع الشبكي، وإعادة انتخابهم لبوتين ليظل النظام الروسي مفتوحاً على المجهول.

كان التفاؤل يحكم بحوث التدوين ومواقع التواصل الاجتماعي الروسي ببل تظاهرات شتاء ٢٠١٢/٢٠١١، وتوضح دراسة منها أجريت على شبكة - R Net قدرة المجتمع الشبكي على وضع الأجندة وتأطير القضايا، وهو يستمد قوته من قوة الأفراد المشبكين ووجود مؤسسات شبكية تقوي وسائل التواصل الاجتماعي، بل وتصنع تعاونًا بين وسائل التواصل الاجتماعي ووسائل الإعلام التقليدية من جهة وما بين المنظمات غير الحكومية وبقية المنظمات من جهة أخرى، للدرجة التي أسمى فيها الباحثان الذين قاما بالدراسة المجتمع الشبكي بالسلطة الخامسة على اعتبار أن وسائل الإعلام التقليدية هي السلطة الرابعة.

وساد الدراسة جو من التفاؤل بقدرة المجتمع الشبكي على صنع الفارق الديمقراطي في روسيا، فيما أثبتت الأحداث من ديسمبر ٢٠١١ إلى إبريل ٢٠١٢ أن هناك قيوداً على هذا المجتمع الشبكي للتحول إلى أحزاب قوية منافسة لحزب (روسيا الموحدة).

فقد مثلت التظاهرات التي واكبت انتخابات ديسمبر ٢٠١١ في موسكو نقطة مهمة فارقة للمجتمع الروسي، فقد دخل المجال العام للشارع الروسي الاختلافات السياسية والتي تراكمت في المجال الخاص منذ المطبخ السوفيتي وهو التعبير الذي يطلق على المكان الذي كان يجتمع فيه المواطنون لمناقشة الشأن العام إذ لم تسمح لها السلطات بأكثر من ذلك حتى السنوات الأخيرة التي انتقلت فيها النقاشات السياسية إلى شبكة الانترنت وتحديدا مدونات (RuNet).

وكما أثبتت الاحتجاجات التوتر القائم بين النقاش والفعل السياسي في المجالين العام والخاص الروسيين، فإن تغطية هذه الاحتجاجات في وسائل إعلام مختلفة أثبتت أيضاً وجود التوترات في الصحافة الروسية.

واعتمدت بعض الدراسات الأخرى على التحليل الكيفي للنصوص الصحفية في وسيلتين إعلاميتين مواليتين للحكومة واثنتين معارضتين لها آخذه في الاعتبار ربط التحليل بالنقاشات التي أديرت على الانترنت في مواقع (RuNet) التي لعبت دوراً في التنسيق والحشد لهذه التظاهرات، وهدفت إلى تقديم فهما أعمق لهذا المجال الخاص (RuNet) الذي تحول لاستخدام المجال العام، بل ولعب دوراً في تطور الصحافة الروسية.

وأبرزت الدراسات دور وسائل التواصل الاجتماعي في تنظيم الاحتجاجات في تلك الفترة بينما كان المجال العام يتم السيطرة عليه من قبل بوتين - ميدفيديف، وركزت على الإنترنت التفاعلي والموبايل ميديا لاسيما تويتر، يوتيوب، فيس بوك ونظيره الروسي، فيكونتاكي VK والقطاع الناطق بالروسية في شبكة المدونات (لايف جورنال) والمسمى (جيفوى جورنال) الذين كانوا فاعلين في الإعداد والتنظيم لتظاهرات ديسمبر ٢٠١١.

فقد أفزعت المظاهرات التي اندلعت فجأة الرئيس الروسي فلاديمير بوتين الذي كان رئيسا للوزراء آنذاك وأفصحت عن عدم قدرته على فهم درجة الاستياء لدى جماهير المدن الروسية من النظام، وكذلك القوة المتنامية لشبكات التواصل الاجتماعي.

وفي غضون شهور قليلة، تكهرب الجو الراكد للسياسة الروسية وبدت شرعية النخب الحاكمة الروسية محل تساؤل، وهذه التظاهرات لم تكن لتحدث بهذه القوة لولا ثورات الربيع العربي التي حركتها مواقع التواصل الاجتماعي وهو الذي دفع النظام الروسي للتدخل سياسياً للسيطرة على آثارها في منطقة الشرق الأوسط وفي أراضيه.

ولعل أهم أثر مباشر لدور المدونات هو القانون الروسي الذي تم تمريره والذي يعتبر أي مدونة يتجاوز قرائها ٣٠٠٠ شخص وسيلة إعلامية تخضع لترسانة القوانين الجنائية والمدنية، وكذلك تم توضيح أن حصانة بوتين السياسية أصبحت محل تساؤل في الوقت التي تم لأول مرة تشكيل معارضة حقيقية خارج ألاعيب الكرملين لحزب (روسيا الموحدة) الذي يتزعمه بوتين الذي أطلق عليه لأول مرة حزب الأفاقين واللصوص، إذ عندما نجحت وسائل التواصل الاجتماعي في كشف تزوير انتخابات الدوما، نجحت بالتالي في حشد التظاهرات في موسكو، وهو ما أخذه النظام الروسي بعين الاعتبار حتى لا يتكرر.

وانتهت الدراسات إلى أن تنامي قوة وسائل التواصل الاجتماعي ساعد عليه عدة عوامل: نمو عدد المستخدمين للإنترنت والاتصالات المحمولة، الخصائص والتقاليد الخاصة بمواقع التدوين الروسي، الفجوة الرقمية بين المراكز الحضرية والأرياف في روسيا، ودور الشبكات الخاصة في المجتمع الروسي.

واعترفت الدراسات بأنه رغم حيوية الدور الذي لعبته مواقع التواصل الاجتماعي، إلا أنها ليست مناسبة ولا مهيأة لبناء بنية معارضة سياسية قوية تجد طريقها إلى البرلمان، فعلى المدى الطويل لابد للمعارضة التي تمزقها الخلافات من أن تتحول إلى جماعات أو أحزاب منظمة كي تحدث فارقا في السياسة الروسية وتمثل هؤلاء الذين خرجوا للتظاهر في التفاوض مع من بيدهم السلطة أي في البرلمان.

وتنبأت بأن السلطات الروسية سوف تتبع إستراتيجية القبضة الفولاذية لزيادة تحكم الدولة في الانتخابات الرئاسية وهو ما حدث بالفعل، مطبقة تحكماً أكبر في الانترنت دون أن تتخذ إجراءات من شأنها تنامي المشاعر المستاءة من الحكومة بالحجب القسري لمواقع معينة.

وقد كان تفعيل القانون الجديد الصادر في نوفمبر ٢٠١٢ الذي يعطى للحكومة الحق في فلترة الإنترنت من المواد «المتطرفة» عاملا في حجب أكثر من ٦٤٠ موقعا تحت زعم الحماية من دعارة الأطفال والمخدرات ولكن المواقع المعارضة السياسية المهمة أغلقت في سياق ذلك.

وقد أضحت شبكة البث على الانترنت والمعروفة باسم تليفزيون المطر Dozhd TV مصدرًا مهما للمعلومات أثناء احتجاجات ديسمبر ٢٠١١ لأنها كانت تذيع تقارير من مواقع الأحداث على غرار تقارير الربيع العربي، وبالتالي قدمت بديلا لقنوات التليفزيون الذي يسيطر عليها الكرملين والدليل على ذلك تقديم (معهد البحث السياسي الاقتصادي الروسي) الحكومي دعما تكنولوجيا وماليا لإنشاء شبكة بث تليفزيوني على الإنترنت تزاحم وتناطح الشبكة الأخيرة تحت اسم Kantr 9-TV.

في روسيا المعاصرة بعد انهيار الاتحاد السوفيتي، فإن الخطاب السياسي الرسمي يتم معارضته ومناهضته بتحديات الإعلام الجديد وعلى رأسها المدونات الشخصية على شبكة الإنترنت، ويعتبر تكنيك المحاكاة الساخرة لوسائل الإعلام المعارضة تليفزيونًا كان أم راديو وموقع الإنترنت تكنيكا سائدًا في زمن بوتين حتى يحدث التباس وبلبلة لقنوات المعارضة.

وانتشرت أشكال جديدة من الحوار السياسي في هذه المدونات لاسيما تلك التي يبدأها مواطنون عاديون الذين يستخدمون المفارقة المصورة كأحد تكنيكات السخرية للتعبير عن عدم رضاهم عن أنشطة السياسيين.

ومن خصائص هذا الخطاب السياسي السيبري (المنتشر على الإنترنت) في روسيا أن الأساطير (الأفكار السائدة رغم عدم صحتها) والمفاهيم التي تستخدمها النخبة الرسمية السياسية يعاد تفسيرها وتأويلها بمساعدة

المفارقة والفكاهة أي أن الناس العاديين ينتقدون ذلك بشكل ساخر بشكل أصبح روتينا يومياً.

ويقدم التأمل والتمثل البصري وهي الأشياء المهمة لخلق المفارقة خطابا أصيلا ينظم الحوار الجماعي الروسي ويشكل ذلك العمليات السياسية والاجتماعية والمعرفية في شكل تواصل بصري.

وفي الوقت التي أثبتت فيه عدد كبير من الدراسات نمو استخدام الانترنت في روسيا في المدن، تجيء دراسة أخرى لترصد أسباب كراهية الإنترنت من بعض قطاعات الجمهور الروسي وتحديدا سكان الأرياف الروسية الذي يفضلون الانسحاب تماما من وسائل التواصل الاجتماعي وفضاء الإنترنت، وانتهت إلى وجود أسباب ثلاثة تبعد هذا الجمهور عن الإنترنت: حداثة دخول الإنترنت للحياة الاجتماعية، التقاليد المكينة للحياة الاجتماعية مما يجعل وسائل التواصل الاجتماعي غير مهمة نسبيا، والحاجات المعلوماتية الخاصة لهذا الجمهور التي لا يوفرها الإنترنت.

رابعا: احتواء تأثير الإنترنت .. دراسة حالة

خلال العقود الثلاث الماضية، أسس الدارسون لظاهرة الفضائح السياسية افتراضاتهم عن الظاهرة على مقولة مفادها أن هذه الفضائح لا تحدث إلا في الديمقراطيات الليبرالية، وخلافا لهذه الفرضية، فإن عدد كبير من الظواهر التي نوقشت باستفاضة في روسيا شبه السلطوية تعتبر فضائح أثارتها مواقع الإعلام الجديد - خاصة وسائل التواصل الاجتماعي - التي تتعايش على الإنترنت كوسيط غير مفلتر وبلا رقابة.

ودرست الباحثة الألمانية فلورين توبفل دراستي حالة عن فضائح فساد الشرطة الروسية التي اندلعت وانفجرت أحداثها على وسائل التواصل الاجتماعي خلال عامي ٢٠٠٩/ ٢٠١٠، وبناء على نتائج الدراسة، رأت الباحثة أن النخب الروسية الحاكمة أصبحت قادرة بشكل كبير على إدارة هذه الانفجارات من السخط الشعبي أساساً بمساعدة وسيلة التليفزيون القوية المتحكم فيها من قبل الدولة، إذ سرعان ما يتم توجيه الغضب الشعبي نحو

المستويات الأقل من السلطة، و نحو الأجانب خاصة القوى المعادية لروسيا.

وكذلك يتوقف نجاح إدارة الفضيحة على رغبة من فجرها في التعاون مع السلطات لاحتواء آثارها، أما العنصر الحاسم الذي يجعل روسيا مختلفة ويجعل كبح جماح الغضب الشعبي ممكنا أن السلطات التنفيذية الأخرى في الدول الديمقراطية مثل المحاكم المستقلة والمؤسسات القانونية، تبقى في روسيا ضعيفة.

وتثبت دراستا الحالة أن التكنولوجيا مجرد أداة، لأن الناس والمنظمات والحكومات هم من يصنعون الفارق، ولكنهما تثبتان أيضا الموضوعات الساخنة السياسية من أصعب التحديات أمام النخب السياسية في البلدان غير الديمقراطية، وترى الباحثة أن اقترابها في هذه الدراسة ربما يصلح للتطبيق في إطار مقارن وفي سياقات ثقافية وسياسية في دول غير ديمقراطية كالصين وعدد من البلدان العربية.

***

مراجع الفصل

1- Anna Popkova, Political Criticism from the Soviet Kitchen to the Russian Internet: A Comparative Analysis of Russian Media Coverage of the December Election Protests, Journal of Communication Inquiry, 38 (2), April 2014. Pp. 95-112.

2- Anna Sanina, Visual Political Irony in Russian New Media, Discourse Context & Media, Vol. 6, No.1, December 2014. pp. 11- 21.

3- Bruce Etling Karina Alexanyan, John Kelly, Robert Faris, John Palfrey, Public Discourse in the Russian Blogo-sphere: Mapping RuNet Politics and Mobilization, the Berk-man Center for Internet and Society, Harvard University, publication No 2010-11, October 2010. pp. 1 – 55.

4- Florian Toepel, the New Networked Sphere of Social Media: A Challenge to the Russian Regime? Sciences Po., CERI, CNRS, March 2011 @ ceri-sciences-po.org/

5- Florian Toepfl, Managing Public Outrage: Powers, Scandal, and New Media in Contemporary Russia, New Media & Society, 13(8), 2011. Pp. 1301 – 1319.

6- Josh Machleder and Gregory Asmolov, Social Change and the Russian Network Society: Redefining Development Priorities in New Information Environments, Internews Center for Innovation and Learning NY, USA,

August 2011. pp.1-21.

7- Karina Alexanyan, The Map and the Territory: Russian Social Media Networks and Society, MA Thesis, Department of Communication, Columbia University, 2013. pp. 10- 15.

8- Katherine Ognyanova, Careful What You Say: Media Control in Putin's Russia, International journal of E-politics, 1(2), 2010, pp. 1-15.

9- Manuel Castells & Emma Kiselyova, Russia and the Network Society: An Analytical Exploration, a paper presented to the conference on "Russia at the End of the 20thceutury", Stanford University, CA, USA, 5 – 7 November 1998. Pp. 1 – 47.

10- Marina Viktorovna Zagidullina, Non-users of Internet in the information society, Webology, 11(1), June 2014. Pp. 1- 15.

11- Markku Lonkila, Russian Protest on–and offline: The Role of Social Media in the Moscow Opposition Demonstrations in December 2011, The Finnish Institute of International Affairs, February 2011. pp. 1-9.

12- Natalia Moen-Larsen, Communicating with the Nation: Russian Politicians Online, Russian Analytical Digest, 123, 21 Feb. 2013. pp. 10-12.

13- Robert Orttung and Christopher Walker: Putin and Russia's Crippled Media, Russian Analytical Digest, 23(1) February 2013. pp. 1-5.

14- Vsevolod Markov, "Why not Censor the Internet?: A Case Study of Russian New Media", MA Thesis, Department of Political Science, Central European University, Budapest, Hungary, 2013. pp. 48-50.

***

الفصل الرابع

الرقابة وثقافة المعلومات في روسيا

مقدمة:

يمكن تفسير رغبة الروس أنفسهم بأن تفرض الحكومة رقابة على الإعلام بأن الثقافة (أو العقلية) الشمولية أو السلطوية هي السائدة في روسيا ما بعد انهيار الاتحاد السوفيتي السابق، فأغلب الروس يدعمون النظام والأمن، ويتوقعون من الدولة أن تأخذ على عاتقها مسئولية أن يعيش الروس حياة آمنة أولاً ثم متمتعة بالرفاهية ثانيًا، وأحد أهم عوامل الأمن مراقبة مضامين وسائل الإعلام.

أضف إلى ذلك الخوف والشك لدى الروس من الأشياء الجديدة ومنها المضامين الإلكترونية على الإنترنت، لاسيما وأن الأخيرة تعاني فيها روسيا خاصة من زيادة المواقع الإباحية الروسية واستخدام الإنترنت في تجارة الرقيق الأبيض التي انتشرت في المنطقة في أعقاب الحقبة الشيوعية خاصة، فهذه الأشياء تثير الامتعاض لدى كبار السن والذين نشئوا في ظل وجود الاتحاد السوفيتي السابق.

فالحيطة والخوف والشك والحاجة إلى حكومة قومية هي جزء من الثقافة الروسية كما تشير دراسات التحليل الثقافي، ومنها ما جرت على المستوى الأوروبي كدراسة ماجون ورودنييف عام ٢٠٠٨.

والرقابة بنوعيها الأخلاقي والسياسي تدعمها مجموعتين مختلفتين من الروس: فالرقابة الأخلاقية يدعمها كبار السن والنساء وذوي التعليم المتواضع، وذوى المستوى الاجتماعي الاقتصادي المتدني، ومن يعيشون في الريف.

في الوقت الذي يدعم الرقابة السياسية الشرائح الحكومية العالية، المديرين في كافة مواقع الدولة، وقد ورثت هذه النخب الجديدة كثيراً من العقلية السلطوية من الجيل الأقدم لاسيما وأنها استمرت في التمتع بوضعية اقتصادية اجتماعية متمايزة، وأضحت خائفة على هذه الوضعية من التغير.

وتتشارك روسيا مع بقية بلدان أوروبا الشرقية في حاجة الجماهير إلى قوانين مشددة لمكافحة الأنشطة غير القانونية والجريمة المنظمة، ودعم احترام النظام القانوني والدستوري حتى بالتخلي النسبي عن الحرية التي يمتع بها نظرائهم في أوربا الغربية، الأمر الذي يرتبط بالثقة المعطاة للرئيس والمؤسسات الدستورية.

وتحرص النخب السياسية الجديدة على نوع من الاتجاه القومي المكافح للشيوعية وعودتها وتفرض ذلك على الإعلام وتمنع النقد الشديد للرئيس، ويفسر البعض ذلك بأن هذه النخب ذات نفسها ليست مستعدة للحرية والليبرالية على النمط الغربي، وكثيراً منهم يدعمون الاقتصاد الحر ولا يدعمون الديمقراطية بنفس الشكل.

ولا تتمتع الرقابة الأخلاقية ولا السياسية بشعبية كبيرة في أوساط الشباب والذي يرتبط بالإنترنت أكثر من الوسائل الإعلامية الأخرى، بيد أن وزن هذه القطاعات ليس كبيرًا للدرجة التي تدفع الحكومة الروسية لإجراءات أشد بحق المواقع الالكترونية، فضلا عن وجود نسبة من هؤلاء الشباب ضد الديانات الجديدة وضد الإباحية الالكترونية ولا تعنيهم السياسة كثيرًا وضد الدعوات العرقية المحملة بالكراهية للأقليات، وهم في نفس الوقت ضد الدعوات الانفصالية التي تهدد الاتحاد الروسي والتي تأتي أغلبها من الأقاليم ذات الغالبية المسلمة مثل الشيشان وداغستان.

أولا: الثقافة المعلوماتية الروسية

ركز أستاذ الإعلام البلجيكي هيدوينج دي ساميول De Smaele الأستاذ بمركز بروكسل للدراسات الصحفية في شرحه للمناخ الإعلامي لروسيا ما بعد الشيوعية على نقطتين:

- أن الثقافة السائدة في وسائل الإعلام هي ثقافة الموائمة الموقفية وليست ثقافة القيم الديمقراطية العالمية، ونتيجة لنقص المعلومات التي لا يسمح بتداولها يتم تعويض ذلك بشبه المعلومات التي يدخل فيها التفكير بالأماني عوضاً عن الحقائق. فالفساد والمحسوبية واستغلال النفوذ هو

القاعدة في روسيا ولكن لا يسمح بتناوله تفصيلا وإيجاد حلول له، بل يتوافق الجميع على تواجده كشر لابد منه، أو يكون أساس للمجتمع ليس له بديل.

- هناك تركيز على الأفكار الجمعية بأهمية وجود أمة قوية مثالية قادرة على الدفاع عن نفسها وحماية أراضيها، وهي قيمة تجب قيمة حرية التعبير الفردية بما لا يقارن، ومن ثم ليس للإعلام الموضوعي والصحافة المستقلة من جاذبية لدى الجمهور وغالبية الممارسين على حد سواء.

ويرى دي ساميول أن وسائل الإعلام في روسيا ذرائعية برجماتية، هي أدوات في يد النخبة السياسية الاقتصادية المتحكمة والمعلومات يتم توظيفها لخدمة هذا الهدف المثالي العام (أمة قوة قادرة) ولذلك فإن حجب المعلومات ليس فقط يتم التسامح فيه ولكنه أيضا متوقع ويتم التعايش معه.

وحتى استطلاعات الرأي «التي تشرف عليها الدولة» تثبت نتائجها أن الجمهور الروسي يطلب أغلبيته رقابة على الإنترنت وتحكم فيه ضد الإرهابيين وجماعات الانفصال ومن يساعدهم على ذلك، ودعم الحرية الالكترونية للأفراد أقل مما كان متوقعاً.

وعلى ضوء دراسة كيفية قامت على تحليل خطاب الصحفيين والأكاديميين في كل من ألمانيا وروسيا المتعلق بتطور وظائف الصحافة في بيئة إعلامية رقمية والتي جلبت تحديات خطيرة للمجتمع في كل من الدولتين، نستطيع أن نرصد الفارق الثقافي بين روسيا وبقية بلدان أوروبا.

فقد ارتبطت الصحافة الروسية بالصعود الكبير لمواد الرأي والتي أرجعت الصحفيين إلى حقبة ما قبل مهنية، ولصحافة ما قبل تجارية، ومن أجل الحفاظ على الصحافة كمهنة لها وظائف اجتماعية مهمة، فإن مراجعة لمفاهيم ومعايير الصحافة هو أمر شديد الأهمية.

وبينما كانت التطورات التي طرأت على ألمانيا في أعقاب الحرب العالمية الثانية دافعة إياها إلى تبني النظريات والقيم الغربية الأمريكية بالأساس في

ضرورة فصل الصحفيين أنفسهم عما يغطونه من أحداث، فإن المنظرين الروس شددوا على الأهمية (الأيديولوجية) للصحافة بينما ركز الألمان على بناء المجال العام للنقاش.

والاختلاف طبيعي لأنه اختلاف بين ثقافة البلدين والتقاليد والممارسات الصحفية والسياقات التي عملت فيها كل من الصحافتين، والأهم في هذه الدراسة أنه نتيجة للتراث الإيديولوجي للصحافة الروسية، فإن الصحفيين يرون أنفسهم معنيين (بالتوجيه) Orientation أكثر مما هم معنيون بالإخبار فقط.

فمن أجل خلق معنى في عالم متشبع بالأخبار في العصر المعلوماتي الجديد يجب أن يمتلك الصحفيون القدرة على تحويل المعلومات الممزقة المبعثرة إلى معرفة ذات معنى.

ومع صعود التدوين الإلكتروني يجب إنقاذ الصحافة من أن تتدهور مهنتيها لحقبة سابقة غير تجارية وغير مهنية، بل يجب التأكيد على أن الصحافة وهي تقدم التوجيه والرأي تحتفظ بقدر كبير من القيم المهنية.

ومع صعود الصحافة المدافعة عن الآراء (Advocacy Journalism) في فضاء إعلامي متعولم يفتت الجماهير أكثر وأكثر، تدهورت مهنية الصحافة الروسية لاسيما في الفترة المضطربة من ١٩٩١ إلى ٢٠٠٠ عندما كانت الصحافة كالكرة يتقاذفها الملاك من الأوليجاركيين، وهو ما شدد عليه كل المنظرين من ضرورة الرجوع للحس المهني، ولحاجة الصحافة الروسية لميثاق أخلاقي يفرق بين الرأي في الصحيفة المؤسسية والرأي في المدونة الخاصة كما تم التفريق سابقاً بين العلاقات العامة والصحافة.

ثانيا: المفارقة بين النص القانوني والممارسة الصحفية

ترى يلينا شيفتليفتش أستاذة القانون بكلية القانون جامعة كولومبيا أن أهم قانون متعلق بالإعلام وهو قانون وسائل الإعلام الصادر عام ١٩٩١ مقدمة السياق التاريخي المضطرب الذي أدى لهذا التشريع، وكذلك تناقش التشريعات والمصادر القانونية الجنائية الأخرى التي تتحكم فعلياً

بالإعلام الروسي مثل قانون مكافحة التطرف والإرهاب والحد من نشر الدعاية المتطرفة.

ورغم أن المراقبين عدوا هذا التشريع واعداً لقيادة التحول الديمقراطي في روسيا بنصوصه التي توفر الحرية لوسائل الإعلام، ولكن الحقيقة في السنوات التي تلت التشريع كانت بعيدة كل البعد عن هذه الوعود والآمال في صحافة مستقلة وحرة.

إذ أن الأوضاع السياسية حثت السلطات على اللجوء لتشريعات عدة منها القانون المدني للسب والقذف وتشويه السمعة والذي تم استخدامه ضد الصحفيين الذين حاولوا النشر عن فساد السلطات الإدارية، وكذلك القانون الجنائي المكافح لأنشطة التطرف والإرهاب والذي عمل كقيد ضد النشر عن انتهاكات حقوق الإنسان التي مارستها سلطات تطبيق القانون في روسيا (الجيش – الشرطة).

وترى الباحثة أن بعض مواد هذه القوانين وفرت ظروفا لتطوير آليات وصول الصحفيين للمعلومات، وتنظيم ظهور الأصوات المعارضة في وسائل الإعلام المملوكة للدولة، وفي تدويل ملكية بعض وسائل الإعلام الروسية المعاصرة، إلا أن القيود التي وضعت في سياق (السيادة المعلوماتية) ومكافحة الإرهاب والتطرف السياسي والتي ساهمت في وجود إجماعا سياسيا لدى الرأي العام الروسي ووسائل الإعلام جعلت من هذا القانون مجرد صياغة مثالية لحرية الصحافة تضعها السلطات الروسية في وجه من ينتقدها، بينما نصوص القوانين الجنائية الأخرى هي الفاعلة في مجال الإعلام.

ثم جاء قانون الإعلام الجديد لعام ٢٠١٤ ليكون عاملا قويا أخر في تدعيم سيطرة الدولة على الإعلام كما تم شرحه في الفصل السابق.

ثالثا: البيئة الخطرة للعمل الإعلامي

تعتبر روسيا من أخطر الأماكن للعمل الصحفي، ففي خلال العشرين عاما ماضية قتل ٣٤١ صحفيًا تبعًا لإحصاء منظمة (صحفيون بلا حدود).

وعلى الرغم من إن بعض الصحفيين الروس مازالوا محافظين على مهنيتهم متفوقين في تقاريرهم الاستقصائية الفاضحة للفساد ولكن هؤلاء يعملون في بيئة خطيرة، فالقتلى منهم في ١٩٩٦ بلغوا ١٦ صحفيا، وفي ١٩٩٧ بلغوا ١٤ صحفيا.

فقد اغتيل صحفي شاب يدعى (يوري خولودوف) يعمل في صحيفة (موسكوفيسكي كوسموموليتس) في أكتوبر ١٩٩٤ عندما انفجرت قنبلة في حقيبته، وكان قد نشر تقارير عن الفساد في أرقى مستويات الجيش الروسي، وعن موضوعات حساسة مثل صوت الغواصات الروسية المرتفع الذي يجعلها مكشوفة في أي صراع عسكري قادم.

وبعد حوالي ٣ سنوات، تم القبض على مشتبه به كان يعمل مدير للاستخبارات في القوات الجوية الروسية، فيما يعتقد المراقبون الروس أنه مجرد كبش فداء لقيادات أعلى.

وفي نوفمبر ١٩٩٧، تم القبض على (جريجوري باسكو) محرر جريدة عسكرية في إحدى مقاطعات الحدود أو التخوم وتم اعتقاله بتهم خرق تعليمات الأمن.

وتعد صحيفة (نوفايا جازيتا) هي الصحيفة المعارضة الرئيسية في روسيا وقدمت في سنوات التسعينات ٤ ضحايا أشهرهم الصحفية والناشطة الحقوقية أنّا بوليتكوفسكايا Politikovaskaya التي لقيت مصرعها ٢٠٠٦ ولم يتم التوصل لقتلتها حتى الآن في ظل تهاون السلطات الروسية في البحث عن مرتكبي حوادث الاعتداء والقتل بحق الصحفيين.

كانت آنا بوليتكوفسكايا ملتزمة بتوثيق الأعمال الوحشية التي حدثت أثناء النزاع الانفصالي للشيشان - ولم تردعها التهديدات والاعتداءات، وقد قام جنود روس في السابق باحتجاز بوليتكوفسكايا حيث وضعوها في حفرة، وفي مرة أخرى نجت من محاولة اغتيال باستخدام السم، ولكن أعداءها تمكنوا منها في ٧ أكتوبر ٢٠٠٦ حيث أطلق عليها قاتلها الرصاص في مصعد البناية التي تسكن بها في موسكو.

وبعد عام على وقوع الجريمة، تم اعتقال عدة مشتبه بهم وبدا أن العدالة ستأخذ مجراها، ولكن المسلح الشيشاني المشتبه به فر من البلاد، وصدر حكم بالبراءة لثلاثة شركاء مزعومين في الجريمة بعد ملاحقة قضائية تشوبها العيوب، وعلى الرغم من شروع السلطات بتحقيقات جديدة إلا أنه لم ترد أي معلومات بشأن إحراز تقدم في تحقيق العدالة، فيما أوردت تقارير منظمات حماية الصحفيين أن القاتل المزعوم روستام ماخمودوف قدم رشوة إلى موظفي الهجرة كي يتمكن من الفرار من البلاد.

وفي ٥ ديسمبر ٢٠١٢ تم إطلاق النار على مذيع التليفزيون كاسبك جيكيف وهو خارج من أستوديو قناته التليفزيونية في (نالشييك)، وحث بوتين السلطات بحل ألغاز الجريمة على حين ألقى الإعلام المناصر لبوتين اللوم فيها على المتطرفين الإسلاميين.

وقبلها بعام تقريبا قتل (خادزيمراد كمالوف) مؤسس صحيفة (تشرنوفيك) في داغستان، وكانت السلطات الجمهورية قد غضبت من الصحيفة لنشرها أن القوات التي تصدت للتمرد في داغستان ٢٠٠٨ قامت بقتل أبرياء لا ذنب لهم في حملاتها.

وعلى الرغم من تعدد حوادث القتل بحق الصحفيين، فإن المجرمين دائما لا يطالهم العقاب ولا يتم القبض عليهم.

ويواجه الصحفيون أيضاً تحرشات كثيفة من السلطة أثناء قيامهم بعملهم، فبعد محاصرة المسيرات لمقر إقامة بوتين في الفترة من ٦ إلى ٨ مايو ٢٠١٢، اعتقلت السلطات الروسية عشرات الصحفيين الذين كانوا متواجدين لتغطية الحدث وسط الجماهير المحتجة على تولى بوتين الرئاسة للمرة الثالثة، وكذلك لعبت السلطات دوراً في حجب المواقع الإخبارية لكل من صحيفة كومرسانت، وراديو إيكو موسكوفي، وصحيفة بولشوي جروود Gorod أو المدينة الكبيرة، وشبكة دوجد Dozhd أو المطر، وموقع slon.ru لإفشال حصول المواطنين على معلومات إخبارية عن الأحداث.

وفي خطوة أخرى لإضعاف وسائل الإعلام الباحثة عن تغطية موضوعية متوازنة، وقع بوتين القرار الرئاسي الذي يجرم السب والقذف الأمر الذي اعتبر ردة عن الحرية النسبية عن قرار ديمتري ميدفيديف الذي ألغى تجريم السب والقذف قبل تنحيه في خريف ٢٠١١ ووصلت الغرامات في قضايا السب والقذف إلى ٥ مليون روبل (١٥٣,٠٠٠ دولار أمريكي).

وبينما كانت روسيا تستعد لاستضافة دورة الألعاب الأولمبية الشتوية في سوتشي ٢٠١٤، أفضى تطبيق سلسلة من القوانين الجائرة وملاحقة معارضي الحكومة قضائياً إلى نشوء مناخٍ هو الأشد قمعاً وعداوةً للغرب منذ الحرب الباردة.

فوفقاً لقوانين جديدة سُنّت في أواخر عام ٢٠١٢، بات مطلوباً من جماعات حقوق الإنسان المحلية والمنظمات الرقابية المستقلة التي تتلقى تمويلاً من الخارج أن تسجِّل بصفة «وكيل أجنبي»، ويخشى الصحفيون الروس أن يتعرضوا لملاحقات قضائية بسبب قيامهم بجمع معلومات من منظمات التي لا ترضى عنها الحكومة.

وفي ١٨ سبتمبر، اعتقلت السلطات الروسية الصحفي البريطاني المستقل كيرون بريان والمصور الفوتوغرافي الروسي المستقل دينيس سينياكوف واتهمتهما بالقرصنة أثناء تغطيتهما احتجاج منظمة السلام الأخضر على متن سفينة في بحر بيتشورا.

وعندما يغطي الصحفيون أحداثاً معينة، «فإن السلطات لا تعاملك كصحفي وإنما كناشط، وهذا واقع جديد.» كما تقول إيلينا ميلاشينا، مراسلة لجنة حماية الصحفيين في موسكو، «وإذا كانت تفعل ذلك بالأجانب، فلكَ أن تتخيل ما يمكن أن تفعله بالصحفيين المحليين»، وتدخلت الحكومة أيضاً في عمل الصحفيين الذين يغطون الألعاب الأولمبية المقبلة، إذ تضيف ميلاشينا الكاتبة أيضاً في صحيفة 'نوفايا جازيتا' المستقلة: «لقد أتت السلطات فعلاً إلى كل صحفي تحدثتُ إليه في سوتشي، وأرَتهم حدود ما يمكنهم تغطيته، وحرِصَت على أن يشعر الصحفيون بتلك الحدود».

وفي ٢٠١٣ توفي صحفيان روسيان بسبب عملهما، وهما أحمدنبي أحمدنبيوف وميخائيل بيكيتوف، وما فتئت جرائم قتل الصحفيين تتراكم، ممّا يفاقم أجواء الخوف، ففي ما لا يقل عن ٣٢ جريمة قتل بحق الصحفيين، لم يمثل أمام القضاء أي قاتل أو محرض على القتل، بحسب البحث الذي أجرته لجنة حماية الصحفيين.

رابعا: ردود الأفعال الروسية على تقارير منظمات مراقبة حرية الإعلام

يمكن استخلاص مجموعة من الحقائق من تقارير منظمات: بيت الحرية، ولجنة حماية الصحفيين، وصحفيون بلا حدود للإعلام الروسي في الأعوام الأخيرة؛ فقد قلت الأصوات المستقلة في الإعلام التقليدي، وقلت تعددية الآراء في الإعلام الالكتروني (الجديد)، وتم استخدام للقوانين ضده بشكل أكثر، ومع ذلك ما يزال يلعب دوراً كبيراً في دعم النقاش حول الشئون العامة.

وفي عام ٢٠١٢ نشر مرصد الحريات الإعلامية (بيت الحرية) في مقره بمدينة نيويورك تقريرا عن حرية الصحافة والإعلام في العالم في العام الذي استهل فيه بوتين فترة الرئاسة الثالثة، فقد انحدرت روسيا إلى موقع تعس في الترتيب، إذ جاء ترتيبها ١٧٢ على العالم موسومة بعبارة (غير حر) متشاركة في نفس المرتبة مع زيمبابوي وأذربيجان، وفي رأي العديد من خبراء الإعلام والصحفيين الروس على حد سواء فإن مثل هذه التقارير تفشل في رصد التغييرات في الإعلام الروسي، وترسم للإعلام صورة أحادية لم تستوعب ثراء التجربة الإعلامية الروسية.

ويتم استقبال التقارير التحليلية التي تصدر عن (بيت الحرية) والتي تمول ٨٠٪ منها بواسطة الحكومة الأمريكية من قبل الرسميين الروس بالتهكم الغاضب والاستنكار شديد اللهجة للمعايير الغربية المزدوجة، بل ويتم التصريح أحيانا بأنه ليست هناك رقابة للدولة على وسائل الإعلام.

ويقول ياسين زاسورسكي الذي كان عميدا لكلية الصحافة في جامعة موسكو الحكومية: الصحفيون الروس اليوم في مزاج ذهني أفضل

ولديهم روح قتالية من أجل الحرية فالمجتمع الروسي يتغير وإن يكن ببطء، والصحفيون اليوم يدخلون تحسينات على مهنتهم، نعم مازالت هناك رقابة ذاتية واتجاه للحرص في التحرير ولكنه يشعر بالتفاؤل حيال أمور الإعلام.

فبغض النظر عن قنوات التليفزيون المسيطر عليها الخطاب الحكومي، فهناك العديد من الصحف التي تدفع الحدود في اتجاه تحرير متوازن، وكذلك تفعل بعض محطات الراديو المستقلة، ومحطات التليفزيون على الإنترنت مثل (Dozhd TV) أو (تلفزيون المطر) التي قاومت التهديدات الحكومية بإغلاقها، و نجحت في تغطية اجتماعات الشوارع في عام ٢٠١٢ التي جاءت كرد فعل على تزوير انتخابات المجلس التشريعي (الدوما).

وتقول بلينيا زيلنسكايا نائب رئيس مجموعة (سايّوز) الإعلامية المساندة للكرملين: أن الوضع الإعلامي في روسيا أكثر تعقيدا وإشكالية مما يرى (بيت الحرية) فالضغط ليس أحاديا من السلطات على الإعلام ولكنه أيضاً في عكس الاتجاه من الإعلام على السلطات، ولكن النقاد يردون عليها بقولهم: أن ساكني موسكو وسان بطرسبرج فقط هم الذين يحسون بالأصوات الإعلامية الناقدة في محطات الراديو المستقلة ومحطة تليفزيون الوب المسماة (Dozhd) إذ ترى (ناديز دابرسينكوف) المتحدثة باسم الجريدة المعارضة (نوفايا جازيتا) بأن الأصوات النافذة يجري إخراسها بالقتل كما حدث لزميلتها (أنا بوليتكوفسكايا) في العقد الماضي.

وتضيف أن «الصحفيون لا يخضعون لرقابة حكومية مباشرة ولكن تحوطهم (الرقابة الذاتية) من كل اتجاه غارقين في مستنقع من الخوف ولكني أرى أنه مادامت هناك أصوات معارضة مثل تليفزيون دوجد أو المطر (Dozhd) وراديو (إيكو مسكوفي) ومواقع المدونات على الإنترنت فمازال الأمل قائما»، وهو الأمل الذي تم خنقه في عام ٢٠١٤.

خامسا: بين الرقابة التحريرية والرقابة الذاتية

أجرت إليزابيث شيمبفوسل الباحثة البريطانية بكلية الدراسات السلافية والأوروآسيوية بالكلية الجامعية بلندن وإليا يوبلكوف الباحث الروسي بكلية الآداب بجامعة ليدز البريطانية ـ والاثنان متخصصان في الإعلام والتاريخ الروسي ـ دراسة هامة للغاية عن أوضاع الرقابة والرقابة الذاتية في الإعلام الروسي.

تختبر هذه الدراسة المؤسسة على مقابلات متعمقة فرضيات الرقابة والرقابة الذاتية التي تُفرض على العاملين في التليفزيون الفيدرالي الروسي تحت حكم الرئيس بوتين لاسيما فترة رئاسته الثالثة، وتتحدى نتائجها الفكرة المرسومة عن العاملين في مجال التليفزيون الروسي بأنها يخضع قهراً لتوجهات الكرملين التي تفرض قسراً على المحررين ومقدمي البرنامج والمذيعين و نجوم التووك شو أو مضيفين البرامج الحوارية.

وقد التقت الدراسة ١٣ شخصية إعلامية: ٤ منهم من نجوم الإعلام الروسي السياسي، و٤ من خبراء/ رؤساء تحرير النشرات والبرامج السياسية و٥ من المحررين ذوي الخبرة الأقل في مقابلات متعمقة تمت في موسكو في أغسطس ٢٠١٣ في قنوات: Rossiya NTV, Channel 1، REN TV.

وتصل الدراسة إلى نتيجة مفادها أن القيادة السياسية الروسية ليست في حاجة إلى فرض رقابة على هذه القنوات التي تغطي روسيا بكاملها ولا على العاملين فيها فأولاً: تم إجبار ملاك هذه القنوات ببيعها لمؤسسات اقتصادية تابعة للدولة أو لرجال أعمال موالين لها وثانيا: لأن الشخصيات الإعلامية لاسيما نجوم البرامج السياسية قد طبقوا سياسة الامتثال والموافقة والدفاع عن النظام القائم قبل أن ينطقوا حرفا في برامجهم، إذا أن هؤلاء يطلقون مفهوما روسياً يدعى أديكفاتنوست (Adekvatnost) والذي يترجم في الإنجليزية إلى Conformism.

وهذا المفهوم يشمل: «انتهاز الفرصة بقبول امتثالاً روتينياً للنظام السياسي دون تحدي من أي نوع للممارسات والمعايير والتي فرضت أساساً قهراً،

ولنا فإن المفهوم لا يعني القهر بقدر ما يعني تجنب المتاعب وتعظيم أرباح الموالاة للنظام القائم».

وهذا المفهوم (الامتثال) هو مفهوم لغوي يستخدم تعبيرات رقيقة إيجابية لتجنب استخدام تعبيرات خشنة سلبية.

فالنظرة الفاحصة لممارسات المحررين والخبراء Pundits وهم أولئك المتخصصون في العلوم السياسية الذين يتم استضافتهم بشكل روتيني في القنوات الروسية ويطلق عليهم الخبراء تهكماً، وكذا المذيعين ومضيفي البرامج السياسية تكشف أنهم طوروا بيئة إعلامية بها آليات متقدمة لتنفيذ سياسات الكرملين والرئيس دون حتى أن يجعلوا هذه الآليات واضحة، بل هي تعمل في الخفاء.

وأعرب كل المبحوثين تقريبا عن تفهم العاملين لهذه التوجهات، وإذا ارتأى أي منهم معارضة سياسة الكرملين والرئيس بوتين عليه ببساطة أن يترك مكانه إلى أي قناة تليفزيونية أخرى هذا إن وجد، وبذلك تكون القنوات الفيدرالية الروسية لا تختلف عن القنوات القومية والمحلية الروسية التي درستها الباحثة الروسية (أنّا كلوستوفا) في منتصف العقد الأول من القرن الحادي والعشرين.

وحتى هذه النتيجة لا تعني أن هذه الشخصيات يائسة تعمل في أجواء عبثية على العكس إذ يؤمنون أنهم معلمون وسياسيون يساهمون في تدعيم نظام سياسي مقتنعون به تمام الاقتناع، وهم يفعلون ذلك بوعي وعن عمد رافعين شعاراً: «إذا كنت سعيدا بقواعد اللعبة، فألعبها كما ينبغي»!

بل أكثر من ذلك، فقد رأى أغلبهم أن تعبير (السياسة التحريرية) يوجد مثيله في وسائل الإعلام الأمريكية والأوروبية، وأنهم في ذلك لا يقلون في الضغوط التي يتعرضون لها عن نظرائهم الغربيين، فهناك هذا الامتثال أيضاً في الإعلام الغربي الذي ينظم الأجندة الإخبارية اليومية للقنوات الإخبارية الشهيرة في الغرب، بل الأمر يتعدى ذلك إلى صنع هذه الأجندة أو المشاركة فيها.

وقد أصبح المناخ السياسي الروسي أكثر غموضاً بعد ٢٠١٢ إذ أن مستقبل النظام يبدو أكثر من أي وقت مضى تحت حكم بوتين غير قابل للتنبؤ.

وهذا التحدي يجعل النخب السياسية تراقب قنوات التليفزيون الفيدرالية عن كثب كعمود ودعامة أساسية للقوة المعلوماتية، والعاملين فيها جاهزين لتطبيق أي شيء يتطلبه بقاء نظام بوتين والحفاظ عليه والدفاع عن الوضع القائم، إذ ينظرون لأنفسهم على أنهم رقم كبير في معادلة استقرار النظام السياسي فاعلين أي شيء حتى لا يعود مناخ منتصف التسعينات الفوضوي، فهم ليسوا إعلاميين فقط ولكن سياسيين أيضا.

إذ خلال الفترتين الأوليين من حكم بوتين ٢٠٠٠ - ٢٠٠٨ انتشرت ظواهر الرقابة الذاتية الخاضعة للسلطة والمقيدة للأخبار والآراء التي لا تتوافق مع سياسة بوتين.

أما القلة من الملاك (القلة الأوليجاركية) التي دأبت وسائلهم الإعلامية على تحدي السلطات فقدتم إجبارهم عن التخلي عن ملكية هذه الوسائل التي تحقق انتشاراً جماهيرياً، بل وأجبر البعض على مغادرة روسيا.

وعلى الرغم من عدم وجود رقابة في روسيا ينص عليها القانون، فإن أغلبية الصحفيين الروسي حاليا يمارسون الرقابة الذاتية وبدرجة أقل الرقابة التحريرية (رقابة رئيس التحرير ومساعديه ونوابه)، وتمارس الرقابة التحريرية من خلال حذف فقرات من الموضوعات التي يعدها المحرر تنتقد الحكومة، وفي أحيان أخرى تمنع الموضوعات بكاملها من النشر، ولكن حتى هؤلاء الذين يعانون من نوعي الرقابة يرون أنهم ينتقدون أوجه عدة من عمل الحكومة الروسية في مطبوعاتهم.

وأشارت نتائج دراسة أخرى أن الصحفيين الذين بدؤوا عملهم أثناء الاتحاد السوفيتي السابق لا يمارسون الرقابة الذاتية على أنفسهم بقدر هؤلاء الصحفيين الذين بدؤوا عملهم بعد انهيار الاتحاد السوفيتي، وهذا يقود إلى نتيجة مفادها أن نوعية الرقابة الذاتية حاليًا تختلف عما كان موجودا أثناء الحقبة الشيوعية وأن لها ديناميتها المختلفة ومؤسسة بعوامل غير نمطية،

فهناك جيل كامل بدء عمله بعد انهيار الاتحاد السوفيتي ويمارس الرقابة الذاتية.

وقد قابلت الباحثة التي قامت بهذه الدراسة ٤٠ صحفيًا بشكل عشوائي من مجموع ١٠ صحف قومية بارزة تغطي الاتحاد الروسي بالكامل وهي: كومرسانت، أرجومنتى إي فاكتى، فيدموستى، كومسومولسكايا برافدا، روسيسكايا جازيتا، موسكوفسكي كومسموموليتس، نوفايا جازيتا، إزفستيا، نيزافيزمايا جازيتا، فيرمايا نوفوستى.

ولم توضح نتائج الدراسة أن الرقابة التحريرية تؤثر على الرقابة الذاتية فهناك من يمارس على نفسه الرقابة الذاتية سواء تعرض أم لم يتعرض للرقابة التحريرية، ولذا ليست الرقابة الذاتية تبدأ عملها من رئيس التحرير، فالصحفيون الذين يمارسون الرقابة على أنفسهم يفعلون ذلك على ضوء (المعرفة العامة) بظروف روسيا وظروف الإعلام عامة ولذا فقد تشابهوا في الموضوعات التي عدوها شديدة الخطورة ومن بينها الحياة الشخصية للرئيس بوتين وحالته الصحية وكذا أنشطة مكافحة الإرهاب والتشريعات المتعلقة بذلك والتي سنتها الحكومة الروسية في أعقاب الحرب الشيشانية الثانية، وكذا العقوبات الانتقالية التي طالت عدد كبير من مشاهير المحررين الذين تجاوزا الخطوط الحمراء وتناولوا هذه القضايا الخطيرة.

وقد ثبتت صحة فرضية أن الصحفيين الذين يمارسون الرقابة الذاتية على أنفسهم ينشرون موضوعات أكثر جرأة وشجاعة عندما يضعونها على مدوناتهم الشخصية أو ينشرونها على المواقع الإلكترونية الإخبارية على الإنترنت وذلك رغم قلة عددهم.

وهو الأمر الذي يثبت أن الصحفيين الروس يرون الإنترنت كمكان يمكن أن يمارسوا فيه النقد بشكل أكثر صراحة تجاه السلطات، وإن كان عدد كبير من الصحفيين لا يستطيع فعل ذلك لأن عقودهم الموقعة مع صحفهم لا تسمح بذلك.

وكذا أثبتت الدراسة أيضا عدم وجود علاقة واضحة بين ملكية الصحف الرسمية الحكومية وبين ممارسة الرقابة الذاتية، فمن المعلوم أن معظم ملاك الصحف الخاصة أيضا على علاقة طيبة للغاية بكل من الكرملين والرئيس بوتين لدرجة أن الصحفي يمارس رقابته الذاتية على ضوء هذه العلاقة.

ورغم أن الرقابة الذاتية واضحة في الصحف المطبوعة مقارنة بالتليفزيون إلا أن الأولى تبقى أكثر حرية من الأخيرة، وليست مراقبة بشكل مباشر من الحكومة التي تمارس رقابتها المباشرة على التليفزيون أكثر منذ أن تحولت الأمة الروسية لتكون أمة مشاهدة أكثر من كونها أمه قارئة، وأغلب الصحفيين أشاروا إلى أنهم لا يناقشون القضايا شديدة الخطورة حتى يتمكنوا من مناقشة موضوعات "خطيرة فقط" مثل الفساد الحكومي.

كما أن آلية الضغط الجماهيري على الحكومة في روسيا ليست موجودة وإن وجدت فلا أحد يحس بوجودها، فقد كانت هناك حربين في الشيشان تجري في مدى تسع سنوات ولكن هل تحركت الجماهير وتظاهرت ضد حكومتها ؟!، كلا لم يحدث شيء من ذلك.

في وسائل الإعلام المسيطر عليها، يتم إبراز وحدة البلاد ومقاومة التفكك على أنه الحل العملي لمشكلات الإرهاب والفقر والفساد، لدرجة تشبيه خطاب الدعاية الحكومية بخطاب ليونيد بيرجنيف في التسعينات، خطاب إنشائي راكد لا بديل له.

تعتبر الرقابة الذاتية في الإعلام الروسي ناتج لطبيعة سياسات الملكية في هذا الإعلام، عندما اعتقدت القلة من الملاك أن الإعلام أداة للحصول على رأس مال سياسي أكثر من كونها مؤسسة ربحية مستقلة تعمل وفق ديناميات الخاصة، ولذلك يعد الولاء التحريري شيئا مهما ومتوقعا من قبل الإعلاميين الذين يواجهون خطر الاستغناء عنهم إذا لم يستطيعوا إثبات هذا الولاء.

سادسا: راديو موسكوفي .. راديو شجاع وسط بحيرة القروش

يعد راديو (إيكو موسكوفي) حالة شاذة غريبة خارجة عن القياس وسط بيئة الإعلام الروسي التي تنحو للسلطوية تحت حكم الرئيس بوتين، إذ تتعدد الاتجاهات السياسية المؤيدة والمعارضة في البرامج والتغطيات.

والتساؤل الرئيس وهو: ما الاستراتيجيات التي اتبعتها إدارة الراديو للتأقلم مع البيئة الإعلامية الروسية و «البقاء» فيها على رغم المخاطر التي كانت محدقة بالراديو في الفترة من ٢٠٠٠ - ٢٠١٤ ؟

وقد ركزت دراسة خاصة عن هذه المحطة الإذاعية على دور رئيس المحطة ورئيس تحرير برامجها منذ ١٩٩٨ (إلكسي فيندكتوف)، وحاولت رصد كيف ولماذا كان الراديو قادراً على العمل واستضافة وجهات نظر مختلفة في بيئة إعلامية معادية خطرة وغير مواتية.

في الجزء الأول من الدراسة، يضع البحث السياق للبعد الخاص بالبيزنس خاصة بنية الملكية ومدى الانتشار والجمهور، وفي الجزء الثاني تختبر الدراسة العلاقة بين الراديو والنخبة السياسية الروسية محللة كل برنامج أدار فيه (فيندكتوف) النقاش مع ضيوفه ومضمون هذا النقاش وعلاقته بسياسات بوتين والكرملين في الفترة ٢٠٠٠ـ ٢٠١٤.

وسعت الدراسة لرصد العناصر الإستراتيجية لخطة البقاء التي وضعها فيندكتوف لراديو (إيكو موسكوفي) وكان على رأس هذه العناصر التوازن الذي اعتمد عليه مدير المحطة بين الآراء الرسمية والمعارضة في النقاش، وثانيها أن مدير المحطة استجاب لضغوط بوتين بتضمين برامجه بعض المسئولين المقربين منه ليعرضوا وجهة نظر بوتين بالشكل الذي يرضيه ويريحه، ويعد امتثال فيندكتوف ورضوخه لبوتين عاملا حاسماً في بقاء الراديو ولنوعية تغطياته.

ولعب ذكاء فيندكتوف عاملاً حيوياً في استضافة خليط من الصحفيين الروس والضيوف الأجانب ليردوا على وجهة النظر الرسمية التي تحدت هيمنة الكرملين على الأصوات الإعلامية، وبذلك حفظ المكانة المميزة للراديو.

واستراتيجيات الموائمة التي اتبعها راديو (إيكو موسكوفي) فيها عدة عوامل: منها التمويل الكافي المستدام للراديو، حجم المستمعين الكبير، العلاقات السياسية الجيدة بالنخبة، نوعية اختيار أصوات المعارضة الرصينة المثقفة وتنوع المضامين.

ونمت إدارة (فيندكتوف) عن «شطارة» وحذق في الممارسات التحريرية وفي توفير الاستقلالية المالية لمحطة الراديو وعلاقاته الجيدة بالنخبة.

وعلى الرغم من أنه لا أحد يمتلك حماية حقيقية في مواجهة غزوات وهجمات عملاق الطاقة (جازبروم) أو أي جهة مدعمة سياسياً، ولكن استراتيجيات الموائمة أتاحت للراديو تفادي تدخل الكرملين المباشر وتقديم وجهات النظر المختلفة لأصوات لا يمكن سماعها في أي وسيلة إعلامية روسية أخرى.

ولا يعبر الراديو عن اتجاه مستقبلي للإعلام الروسي، بل كان الاستثناء الذي يؤكد القاعدة، إذ اعتبره بوتين بالون اختبار مستدام لاختبار رد فعل الجماهير على الأصوات غير المؤيدة للكرملين.

وهو يدلل أيضاً على أن الخط السلطوي لبوتين ليس بهذه الصرامة التي تصورها البعض في الغرب، ويمكن تغييره عندما يريد من يمسك بالخيوط، وهو ما يجعل أيضا مستقبل هذا النوع من الإعلام المتوازن غير معلوم على وجه اليقين، وهو ما حدث بالفعل في ٢٠١٤.

ففي مارس ٢٠١٤، تم منع الدخول على الموقع الإلكتروني لراديو (إيكو موسكوفي) الراديو الأكثر تمتعاً بالحرية في روسيا والمعروف بتغطيته المتوازنة للأحداث والتي تستضيف وجهة النظر المعارضة للرئيس بوتين.

وقد تم ذلك عقب إيقاف تصفح الموقع الإلكتروني للمعارض الروسي (إلكسي نفالني) بعد إتهامه بالتطرف، وكان موقع المحطة الإذاعية قد وضعت رابطاً لمدونة هذا المعارض، وبعد حذفها عاد الموقع الإلكتروني للعمل، ولكن تم إقالة الرئيس التنفيذي لمحطة الراديو من قبل مجلس الإدارة وحاملي الأسهم وتم تعيين نائب رئيس محطة (صوت روسيا) السابق بدلاً منه.

وكان (إلكسي فندكتوف) الذي رأس (إيكو موسكوفي) لفترة طويلة يعد من الإعلاميين الذين يتمتعون بالأمان في ظل النظام الإعلامي الروسي رغم استضافته لبعض الأصوات المعارضة وقد نجح في البقاء في المياه الخطرة للإعلام الروسي لعقدين من الزمان.

وقد علق ما حدث بقوله: «أن قرار إقالته سياسي بامتياز، ولكن لم أكن لأعدل من السياسة التحريرية لمحطة الراديو، فنحن مهنيين ولسنا موظفي خدمة عامة، وفي العمل كنا نراجع كل نقطة في تقاريرنا الإخبارية ونتثبت منها».

والأمر في ٢٠١٤ يذكر بما حدث لبعض القنوات في بداية فترة رئاسة بوتين الأولى، ففي ٤ إبريل ٢٠٠١، تم اقتحام مقر قناة NTV التي كانت تمثل الصوت الإعلامي الأعلى آنذاك وتم تجريد أفراد الأمن من أسلحتهم ومن وقتها أصبحت القناة تحت سيطرة عملاق الطاقة المملوكة للدولة شركة (جازبروم) وتحولت السياسة التحريرية للقناة لتصبح القناة الأكثر حملاً على المعارضة ورموزها.

ولكن في هذه الأيام وبدلاً من الغارات الليلية على مقرات قنوات المعارضة الناشزة، أصبحت القنوات تؤخذ بالتهديد لتطيع سياسة الكرملين، وكل قنوات التليفزيون الروسي حالياً إما مملوكة للحكومة أو لشركات خاصة موالية للحكومة يديرها أصدقاء الرئيس بوتين وتحولت إلى آلات للدعاية.

وكما علقت (يفجينا ألباتس) رئيسة تحرير مجلة The New Times «فهذه الأيام تذكرني بطفولتي أيام الاتحاد السوفيتي، وتذكرني بروايات جورج أورويل والروائي الروسي فيلاديمير سوركين في أحد رواياته التي يتخيل فيها رجوع القيصر في عام ٢٠٢٨ وحبس روسيا وراء ستار حديدي جديد في الوقت الذي يقوم فيه البوليس بالاغتصاب وأعمال السلب والنهب في البلاد، إنني أفهم أنه في غضون ٥ ـ ٧ سنوات قادمة، لن يكون شيئاً في البلاد يمكن أن يطلق عليه إعلام».

والسؤال هل تتكرر ظاهرة إيكو موسكوفي؟ لاسيما بعد اشتداد قبضة الدولة أكثر بحلول عام ٢٠١٤.

سابعا: رؤية عامة لحرية الصحافة والإعلام

في ظل تعبوية الدولة، يزداد تحيز وسائل الإعلام لصالح هذه الدولة بل وتزداد حصص الملكية، وتصبح التفرقة صعبة بين إعلام الدولة والإعلام الخاص، فالسوق الإعلانية الكبيرة تقلل من تحيز وسائل الإعلام المملوكة للدولة وتلك التي تعود ملكيتها للقطاع الخاص، وبذلك تعطي الحافز للحكومة حديثة الديمقراطية للسيطرة على هذا الإعلام الخاص، ويصدق ذلك بالتطبيق على الدول حديثة الديمقراطية أو قليلة الديمقراطية مثل روسيا.

ييشجع إذاعة القصص الخبرية التي تدمج التسلية بالمعلومة - Inf tainment ذات البعد الإنساني أكثر من الأخبار الجادة على مشاهدة مواد التسلية على حساب مشاهدة الأخبار، وجاذبية هذه الإستراتيجية تتحدد بعاملين الطبيعة التعبوية للحكومة وحجم السوق الإعلاني الذي يزيد مع ازدياد الجرعة الترفيهية في هذه الوسائل.

يتمتع الآن المواطنون الروس بتنويعة من وسائل الإعلام والمعلومات أكثر بكثير مما كان موجوداً في الحقبة السوفيتية، ولكن هذا التدفق المعلوماتي لا يعني أن المتعرضين للأخبار يستطيعون أن يجدوا تغطية ذات معنى للسياسات التي تحدث في بلادهم.

وبالنسبة للسلطات فإن حجب المعلومات الصريحة التي تناقش صراع السلطة والثروة في روسيا والتناقضات بين مَنْ يملكون وبين مَنْ لا يملكون يبقى هائلاً، وكذا تقييم صنع السياسات وقرارات صرف الميزانية ومصالح رجال الأعمال لدى الحكومة تبقى محجوبة.

فالميديا العاملة في روسيا تحت قيادة بوتين تبقى معقدة للغاية، إذ أن للدولة احتكارا فعالاً للوسيلة الرئيسية التليفزيون، وتمنع إذاعة تعليقات

تعكس أصوات مختلفة عن أصوات بوتين والكرملين، وبينما يقدم الإنترنت بديلا إخباريا ومعلوماتيا فإنه يقع تحت العين الفاحصة للكرملين التي تقيد قواه التي يمكن أن تشكل عملا جماعيا من قبل المعارضة.

وبينما تزداد التساؤلات حول شرعية الحكومة، فإن إدارة السلطات لوسائل الإعلام تبقى حيوية لمدى فعالية القيادة الروسية في الاحتفاظ بالسلطة، ففي العقد الأخير ومع قيادة بوتين طبقت روسيا استراتيجيات عدة لإضعاف الميديا المستقلة مضحية بعشرات الإعلاميين والصحفيين في دولة لا تتورع عن فعل أي شيء لحفظ السلطة، وبالطبع يصب ذلك في صالح الابتعاد عن الطريق الشفاف والمسئول ديمقراطياً.

***

مراجع الفصل

1. Andrei Richter, Post-Soviet Perspective on Censorship and Freedom of the Media: An Overview, International Communication Gazette, 70 (1), October 2008. Pp.307 – 324.

2. Anna Litvinenko, A New Definition of Journalism Functions in the Framework of Hybrid Media Systems: German and Russian Academic Perspectives, Global Media Journal, 3 (1), Spring/Summer 2013. pp. 1- 12.

3. Elena Rodina, How Publication Type, Experience, and Ownership affect Self- Censorship among Moscow Newspaper Journalists, MA Thesis, Department of Russian and East European Studies, University of Oregon, USA, June 2010. pp. 64 – 68.

4. Elisabeth Schimpfossl & Ilya yablokv, Coercion or Conformism?: Censorship and Self Censorship among Russian Media Personalities and Reporters in the 2010's, Demokratizatsiya, The Journal of Post-Soviet Democratization, 22(2): 2014. pp. 295-312.

5. Fred Weir, Russian Media: True, We're not Free but we're not Zimbabwe, Christian Science Monitor, 5th February 2012. p. 11.

6. Gennadi Gerasimov, Russia Media Revolution: From Party Control to Money Control, Asia Pacific, 37(1), June 1998. pp. 1-8.

7. Greg Simons & Dmitry Strovsky, Censorship in Contemporary Russian Journalism in the Age of the War against Terrorism: A Historical Perspective, European Journal of Communication, 21(2), June 2006. Pp. 189 – 211.

8. Hedwing de Smaele, Limited Access of Information as a Means of Censorship in Post-Communist Russia, The Public, Journal of the European Institute for Communication and Culture (Javnost), 11(2), 2004. Pp. 65-82.

9. Jukka Pietiläinen and Dmitry Strovsky, Why Do Russian Support Censorship of the Media, Russian Journal of communication, Vol. 3, No. 1/2, Fall 2013. pp. 53 – 69.

10. Svetlana Pasti, Two Generations of Contemporary Russian Journalists, European Journal of Communication, 14 (1), 2005. Pp. 89-112.

11. William Andrews Evans: The Anomaly of Ekho Moskovy: Adaptation Strategies for the Survival of Diversity of Viewpoints in Russian Media during the Putin Era, MA Thesis, Department of Slavic and Eurasian studies, Duke University, 2012. pp. 85-86.

12. Yelena Sheftelevich, The State of the Media Law in the Russian Federation: A Difficult Past, an Interesting Present, and Uncertain Future, Touro International Law Review, 12 (1), 2009. pp. 88- 166.

***

الفصل الخامس

السياسات التحريرية للإعلام الروسي: دراسات حالة

أولا: السياسة الإعلامية الروسية في الحرب الشيشانية الأولى والثانية

كانت الحملة العسكرية الأولى على الشيشان من ديسمبر ١٩٩٤ إلى أغسطس ١٩٩٦ أول اختبار حقيقي لحرية الصحافة في روسيا منذ انهيار الاتحاد السوفيتي السابق، وظلت طويلا في التصورات الأكاديمية عن الإعلام الروسي حتى نهاية التسعينات.

وعلى الرغم من أن بعض الصحفيين أدان قصف البرلمان الروسي عام ١٩٩٣ وساند يلتسين، فقد دفعت حرب الشيشان الصحفيين للقدح في حق يلتسين بشكل كبير لأول مرة، وكانت محطات التليفزيون التي تدار من موسكو هي المصدر الأساسي للمعلومات عن القتال.

وفضحت شبكة قنوات NTV الأكاذيب الرسمية عن كيفية اندلاع تلك الحرب، وتبعتها نشرات الأخبار في شبكة التليفزيون الحكومية RTR التي كانت قناتها الثانية Channel 2 تصل لكل جزء من روسيا، ورفعت كل الصحف الخاصة تقريبا أصواتها ضد الحملة العسكرية.

وكان إبراز وجهة النظر المضادة للحرب مصدر فخر لمعظم الصحفيين، ورغم أن التقارير الصحفية لم توقف إراقة الدماء في البداية، إلا أن المعارضة التي تشكلت سريعا ضد الحملة أجبرت الرئيس يلتسين على قبول اتفاقية وقف إطلاق النار بينما هو يستعد لدخول حملة الانتخابات الرئاسية الثانية في نهاية ١٩٩٦.

وآمن كل من مؤيدي الحرب ومعارضيها أن التغطية الإعلامية دعّمت من وجهة نظر الأغلبية بضرورة وقف القتال.

وعلى الرغم من أن يلتسين لم يتراجع عادة عن السياسات التي يعارضها الرأي العام، ولكن تراجعه الاستثنائي في الشأن الشيشاني أوضح أن الصحفيين ساعدوا على وجود درجة ما من الشفافية، ومن ثم تحمل روسيا

لمسئوليتها عن الأحداث في الشيشان، وبنفس الأهمية، فإن تهديدات المسئولين الروس الكبار لوسائل الإعلام فشلت في تغيير مضامينها ونبرتها المعارضة للحملة مؤكدة أن الاستقلالية التحريرية التي تمتع بها الإعلام الروسي كانت حقيقة راسخة عندما عبّر عن مقاومته للضغوط التي مورست عليه من أعلى.

لكل هذه الأسباب، يرى المعلقون أن تغطية حرب الشيشان الأولى كانت لحظة الحقيقة للصحافة الروسية أو أكثر لحظاتها روعة وعلامة على أن روسيا - على الرغم من أن ذلك كان بشكل غير مكتمل وغير مثالي - أحدثت قطيعة مع فترة التحكم الإعلامي التي كانت سائدة في الاتحاد السوفيتي السابق.

وإذا كانت حملة الشيشان الأولى أثبتت أن السلطات الروسية لم تستطع التلاعب بوسائل الإعلام، فإن الحملة الثانية على الشيشان التي بدأت عام ١٩٩٩ أثبتت العكس تماماً.

في الحملة الثانية، أصبحت أغلب وسائل الإعلام الحكومية والخاصة معتمدة على مركز المعلومات الرسمية الذي وصفه أحد المراسلين بعبارة (قسم الدعاية)، وفيما رأى ياسين زاسورسكي عميد كلية الصحافة بجامعة موسكو الحكومية السابق بأن تغطية الحرب الأولى كانت نجاحاً محققاً للصحافة الروسية الديمقراطية، فإنه في نهاية ١٩٩٩ لم يجد الكثير ليقدره في التغطية الإعلامية التي انقلبت لتصبح واحدية الاتجاه ومتحيزة لوجهة النظر الرسمية، عندما صعّدت الدولة أثناء الحملة الثانية من سياسات حجب الأخبار وإخفائها الذي يفيد الكرملين فقط.

في الحملة الأولى، تعاطف عدد كبير من الصحفيين مع القضية الشيشانية وكانت معظم الصحف القومية التي تعمل من موسكو تتمتع بإدارة ذاتية واستقلالية تحريرية وآمن صحفيوها بأن الصحافة تمثل (سلطة رابعة) تراقب الأداء الحكومي.

وبنت أغلب وسائل الإعلام الخاصة ـ لا سيما تليفزيون NTN والصحيفة اليومية (سيفودنيا) وراديو (إيكو موسكوفي) وكلها كانت مملوكة لمجموعة (Most) الذي كان يديرها رجل الأعمال فلاديمير جوسينسكي ـ سمعتها الطيبة على المهنية والتوازن في تغطية الحرب.

وعلى الرغم من أن يلتسين أزعجته تغطية الحرب الشيشانية الأولى فإنه لم يشجع كثيرا الهجوم على وسائل الإعلام وتعريضها للضغوط نتيجة عدم تعاطفها مع سياساته.

وفي واحدة من سياساته المتوازنة، فقد أكد على أهمية حرية الصحافة في الوقت الذي لم يعاقب فيه العسكريين الذين داسوا على حقوق الصحفيين.

ولكن في الحملة الشيشانية الثانية ١٩٩٩ـ ٢٠٠٠، نجح اقتراب الكرملين في إدارة التغطية الإعلامية، ونجحت تكتيكاته التي فشلت في الحرب الشيشانية الأولى وهي: وضع قيود شديدة على دخول الصحفيين لمسرح العمليات أو ما تسمى دائرة الحرب War Zone، إتاحة معلومات يومية محدثة عن القتال ينفرد بها مكتب المعلومات الرسمية، اللعب على الأوتار العاطفية الوطنية أو الحس الوطني للصحفيين، تكذيب وجهات النظر المعارضة للحرب، والتطبيق الانتقائي للقانون الجنائي على الصحفيين الذي حادوا عن الموضوعات المقبولة رسميا.

ولكن ما الذي جعل هذه السياسات ناجحة في الحرب الثانية؟ رغم أن تغير اتجاهات الصحفيين الروسي نحو الانفصاليين الشيشان يعد شيئا مهما إلا أنه ليس المسئول الأول عن التغطية الإعلامية المطيعة للكرملين، فقد حاول بعض الصحفيين تقليد طريقة التغطية الخبرية للحرب الأولى ولكن المسئولين الروس كانوا قد تعلموا من أخطائهم في منتصف التسعينات ومن الطرق التي استخدمتها الحكومات الغربية خلال حملة قصف الناتو ليوغسلافيا في ١٩٩٩.

في موسكو، قدم الخبراء الاستراتيجيين اللامعين المعلومات بشكل يومي وفي الوقت المناسب، وفي الشيشان والجمهوريات المجاورة، نجح ضباط الجيش والأمن بشكل كبير في منع الصحفيين المناوئين من الدخول لمناطق القتال.

أما العامل الأكبر فكان في السعي الناجح للسلطات في التأثير على التغطية بشكل غير مباشر عبر القروض البنكية والمجموعات الاقتصادية التي سادت سوق وسائل الإعلام في موسكو في الفترة بين الحربين الشيشانيتين.

عمد فلاديمير بوتين إلى مجموعة (جازبروم) - التي تملك الدولة أغلب أسهمها - لإخضاع تغطية قناة NTV للحرب الشيشانية الثانية لصالح الدولة وسياستها، وهذا الطريق لم يكن متاحاً لـ (يلتسين) في الحرب الأولى لأن مجموعة (جازبروم) التي تحتكر الغاز الطبيعي في روسيا لم تكن تستثمر في قناة NTV بعد.

في الحرب الثانية لم يمتلك بوتين فقط كروتاً للعب أكثر من يلتسين، ولكنه كان أيضا أكثر جرأة في استعمال الوسائل السلطوية لجعل الصحفيين مساندين لجهود الحرب التي تشنها الدولة الروسية، ففي ظل موافقته قامت وزارة الإعلام (التي لم تكن متواجدة بالحرب الأولى) بالضغط على الصحفيين لردعهم عن مقابلة القادة الشيشان.

وبينما لم يوافق يلتسين على الاستجواب الجنائي لمراسل قناة NTV في الحرب الأولى عام ١٩٩٥، فإن بوتين دافع عن الاعتقال غير القانوني لمراسلي راديو ليبرتي في بداية ٢٠٠٠ ناصحا ومهددا الصحفيين بمراعاة قوانين الدولة إذا أرادوا أن تراعي الدولة تطبيق القوانين معهم، وتعاضد كلا من الاستخدام الفعال للتكتيكات القديمة والأدوات الجديدة التي أمتلكها مسئولو الدولة، مع الاستخدام الكفء للإرادة السياسية للدولة في حدودها القصوى في احتكار الكرملين لأجندة الأخبار خلال الحرب الثانية على الشيشان.

الحرب المعلوماتية:

يرى أغلب منظري تغطيات الحروب إعلامياً أن وسائل الإعلام تميل للاحتشاد خلف قادتها السياسيين في زمن الحرب شأنها في ذلك شأن أغلب المواطنين.

وللوهلة الأولى، يبدو سلوك وسائل الإعلام الروسية في الحرب الشيشانية الأولى كالاستثناء الذي يؤكد القاعدة، فقد ظهرت قناة NTV كالشوكة في جنب السلطات وبثت مشاهد لقتل المدنيين في المدن الشيشانية، فيما كان يؤكد المسئولون العسكريون أن كل شيء هادئ أو أن هذه القنابل قصفت أهدافاً عسكرية فقط.

بينما كانت تغطية الإعلام الروسي في الحرب الثانية طبيعية في مساندتها للدولة وقبول القيود في زمن الحرب، وساعد على ذلك أن الصحفيين الروس خبروا فظائع الشيشان في معاملة الرهائن الروس، وكذلك استاءوا من نكران الجميل الذي أظهره الشيشان تجاه الصحفيين الذين دافعوا عن حقوقهم في الحرب الأولى.

فضلاً عن ذلك، فإن النجاح الذي أصاب جهود الدولة في إدارة التغطية الإعلامية في الحملة الثانية لصالحها كشف عن العلاقة المتغيرة بين الدولة ووسائل الإعلام في النصف الثاني من التسعينات؛ إذاً اختلف السياق وكانت هناك قوة أكبر من قبل الدولة وتعاطفاً أقل من قبل الصحفيين مع الشيشان.

وعلى الرغم من وجود قلة عدد وسائل الإعلام الروسية المناهضة للحرب في الشيشان ١٩٩٩ مقارنة بوسائل الإعلام التي ساندت وجهة النظر الرسمية، إلا إنها أيضاً لم تستطيع الدخول لساحات القتال لجمع لمعلومات مخالفة لمعلومات الدولة والتحقق من حالة المدنيين.

هذه الضغوط لم تمنع صحيفة مثل (نوفايا جازيتا) من أن تتصدر الأصوات التي قدمت تغطية مناوئة للحرب، ولكن صحفييها لم يجدوا دلائل على وجهات النظر الأخرى لأنهم لم يتواجدوا في ساحات القتال ولم يقابلوا الضحايا من المدنيين، وكذا لم يجدوا دلائل لمساندة تسوية سياسية للنزاع.

وبرغم لقاء بعض وسائل الإعلام الروسية للزعيم الشيشاني أصلان مسخادوف منذ ١٩٩٧، إلا أن وسائل الإعلام الروسية كانت مترددة في تقديم وجهات نظره في حرب الشيشان الثانية لأن الأمر كان يعرضها لتلقي تحذيراً رسمياً من قبل الدولة تطبيقا لقانون الإرهاب، وكذلك عاقب القادة العسكريين المدنيين الذين قابلوا الصحفيين، وأثنوا على هؤلاء الذين رفضوا مقابلتهم.

وكذلك فإن التحكم في أسهم ملكية وسائل الإعلام الخاصة أزاح الاستقلالية التحريرية جانبا، وحاولت مجموعة (Most) الإعلامية مقاومة ضغوط الدولة للموافقة على الحرب ولكن تحركت مجموعة (جازبروم) لتطالب المجموعة الإعلامية بالقروض التي منحتها إياها مثبتة أن معاندة سياسات الكرملين يمكن أن تكون مكلفة.

في الحرب الثانية لم تتحكم الدولة بكامل التغطية الإعلامية ولكن تحركها من صفر٪ في الحرب الأول إلى ٩٠٪ في الحرب الثانية دلل على نجاح استراتيجيات التحكم غير المباشر الذي آمن بها بوتين وكانت أولى تجلياتها في الحرب الشيشانية الثانية.

نعم قابلت وسائل الإعلام الروسية بعض القادة الشيشان ونقلت وجهة نظرهم دون أن يتطرف صوتها في معارضة الحملة العسكرية، بل وأدركت أنها لن تتحقق نصراً سريعاً على الخبراء الاستراتيجيين الذين يملئون قنوات التليفزيون الأكثر متابعة من قبل الجمهور الروسي والمؤيدين لكل خطوات الدولة في الحرب على الشيشان.

تغطية صراعات شمال القوقاز:

وفي دراسة صدرت في لندن بتمويل من المكتب البريطاني للكومنولث وأجراها الباحثان توبى ماندل مدير برنامج القانون بالمطبوعة المسماة (المادة ١٩)، ونتاليا ميرمانوفا مستشار الإعلام وحل الصراعات، أبرزت النتائج أن المعلومات عن صراعات شمال القوقاز سواء في روسيا أو في المنطقة بأسرها كانت محدودة وذات وجهة نظر واحدة مسيّسة، فالأخبار عن شمال القوقاز

غالباً ما ترتبط بمصطلحات مثل (الهجمات الإرهابية) و(العمليات المكافحة للإرهاب).

وتحديدا فإن السلطات الروسية حجبت كل الأصوات المخالفة في الشيشان وجمهوريات الاتحاد الروسي الإسلامية مثل داغستان وتتارستان، مؤكدة بذلك على الرواية الرسمية للأحداث التي يمكن للجماهير الروس الوصول إليها، بينما منعت البيئة المقيدة في الشيشان واعتبارات الأمن ظهور أي أصوات بديلة، وفي سياق معقد اقتصادياً واجتماعيا يزيده تعقيدا أحداث العنف والصراع العرقي والاعتداء على الحقوق والحريات، فقد ساهم كل ذلك في اتجاهات معادية منتشرة ضد الشيشان مرتبطة بمشاعر ضد الأعراق القوقازية وضد الأجانب عموماً.

وقد ساعد ذلك أيضاً على إضفاء الشرعية على الجهود العسكرية الروسية في المنطقة مانعة تغطية القضايا الخلافية مثل انتهاكات حقوق الإنسان التي يرتكبها الجيش الروسي في شمال القوقاز والنتيجة أن الجمهور الروسي عامة لا يستطيع المشاركة والنقاش حول مسئولية السلطات عن الأحداث.

ومنذ سنوات العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، عادت التغطية الإعلامية للشيشان إلى الهدوء، وتزداد فقط تغطية أحداث الجمهوريات المجاورة لروسيا في أوقات تصاعد العنف، وساعد عليه غياب قيود السفر للصحفيين في تغطية شئون الجمهوريات الأخرى القوقازية غير الشيشان.

وهذا لا يمكن فهمه إلا في سياق قمع وسائل الإعلام في روسيا، فالميديا الروسية بفعل ضغوط السلطات صنعت إجماعاً حول السياسات الروسية، ففي روسيا حيث مهنة الصحافة مهنة خطرة يتعرض المشتغلون بها للقتل والتحرش والتقاضي والاعتقال، لم يبرز إلا الصوت الرسمي فضلاً عن ثقافة الامتثال والخضوع السائدة في الوسط الإعلامي الروسي التي تم إيضاحها في الفصول السابقة.

بالإضافة لذلك، فقد تحولت البرامج السياسية إلى برامج دعائية خاصة في قنوات التليفزيون الاتحادية، وشاعت برامج الترفية وبرامج تليفزيون الواقع التي استحوذت على اهتمام الجماهير، هذا في الوقت الذي أبدت فيه وسائل الإعلام المكتوبة (الصحافة) مقاومة من نوع ما وتحليلا متعدد الجوانب لا يمكن أن تراه في وسائل الإعلام الأخرى ولكن يبقى تأثيرها محدودًا للغاية.

فضلاً عن ذلك، فإن الضغوط التي تعرض لها صحفيو شمال القوقاز منعت التغطية المحايدة المستقلة، وتتمثل الضغوط في التلقين الحماسي للمحررين، رفع قضايا السب والقذف وتشويه السمعة على الصحفيين، سحب الرخص للجرائد وقنوات التليفزيون المحلية، التهديد المباشر بالإيذاء أو القتل، مما أدى لانتشار الرقابة الذاتية وغياب التغطية الاستقصائية.

فوق ذلك، فإن الأحوال المتداعية للاقتصاد في شمال القوقاز ونقص التمويل جعل من أي وسيلة قوقازية وسيلة ضعيفة معتمدة على مصادر التمويل الرسمية، وحتى عوائد الإعلانات كمصدر للدخل غابت في ظل تداعي الاقتصاد وضغوط السلطات، وانهيار البنية الأساسية نتيجة الصراع وعدم الاستقرار، ويأتي المستوى المنخفض للأداء المهني الصحفي المحلي عاملا أخر في ظل غياب التأهيل والتدريب الجيدين وغياب الوعي بالقانون وحقوق الإنسان.

وقد أسفر تحليل المضمون الذي أجراه هذا المركز البحثي عن غياب التعددية، فالأطر السائد عن شمال القوقاز هي أطر التطرف والجريمة في وسائل الإعلام الموالية معظمها للدولة وسياستها، على حين ظهرت الأصوات المعارضة الخافتة في صحف مثل: نوفايا جازيتا، وكومرسانت منتقدة سياسات الدولة حيال شمال القوقاز مقدمة لأحداث انتهاك حقوق الإنسان في تلك الجهات من قبل مؤسسات تطبيق القانون العسكرية: الشرطة والجيش والمخابرات.

وتوصلت الدراسة لنتيجة أخرى مفادها غياب المصادر المختلفة، المصادر المتاحة فقط هي المصادر الرسمية، وحدها بعض الصحف المعارضة المشار لها سابقاً توصلت لمصادر مختلفة أغلبها مجهل لا يعلن عن نفسه حتى لا يتعرض للإيذاء، تصدرت المصادر الرسمية من موسكو المشهد الإعلامي على

حين غابت المصادر التي لا تجرؤ على الكلام، وقد ساعدت ترسانة القوانين المكافحة للتطرف والإرهاب وتعديلاتها على غياب أي صوت بديل خاصة هؤلاء المغضوب عليهم من منظمات حقوقية غير حكومية والتي أجبرت على الإعلان عن نفسها تحت اسم (عميل/وكيل خارجي).

فقط تبقي بعض مواقع الانترنت وبعض الصحف مقدمة الشذرات البديلة ولكن وزنها في التأثير في الجماهير العريضة جد قليل، إذ أن عددا قليلا جدا من الروس من لديه معلومات شاملة عن الصراع، ورأيهم غير مطلوب على الإطلاق بما يمنع آفاق إيجاد حلول الصراع.

ولم تملك الدراسة إلا التوصية بأن تستجيب السلطات الروسية لقواعد القانون الدولي ومسئولياته، وتحجم من حجبها للمعلومات عن الصراع إذ أن هناك علاقة بين كبت التعبير والعنف المحتمل، وانتقدت الدراسة التطبيق الانتقائي لقوانين مكافحة التطرف لحجب المعلومات وطالبت بإلغائها فضلا عن توصيتها بتدريب صحفيي شمال القوقاز على التغطية الاستقصائية المهنية التي يمكن أن تصنع فارقًا.

وصدق من قال أن هذه الدراسات لا تجد أذنا صاغية إلا في الغرب، في حين تضحك منها السلطات الروسية التي تنزع بدورها المصداقية عن وسائل الإعلام الغربية وتتهمها بالتحيز والنفاق.

ثانيا: تغطية الحرب الأهلية في سوريا

مؤسسة سوريا للبحث والتقييم هو مركز مستقل مقره في غازي عينتاب بتركيا، ويضم فريق بحثه باحثين سوريين وأكراد وأتراك وأمريكيين الذين قضوا وقتا كبيرا في العمل في سوريا والشرق الأوسط، و يجيد الباحثون اللغات المحلية مكرسين جل عملهم للتحليل الموضوعي للأحداث في سوريا وفي البلدان التي بها جاليات سورية في دول مجاورة. ويقدم المركز البحثي خدمات المتابعة والتقييم ودراسات جدوى، وتبلغ خبرة باحثي المركز ١٠ سنوات من العمل في أفغانستان وباكستان والعراق وسوريا ومصر وتركيا.

وقد انفردت المؤسسة التي تمولها الحكومة التركية بإجراء دراسة عن تغطية الإعلام الروسي للصراع على السلطة في سوريا، البلد الذي يحتفظ نظامه السياسي بعلاقات وثيقة مع موسكو حتى الآن.

فقد لعب الاتحاد الروسي دورًا محوريا في الصراع السوري وساعدت مناوراته الدبلوماسية على بقاء نظام الأسد في سدة الحكم بعد ٣ سنوات من الصراع المسلح، وتطلب وضع روسيا الاستراتيجي كفاعل في الصراع السوري فضلا عن أهميتها الجيو- سياسية الكبرى فهماً أفضل في العالم الغربي خاصة الفهم المتعلق بكيفية تغطية النزاعات الدولية في وسائل الإعلام الروسية.

ولتحقيق هذا الهدف، تقدم الدراسة تحليلا للتغطية الإعلامية الروسية للصراع الروسي من أكتوبر ٢٠١٣ إلى نهاية مارس ٢٠١٤، وتم استخدام وسائل التحليل الكمي والكيفي للتعرف على الأفكار السائدة المتداولة في الإعلام الروسي واتجاهاتها وطرق عرض هذه الأفكار، فيما كانت هذه القوالب يجري ربطها بسياق نشر الأخبار في روسيا الحالية وكيف يؤثر الوضع السياسي على اتجاهات الأخبار ويتأثر بها.

ورصدت الدراسة صورة الصراع السوري وأطرافه في ١١٩ قصة خبرية نشرت في وسائل الإعلام المطبوعة والالكترونية والراديو والتليفزيون من خلفيات أيديولوجية عدة وبلغ عدد وسائل الإعلام المدروسة ٣٩ وسيلة إعلامية معظمها كانت متعاطفة ومرتبطة بالدولة الروسية، ثم تأتي الوسائل المعتدلة الوسطية وأخيرا الوسائل الناقدة للدولة الروسية.

واختيرت الفترة الزمنية السابقة لأنها تضمنت عدة تطورات في الدور الروسي في الصراع، وكذلك شهدت الإعداد لمؤتمر جنيف ٢ للسلام وكذلك الصراع في شبه جزيرة القرم.

وعكست نتائج الدراسة بشكل كبير بيئة الإعلام الروسي الموالي في أغلبه للدولة الروسية في تبني أطروحاتها بشأن الصراع والدفاع عنها، أو على الأقل الامتناع عن معارضتها بشكل واضح. وأظهرت تغطية سوريا في الإعلام الروسي أن السياسات الروسية نادرا ما يتم نقدها، وعلى العكس خرج عدد

قليل من المطبوعات عن خطاب الدولة (أبرزهم صحيفة نوفايا جازيتا) فمعظم التقارير ساندت بقوة الجهود العسكرية والدبلوماسية الروسية وهاجمت بوضوح فرقاء الصراع ما عدا الفصيل الحاكم.

وبينما كانت التغطية الإعلامية في الأغلب لا مبالغة فيها ولا إشعال للصراع المسلح، إلا أن الإعلام أبرز تعاطفه مع نظام الأسد ووقوفه ضد بقية الفرقاء بأساليب حاذقة مثل: استخدام أساليب الحذف والإضافة، أو الحضور/ الغياب، تسمية السياسات بلغة محبذة إن كانت للأسد ونظامه ولغة منفرة إن كانت لبقية فضائل الصراع، وينطبق هذا على القوى الفاعلة في الأحداث التي تم تأطيرها بشكل بالغ السلبية إن كانت في غير صالح الدولة الروسية، وبرز معلقون حكوميون على الأحداث مثل (سيرجي لافاروف) على حين غابت بشكل عمدي الرؤى المعارضة أو البديلة لرؤى الدولة.

بل أن الوسائل الضئيلة ذات الأصوات المعارضة في روسيا (نوفايا جازيتا، راديو موسكوفي) لم تعارض سياسة الدولة على طول الخط، بل اتفقت معها في أغلب ما تراه بشأن الصراع ربما لتأثير الرقابة الذاتية أو إظهار عدم معارضتها للدولة في الشئون الخارجية.

ومن المعروف أن الرأي العام الروسي لا يؤثر كثيرا على وسائل إعلامه ولذا يبقى الربط بين رؤى الإعلام ورؤى الرأي العام الروسي غير واضح، وهو الأمر الذي له تداعياته بشأن أي صراع تنخرط فيه روسيا دوليا.

وتشير نتائج الدراسة أن معالجة الولايات المتحدة في التغطية (أو الغرب بصفة عامة) أظهرتها كشريك دولي ضروري في الدبلوماسية فيما كانت تتعرض لبعض النقد أحيانا إلا أنه في كل الأحوال لم تتطور التغطية لاتجاهات ضد أمريكية فيما أظهرت النتائج أن وسائل الإعلام قدمت روسيا على أنها شريك متعاون ومتفهم ووسيط رائع في الصراعات الدولية.

وبالنسبة لموضوع الأقليات العرقية والدينية، تم تصوير الأمر على أنه مشكل في الصراع السوري وكثيرا ما تم الإشارة إلى كيفية تعامل الدولة الروسية نفسها مع أقلياتها الإثنية والدينية بشكل فيه بعض الإثارة وكثير

من التحذير، إذ لعبت التغطية على استخدام استمالات الخوف من تفكك سوريا والذي يخدم العدو التقليدي إسرائيل.

ثالثا: الحرب في أوكرانيا والقرم

١ـ الدعاية في الحرب في أوكرانيا:

بعض الأساليب التي تم استخدامها في هذه الحرب كانت تقليدية مثل استخدام المعلومات المغلوطة (الكذب)، وأنصاف الحقائق، وإطلاق الصفات والأحكام على أطراف الصراع ولكن المعركة أيضاً شهدت استخدام تشكيلة مذهلة من الأسلحة المعلوماتية الحديثة تتضمن الإعلام الإلكتروني والمدونات ووسائل التواصل الاجتماعي.

فعلى حد قول ديمتري كيزلييف المذيع والذي يرأس وكالة المعلومات الحكومية الجديدة (روسيا اليوم): «قديما كانت المعركة تشهد تمهيداً نيرانياً بالمدفعية، أما الآن تحتاج المعركة إلى تمهيد معلوماتي بالإعلام قبل الهجوم».

وكل الجهات تقريباً استخدمت الدعاية: أوكرانيا، روسيا، الولايات المتحدة ودول غربية أخرى، ولكن بالنسبة لموسكو فإن الحرب في أوكرانيا سارعت بإيقاع التغير العميق في الإعلام الروسي نحو تركيز مصادر المعلومات في يد الحكومة/ الدولة وتعبئتها من أجل المعركة، ووضعت وسائل إعلامية نفسها تحت إمرة بوتين والكرملين لإشعال الرأي العام في روسيا وفي المنطقة بأسرها، والتأكيد على السياسات الروسية ورؤاها وقيمها على المستوى العالمي.

نجح فلاديمير بوتين في الاستحواذ على المشهد الإعلامي في روسيا وأجزاء من أوكرانيا ومد بصره بمساعدة الكرملين إلى الجمهور العالمي الأوسع وأعاد بناء ماكينة الدعاية الإعلامية التي انهارت مع الاتحاد السوفيتي السابق قبل عقدين من الزمان.

وهو يحسن من رسالته عبر التشكيك في القيم الغربية ومهاجمة ما يسميه النفاق الأخلاقي الأمريكي والأوروبي معرفاً روسيا على أنها قوة عالمية غير غربية لها قيمها الخاصة مؤكداً أن المنافسة السياسية والعسكرية وكذا الاقتصادية والمعلوماتية لم تنته من العالم وهناك مراكز دولية تنظر إلى قوة روسيا بقلق واهتمام.

وبالنسبة لرئيس الدعاية الروسي (ديمتري كيزلييف) فإن المعركة قد تم كسبها بتبديل الأدوار، فروسيا تدعم حرية المعلومات على حين يهدمها الغرب.

٢ـ الإستراتيجية الخفية:

الكذبة الأولى ظهرت في نهاية فبراير ٢٠١٤ عندما قام رجال في ملابس عسكرية خضراء مموهة يحملون الأسلحة باحتلال معظم المواضع في شبة جزيرة القرم، هذا الجزء من أوكرانيا الذي يعيش فيه أقلية تتحدث الروسية، وعلى الرغم من أن كل المؤشرات كانت تقول أن هؤلاء الرجال هم من الجيش الروسي فقد أنكر فلاديمير بوتين ذلك في مؤتمر صحفي في ٤ مارس قائلاً: إن المناطق ما بعد السوفيتية مليئة بهذا الزي وأي جهة يمكن أن تشتريها.

وفي اليوم الثاني ردت الخارجية الأمريكية اللطمة على بوتين وصرحت أن العالم لم يشهد رواية روسية مذهلة كهذه منذ أن كتب الأديب الروسي ديستوفسكي: أن «عبارة ٢×٢=٥ لها جاذبيها لدى بعض الناس».

وأكدت الخارجية أن هذه الوحدات العسكرية روسية فهم يقودون مركبات عسكرية ذات لوحات تابعة للجيش الروسي، وعندما تم استجوابهم من قبل وسائل الإعلام والقوات المسلحة الأوكرانية قال الجنود أنهم روس ولكن الأهم أنهم كانوا مسلحين بأسلحة حديثة لا يمكن أن يمتلكها مدنيون أما المسئولون فقد واصلوا الكذب بثبات عندما صرح وزير الدفاع الروسي أن هذه التقارير ما هي إلا هراء.

ووصل الحال في فضاء المدونات لذرى مذهلة عندما قام المحررون الغربيون بنشر تغريدات على (توتير) لصور لوحات السيارات الروسية في الوقت الذي أشار فيه المدونون الأوكرانيون لهم على أنهم (رجال خضر صغار) أما المدونون الموالون لروسيا فقد استخدموا الإفيه/ العبارة الجاذبة (الرجال المهذبون) عندما نشروا كيف يتصرف هؤلاء الجنود المدججون بالسلاح بود مع أطفال أوكرانيين صغار.

وفي إبريل وفي مؤتمر صحفي لبوتين في مناسبة الاستدعاء السنوي للجنود الروس كشف على الحقيقة معترفاً بأن الجنود في القرم هم من الروس وهم هناك لدعم وحماية حياة الأقلية الروسية في القرم.

وهذه القصة التي تحمل طباع حياة أو موت (حماية الروس والمتحدثون بالروسية من الأعمال العدوانية الذي يرتكبها الفاشيون في القرم) كانت القصة التي عني الكرملين بتسويقها محلياً وعالمياً لتبرير غزوه للقرم، تلك القصة التي كانت تذاع في قنوات التليفزيون الروسي على مدار الساعة، تلك القنوات التي تصل إلى الجمهور الأوكراني في جنوب وشرق البلاد في المناطق التي تتحدث الروسية والتي تعتبر فيها قنوات: فيستي، روسيا ٢٤، القناة الأولى، RTR، NTV Mir باقات معتادة المشاهدة لهذا الجمهور.

وقد قامت الحكومة الأوكرانية الجديدة بسرعة بمنع بث هذه القنوات الروسية في أوكرانيا عندما قامت روسيا بمنع بث القنوات الأوكرانية من القرم، ولكن لأن هذه الحرب الإعلامية هامة لموسكو، فإن الانفراد بقصة وحيدة لا يتشكك فيها أحد كان أمراً حيوياً، ولذا ففي مدن عدة من شرق وجنوب أوكرانيا كانت المهمة الأولى للقوات الموالية لروسيا هي السيطرة على أبراج التليفزيون.

وفي تقرير لصحيفة (وول ستريت): وصفت الصحيفة ذلك بالجهود السرية لضباط المخابرات الروسية الذي قاموا بمصاحبة الفنيين في احتلال برج التليفزيون في مدينة (سلافيانسك) الأوكرانية وقام هؤلاء الفنيون بوضع إشارات القنوات الروسية بدلاً من الأوكرانية.

وقدمت هذه القنوات الروسية للمشاهدين عالماً موازياً فيه «أزمة إنسانية» بشعة، إذ تتعرض الأقلية التي تتحدث الروسية في القرم لهجوم الأوكرانيين المتطرفين، والنتيجة أن مئات الآلاف من الروس يفرون بحياتهم هرباً من القتل وأعمال السلب والنهب، ووصفت القنوات الروسية المحتجون على الغزو في شوارع (كييف) العاصمة الأوكرانية بالمتطرفين القوميين وامتلأت القنوات الروسية بصور الصلبان المعقوفة والدماء نافخة في الذعر القديم الذي يعود إلى الحرب العالمية الثانية، قائلة أن الفاشية قد عادت من جديد.

وهاجمت الخارجية الأمريكية ما أسمته القصة الكاذبة والخطيرة التي اختلقتها موسكو، شارحة أن «آلة الدعاية الروسية مستمرة في الترويج لخطاب الكراهية والحض على العنف بخلق هذا التهديد الأوكراني المزعوم الذي لم يحدث أبداً وأننا لن نقف ساكتين و نحن نرى المعلومات الكاذبة التي يروجها المهيجون/ المحرضون الروس الذين ينشرون الذعر والقلاقل في شرق أوكرانيا».

وفي إبريل عندما سيطرت الجماعات الموالية لروسيا على مبنى حكومي في جنوب أوكرانيا وصف الرئيس بوتين المنطقة بأنها (روسيا الجديدة)، وهي تعبير قديم تم استخدامه عندما احتلت روسيا القيصرية القرم قبل ٣٠٠ عام.

وشاركت وزيرة الخارجية الأمريكية السابقة هيلاري كلينتون في الحرب الكلامية ولطخت بوتين بعبارة (النزعة الإنضمامية/ ضم البلدان قسراً) مضيفه أن ذلك هو ما فعله هتلر في الثلاثينات من القرن الماضي عندما كان يتخذ من الأقليات ذات الأصل الألماني والمتحدثون بالألمانية ذريعة لضم مناطق من تشيكوسلوفاكيا ورومانيا بالقوة.

وفندت الأمم المتحدة الإدعاءات الروسية بأن هناك هجوماً على المتحدثين بالروسية في أوكرانيا في تقرير أعده مراقبيها لشئون حقوق الإنسان الذين حذروا من أن قصص كاذبة متطرفة يتم استغلالها لأغراض سياسية بينما لم تذكر وسائل الإعلام الروسية شيئاً عن حالات التحرش بأفراد من الأقلية الروسية الذين يؤيدون الرئيس الأوكراني يانكوفيتش، وعندما قطعت

القوات الروسية بث القنوات الأوكرانية واحتكرت المعلومات مروجة إشاعات لا أساس لها من الصحة عن قطارات مليئة بالمتطرفين المسلحين الذين يرغبون في تصفية الحسابات مع المتحدثين بالروسية في القرم.

وقامت عدة مواقع على الإنترنت موالية لـ(كييف) بخوض حربها الدعائية الخاصة بإنشاء مواقع تفضح الهجوم الدعائي الروسي الكاذب فتم إنشاء موقع باللغة الروسية اسمه (ضد الدعاية) الذي سرعان ما تم نشره على شبكة التواصل الاجتماعية الروسية (في كونتاكتي Vkontakte المناظرة للفيس بوك والذي كان يقدم نفسه بعبارة: «إنهم يقنعوننا ويلقّوننا ويفرضون علينا روايتهم، إنهم يتلاعبون بنا» واصفاً وسائل الإعلام الروسية.

وكانت مهمة الموقع (فصل الحقائق عن الدعاية) مستخدماً الوسائل البحثية للبريطاني روبرت كول في كتابه (الموسوعة الدولية للدعاية) مقدماً تقريراً يومياً عما تذيعه القنوات والصحف الروسية وفضح تكنيكات الدعاية في تقاريرها كما فعل في برنامج فستي على قناة روسيا ٢٤ مقدماً تحليل لكل جزء من البرنامج مبرزاً ما يتعلق بشيطنة العدو، الكذب، التبسيط المخل، تقديم الرأي على أنه حقيقة وهكذا.

والحق أن المشاهدين الروس كان لديهم الاستعداد لتقبل قصة الحكومة بأن النازيين هم وراء الانتفاضة الأوكرانية ضد روسيا فذكريات الحرب العالمية الثانية تثير عواطف وطنية قوية وتوصف عادة بأنها الحرب العظمى لاستعادة أرض الوطن ويعتبرها الروس أهم انتصار لروسيا في القرن الماضي بل في تاريخها الحديث كله.

وفي ديسمبر ٢٠١٤، قابل ديمتري كيزلييف الصحفيين العاملين بوكالة أنباء (رايا نوفوستي) بعد إعادة هيكلتها لتصبح جزءاً من الخدمة المعلوماتية الدولية (روسيا اليوم) أهم شبكة معلوماتية ومجموعة قنوات تدعمها الكرملين وتصرف عليها بسخاء من أجل كسب العقول في الخارج قائلاً: «لا يوجد شيء اسمه الموضوعية، هل بي بي سي موضوعية ؟!، هل سي إن إن موضوعية؟!، إنها أسطورة روجها الغرب لفرض رؤاهم علينا وحتى يشوهوا

بلدنا قيمة ويقدموه على أنه كائن دولي غريب» وأقول لكم: لقد مضى عهد الصحافة النائية بنفسها عن شئون الوطن مختتماً كلامه بالتحذير: إذا كنتم على استعداد للانخراط في أي نشاط يخالف خططي لهذه الوكالة، فإنني أقول لكم الآن: لن أسمح بذلك.

وقد وصف كيزلييف تطوره الشخصي الداخلي كصحفي قائلاً أن ذلك ليس لأنني أساند بوتين على طول الخط، ولكني أفهم أن إعلامنا يختلف عن إعلام الغرب، لأن لنا تعريفاتنا الخاصة لما هو جيد وما هو سيء ومهمة الإعلاميين هي التأكيد على هذه القيم الروسية.

٣- جبهة الوطن:

بعد يومين من موافقة سكان القرم على الانضمام لروسيا، وقف فلاديمير بوتين على خشبة مسرح عملاقة في الميدان الأحمر محاطاً بفرق الموسيقى العسكرية في زيهم الأبيض الأنيق ونظر لبحر من الوجوه السعيدة قائلاً: بعد رحلة طويلة وغير عادية، عادت القرم وسيفاستبول إلى روسيا، إلى أحضان الوطن، وهتف الجميع المجد لروسيا فيما كانت تتدفق مشاعرهم الحارة أثناء عزف السلام الوطني الروسي الذي جمع بين موسيقى أيام الحقبة السوفيتية وكلمات ألفت في الحقبة بعد السوفيتية والتي ملأت الميدان: «من البحار الجنوبية إلى المناطق القطبية تمتد حقولنا وغاباتنا، نحن متميزون في العالم، ليس لنا نظير ولا شبيه، فهذه أرضنا الأم يحميها الرب».

وقامت كاميرات كل القنوات الروسية تقريباً التي نقلت الحدث بنقل صورة بانوراميه للحشود مركزة على الوجوه الشابة السعيدة المتألقة بالفرح ثم على العلم الروسي بنسره القيصري ذي الرأسين وألوانه البيضاء والحمراء والزرقاء الذي تألق في شاشة عملاقة تحمل عبارة (القرم في قلبي).

وعقب احتلال روسيا للقرم والتصويت على انضمامها للاتحاد الروسي ارتفعت شعبية الرئيس بوتين، وفي استطلاع لمركز (ليفادا) الروسي أعرب ٨٢٪ من الروس على موافقتهم على قيادة بوتين وقال ٥٨٪ منهم أن البلاد تخطو في الطريق الصحيح وهو ما اعتبرته صحيفة موسكو تايمز شيئاً لم يحدث قبل ٢٠ عاماً.

بعد انتهاء رئاسة بوتين الأولى في ٢٠٠٤، كان بوتين قد نجح في أن يجعل خيوط كل شبكات التليفزيون الروسية في يده متحكماً في سياستها التحريرية فيما شكلت هذه الشبكات شبكة موحدة عملاقة لتشكيل الرأي العام الروسي، نعم مازالت تتمتع بعض وسائل الإعلام بدرجة من الحرية التحريرية ولكن هذه الأصوات المستقلة المعارضة أحياناً لا تشكل تحدياً سياسياً لبوتين.

فيما أوضحت ماشا ليبمان الأستاذة بمعهد كارنيجي في موسكو أن الحكومة الروسية لم تخرس كل صوت معارض في الإعلام ولكن حرية التعبير المحدودة هذه تعمل كصمام أمان لإطلاق البخار المحبوس لدى هؤلاء الذين لا يساندون الوضع القائم، نعم هناك وسائل إعلام مازالت تعمل ولكنها كانت دائماً بموافقة وعناية الحكومة أو بالأحرى تحت رحمتها وقد استخدمت الحكومة هذه الرحمة بكل شكل درامي مؤثر.

٤ـ إعلام الإنترنت:

قام أحد أهم المواقع الإخبارية الروسية على الإنترنت Lenta.ru بنشر حوار صحفي مع عضو جماعة قومية أوكرانية واحتوت المقابلة على وضع رابط لموقع رئيس هذه الجماعة المدعو (ديمتري ياروش) التي وضعته الحكومة الروسية على قائمة المطلوبين كإرهابي.

وقامت الخدمة الفيدرالية لمراقبة الإعلام والاتصال وتكنولوجيا المعلومات (Roskomnadzor) بتحذير الموقع الإخباري بأنه يمكن مقاضاته بتهمة نشر التطرف بنشره للحوار الصحفي، وتم تغيير رئيسة تحريره (جالينا تيمشينكو) التي شغلت هذا المنصب لفترة طويلة وتم تعيين رئيساً أخر موالياً للكرملين.

وقد جاء النزاع في أوكرانيا فرصة طيبة لإعادة تفسير التشريعات المقيدة للإعلام بشكل مطاط، في الوقت الذي مرر البرلمان تشريعاً في فبراير ٢٠١٤ يسمح للحكومة بإغلاق أي موقع إلكتروني دون حكم قضائي إذا احتوى على معلومات متعلقة بالتطرف الذي تم تعريفه بشكل واسع بحيث

يمكن أن يكون أي شيء تطرفاً، والقانون وسيلة أو أداة حكومية نافعة لغلق أي شيء.

ونشر فريق التحرير لموقع Lenta.ru الإخباري خطاباً لمتابعيه يصرح: بأنه في العامين الماضيين تعرضت الصحافة الحرة في روسيا للتقييد، بعض المطبوعات يتحكم بها الكرملين مباشرة، والبعض الأخر من خلال وسطاء أو عملاء، وكثير من المحررين يخافون أن يفقدوا وظائفهم وبعض الوسائل تم إغلاقها والبعض سوف يتم إغلاقه في الشهور القادمة، والمشكلة أنه ليس فقط بأنه لن يوجد مكان لكي نعمل فيه، بل لن يوجد شيء لنقرأه.

وتعرض أهم موقع روسي للتواصل الاجتماعي Vkontakte للضغط أيضاً، فقد صرح مؤسسه ومديره السابق (بافيل ديوروف) بأن المخابرات الروسية FSB وريثة المخابرات السوفيتية KGB أمرته بإعطاء معلومات شخصية عن النشطاء المشتركين في المعارضة وفي (الانتفاضة) في كييف، وقد تم إقالته عقب رفضه الاستجابة.

وقد فر من روسيا في إبريل ٢٠١٤ قائلاً أن موقع Vkontakte قد أصبح تحت السيطرة الكاملة للرسميين الموالين للكرملين وهو ما رفضه الملاك الجدد قائلين أن ديوروف يحاول تسييس المسألة.

فيما تضيف أستاذة الإعلام (ماشا ليبمان) أن الحكومة الروسية طورت أدوات مختلفة للتحكم في الاتصال الإلكتروني عبر الإنترنت مثل إنشاء القوائم السوداء للإنترنت والقانون المناهض للقرصنة فيما ينتهز بوتين كل مناسبة يتحدث فيها لتذكير الجمهور الروسي أن الإنترنت مشروع للمخابرات المركزية الأمريكية وأن الخدمات الخاصة الروسية تقوم بحماية المعلومات السرية لهيئات الحكومة ووزارة الدفاع خاصة.

أصبحت الحكومة الروسية تراقب فضاء الانترنت عن كثب منذ أن أصبح وسيلة فعالة لإدارة النقاش العام وخلق المجال العام للروس لتداول ما يؤرقهم من القاعدة للقمة بشكل طبيعي وعضوي منذ تظاهرات ديسمبر ٢٠١١، وفي ٢٠١٤ قام البرلمان الروسي بتمرير قانون يجبر مواقع التواصل الاجتماعي

الروسية على الاحتفاظ بالخوادم العملاقة في روسيا وحفظ كل المعلومات عن مستخدميها لمدة ٦ شهور، فضلاً عن قانون أخر يجبر المدونات التي لها أكثر من ٣٠٠٠ زائر يومياً بتسجيل نفسها على أنها وسيلة إعلامية بتقديم أرقام الهواتف والعناوين، وفي الأمم المتحدة، تنتهز روسيا كل مناسبة متاحة للحث على التعاون الدولي في الجوانب القانونية للإنترنت.

٥ـ سحب المطر:

تليفزيون دوجد Dozhd TV الذي يعني بالروسية تليفزيون المطر هو قناة جذبت شباب المشاهدين من الطبقة الوسطى الناجحة في موسكو وتبث إرسالها على قمر صناعي خاص، وكذلك على قنوات الكابل وعبر الإنترنت، وتتضمن أخبارها نقداً للحكومة وتعطي جزءاً من وقتها للشخصيات المعارضة لبوتين مثل الناشط (إلكسي نفالني) وسبق أن نشرت عن إدعاءات بالفساد وانتهاك حقوق الإنسان أثناء الإعداد للألعاب الأولمبية الشتوية في سوتشي وعن الانتفاضة في أوكرانيا.

ولكن في يناير الماضي يبدو أن تليفزيون (دوجد) قد تجاوز الخط المسموح له، ففي الذكرى السبعين لفك حصار النازي عن مدينة لينينجراد، قامت القناة باستطلاع رأي المشاهدين عما إذا كانت الحكومة السوفيتية كان لزاماً عليها تسليم لينينجراد لتجنب إزهاق أرواح مئات الآلاف من الروس الذين راحوا ضحية حصار ألمانيا النازية في الحرب العالمية الثانية.

وقد أعتبر إثارة الموضوع نوعاً من الهرطقة الوطنية وأثيرت ضجة سياسية، واتهمت الحكومة القناة بخرقها المادة ٤٩ من قانون الإعلام الذي يحض على احترام القوانين والمصالح القانونية للمواطنين لأن مثل هذه الأسئلة يمكن تفسيرها على أنها إهانة للمحاربين القدماء ولسكان لينينجراد الذين بذلوا كل جهدهم لتحقيق النصر على المحتل النازي.

وقد اعتذر رئيس القناة (ميخائيل زيجار) علناً ولكن مديري شركات الكابل والأقمار الصناعية رفعوا القناة بسرعة ومنعوها من البث ليحرموها من ٨٠٪ من دخلها و٩٠٪ من مشاهديها، وصرحت مديرتها (ناتاليا سنديفا) بأن

القناة لديها شهر أخر لتبقى على قيد الحياة في الوقت الذي ظهر بوتين في إبريل على الشاشات الحكومية ليصرح أنه: يحاول إنقاذ القناة من أن تلفت الأنظار كثيراً وتثير حفيظة جهات التحكم الحكومي مضيفاً: إنها قناة شيقة لها مشاهدين شبان ولكنها ارتكبت أخطاء مهنية كبيرة وأهانت عدد كبير من المواطنين ولكن مديرتها اعترفت بهذه الأخطاء ونحن نحاول أن نجد حلاً للموقف.

وعقب تصريحات بوتين قام مدير شركة الكابل بالتصريح بأنه على استعداد للتفاوض لإعادة القناة ومنذ أن حل بوتين محل القناة في التوسط لما نالها على يديه انتشرت التصريحات بأن تدخل الرئيس في أي مشكلة كفيل بحلها بسرعة البرق.

٦- إسماع العالم رسالة موسكو:

يعتبر الكرملين أن من بين مهامه الأساسية التي يضطلع بها الآن هو أخذ رسالته تلك وإسماعها للعالم عبر القنوات ووسائل الإعلام الروسي الدولية بما فيها وكالات الأنباء.

وفي كل جمهوريات الاتحاد السوفيتي السابق تقريباً، توجد أقلية روسية أو تتحدث الروسية ذات نفوذ قوي في الإعلام في كازاخستان وتركمنستان وطاجيكستان وغيرها.

وللوصول إلى الجماهير في أوربا الغربية والعالم، بدأ الكرملين من ١٠ سنوات في إقامة عدد من الوسائل الإعلامية المنصرف عليها بسخاء لإسماع العالم رسالة روسيا والكرملين واستعادة صورة روسيا القوية بعد انهيار الاتحاد السوفيتي السابق، وكل المسئولين الروسي بما فيها بوتين دعوا إلى استخدام القوة الناعمة، والقوة الإقناعية للإعلام كجزء من ترسانة أسلحة السياسة الخارجية.

وقد عرف بوتين مفهومه الخاص للقوة الناعمة للدولة بأنه: "أداة جيو- سياسية تحت سيطرة الحكومة للتأثير في الآخرين»، وكان قد انتقد الاستخدام غير القانوني للقوة الناعمة من قبل الدول الغربية وعلى رأسهم

الولايات المتحدة التي تتدخل في شئون الدول المستقلة، وتزرع القلاقل في الدول المستقرة وتتلاعب بالرأي العام تحت ذريعة تمويل مشروعات حقوق الإنسان والدفاع عن الحقوق الثقافية للأقليات.

أما رسالة روسيا للعالم فقد وضعها رئيس فلاسفتها بوتين في مقال له عشية استلامه الرئاسة في ١٩٩٩ الذي حمل عنوان (روسيا في بداية الألفية الجديدة) بقوله: «روسيا كانت وستظل قوة عظمى، أنه شيء محكوم بصفاتها الجيو- سياسية والاقتصادية والثقافية الذي لا فرار منها، والتي تؤثر بدورها وتحكم عقلية الروس وحكومتهم خلال تاريخ روسيا، فتقاليد وقيم روسيا تتضمن الوطنية، والإيمان بعظمة روسيا يعني الإيمان بدولة قوية».

وفي مارس وعندما اقتحمت قواته القرم شدد في رسائله على مهاجمة الغرب في «معلقات» طويلة يذيعها الإعلام الروسي أغلبها هجاء ضد الغرب وسياساته وخاصة نفاقه، إذ من حق روسيا رفض القيم الغربية وتطوير قيمها الذاتية التي تحمل رؤيتها المغايرة للعالم بقوله: "إنهم دائماً ما يحاولون التضييق علينا في مخانق كثيرة لأن لنا موقفنا المستقل الذي نحافظ عليه"، وهو ما يردده بقية المسئولين الروس مثل ألكسندر سيمرنوف رئيس العلاقات العامة والإعلام بالكرملين بقوله: «إذا تكلمنا عن الديمقراطية فإنها أغلى سلعة في العالم أنتجتها الولايات المتحدة، أغلى من الكوكاكولا، وهي تستخدم للي ذراع أي دولة في العالم لا تشتريها بالمواصفات الأمريكية».

وأحد الأذرع الإعلامية الخارجية لآلة الدعاية الروسية هي قنوات روسيا اليوم التي تبث بالإنجليزية والعربية والأسبانية وترأسها مارجريتا سيمونيان المعروفة في الغرب بالطفل المدلل ذات الصوت الصريح التي دائما ما تصيح في وجه أمريكا المنافقة.

فبعد إنشاء شبكة القنوات في ٢٠٠٥ بفترة بسيطة، تحولت السياسة التحريرية للقناة من إظهار الحياة البرية والبحرية والجغرافية لروسيا الواسعة إلى بث نوع مغاير من نشرات الأخبار الحافلة بنظريات المؤامرات التي تدين السياسات القمعية للحكومة الأمريكية مستخدمة تكنيكاً سوفيتياً قديماً هو (وماذا عنهم؟!) كاشفة زيف الديمقراطية الغربية وقيمها المنافقة.

وقد استقالت إعلاميتين بارزتين من القناة الانجليزية RT عقب غزو روسيا للقرم فيما اعتبرته روسيا نوعاً من الحرب النفسية التي يشنها المحافظون الجدد في واشنطن عليها، وكل التكنيكات الدعائية لقنوات روسيا اليوم لم تجد إلا الهجوم من المسئولين الأمريكيين وعلى رأسهم وزير الخارجية جون كيري، وإن عبر بعضهم مثل نائب وزير الخارجية ريتشارد ستينجل عن إعجابه برجوع آلة الدعاية الروسية عقب الضعف الذي اعتراها قبل عقدين من الزمان بقوله: «لقد كنت مندهشاً وأنا أرى هذه القنوات الروسية المنظمة الحديثة بتقارير قنواتها المتقدمة التي تحاكي الإعلام الغربي».

٧ـ تطور قنوات (روسيا اليوم) إلى وكالة أنباء:

في ديسمبر ٢٠١٣، قبل شهر من الاحتجاجات في كييف، أذهل الرئيس الروسي فلاديمير بوتين دوائر الإعلام الروسي بقرارين مدهشين:

الأول: تصفية وكالة الأنباء الروسية (رايا نوفوستي) التي أنشئت عام ١٩٤١ كأداة للدعاية ضد النازية في الحرب العالمية الثانية في ظروف ثلاثة شهور وذلك مع راديو (صوت روسيا) الذي تم إنشاءه عام ١٩٢٩ نحن اسم (راديو كومنترن).

ونص القرار على إنشاء وكالة دولية للمعلومات والإعلام تحت اسم (روسيا اليوم) مهمتها الترويج لسياسة الدولة الروسية والحياة العامة في الاتحاد الروسي.

الثاني: هو تُعيين (ديمتري كيزلييف) رئيساً للوكالة الجديدة (روسيا اليوم) أما رئيسة RT السابقة مارجريتا سيمونيان فترجع للعمل كرئيس تحرير شبكة قنوات RT، وروسيا اليوم الجديدة لا يتم التعبير عنها بالاختصار RT الذي يقتصر على التليفزيون فقط، على أن تحل محل المواقع الالكترونية لوكالة (رايا نوفوستي) المواقع الالكترونية لراديو سبوتنيك.

وكان تعيين كيزلييف صدمة للإعلاميين الروس لأنه الشخصية الإعلامية الروسية ذات التعليقات الكارهة للغرب والولايات المتحدة والذي يذهل المشاهدين دائماً بتعليقاته العدائية المثيرة مثل: «روسيا هي الدولة

الوحيدة على وجه الأرض التي يمكن أن تحول الولايات المتحدة إلى رماد نووي مشع»، ومثل مهاجمته للقيم الغربية بقوله أن: «تغريم الشواذ جنسياً ليس كافياً، يجب أن يحرموا من التبرع بالدم أو المنيّ وفي حالة إصابتهم في حادث سيارة، يجب أن تحرق قلوبهم».

وعندما سخر موقع سي إن إن من صورة تمثال القوات الروسية في الحرب العالمية الثانية، رد كيزلييف بتصوير تمثال الجنود الأمريكيين أثناء تحرير جزيرة أو يجيما في نفس الحرب بمجموعة من الشواذ جنسياً يمارسون الجنس قائلاً: «السخرية ليس هناك أسهل منها، إنها كالحمى يمكن أن تصيب أي شيء وكل شيء».

أما عن (سيفتلانا ميريونوك) التي تعد من أقوى الشخصيات في الإعلام الروسي فقد حولت الوكالة السوفيتية القديمة (رايا نوفوستي) إلى وكالة رقمية متطورة تضم شبكة من مكاتب في ٤٥ دولة وتبث بـ١٤ لغة مختلفة.

وبعد سماعها قرار بوتين ـ الذي لم تبلغ به قبلا ـ جلست في مقر (رايا نوفوستي) في موسكو ناظرة إلى الصحفيين المصدومين والذين كان كثيراً منهم قد هرب من وسائل الإعلام الأخرى تحت ضغط الكرملين قائلة: «سوف نقوم بتصفية رايا نوفوستي أي تدميرها، ولكننا كموظفين حكوميين لن نناقش الأسباب أو دوافع الرئيس بوتين بل سنطيع الأوامر»، فيما علقت بعد ذلك قائلة: «أن القرار جاء في إطار سلسلة من الإجراءات لإحكام قبضة الدولة على الإعلام الروسي الذي يختنق أصلاً بكثير من القوانين».

ويتفق معظم المعلقين على أن رئيسة تحرير (رايا نوفوستي) السابقة كانت في مأزق صعب، فهي قد عينت عدداً من الصحفيين الليبراليين وحملت تقارير وكالتها صوراً للاحتجاجات في موسكو شتاء ٢٠١٢، والبعض اتهم تغطيتها لأحداث القرم بأنها كما لو كانت خاضعة للدعاية الغربية

أو كأن رئيسة التحرير السابقة هي شخصية معارضة مزروعة في الإعلام الموالي للكرملين، ولكن بشكل مهذب ومهني للغاية.

وكانت (ميريونوك) قد حظت باحترام كبير من الصحفيين المستقلين، وأعضاء المعارضة في موسكو وجماعات حقوق الإنسان في الوقت التي حظت فيه باحترام الكثير من رجال الكرملين المقربين لبوتين.

وبعد تدشين خدمة (روسيا اليوم) بالإسبانية علقت رئيس تحرير قنوات RT مارجريتا سيمونيان بأن وكالة (روسيا اليوم) ستأخذ اقترابا مختلفاً عن التيار السائد لوسائل الإعلام خاصة في الغرب الذين يتجاهلون مشكلات الديمقراطية والحرية في بلادهم وينتقدوها فقط في بلدان الآخرين خاصة روسيا.

الآن وقد حلت (روسيا اليوم) الجديدة محل (رايا نوفوستي) فلدى بوتين الوكالة الحديثة المتقدمة التي ستصل إلى أقصى الأرض بـ١٤ لغة و٤٥ مكتب موال له حول العالم دون أن تركز على الأخبار والتقارير الناقدة له، والتي ستروج لروسيا وقيمها المختلفة عن الغرب فاضحة نفاقه، ومركزة على الدعاية ضد الولايات المتحدة، أو كما قال رئيس الخدمة الإسبانية: «سوف نركز مع الوطنية والقومية وسنكون ضد الإمبريالية، سنؤسس الاحترام لسلطة الدولة في روسيا مركزين على قراءة التاريخ الروسي وحضارة روسيا المتفردة التي لا يمكن حصرها في كلمتين مثل الشرق أو الغرب».

٨ـ من نحن؟!

أكثر المهام حيوية التي يضطلع بها الإعلام الروسي الدولي هو إعادة تقديم روسيا للعالم أو إعادة تعريف روسيا ورغم أن الفكرة الوطنية أو القومية تبدو مشوشة في عيون المنظرين والأكاديميين الجادين وسط الفوضى السياسية واحتكار نخبة من السياسيين مع نخبة من رجال الأعمال للسلطة والثروة في البلاد، إلا أن الإعلام يحاول أن يركز على أوتار أو ثيمات بعينها.

يعيد الإعلام إحياء عناصر من الفترة القيصرية، ورموز من الحقبة السوفيتية مثل موسيقى السلام الوطني، ومفاهيم عامة للدولانية والوطنية، والتركيز على حضارة روسية كحضارة فريدة ليس لها نظير في العالم، ويتم وضع ذلك في صورة استعارات لغوية تحملها أقوال بوتين:

الوتر الأول: «القيم الغربية تركز على مفهوم النجاح الشخصي الفردي، ولكن قيمنا نحن الروس أقل برجماتية وربما أقل حكمة ولكن روحنا أوسع وهي تعكس اتساع بلادنا، أرواحنا أكثر كرماً».

الوتر الثاني: «روسيا محاطة بالأعداء، والسياسة التي تنتهجها الولايات المتحدة في توسيع حلف الناتو حتى حدود روسيا تؤكد ذلك في بولندا وفي بلدان البلطيق، لقد عادت سياسة احتواء روسيا من قبل القوى العظمى تلك التي حاولت طوال القرون الثامن عشر والتاسع عشر والعشرين تطبيقها».

الوتر الثالث: «أعداؤنا لا ينصاعون إلى القانون الدولي بل يتلاعبون به، إنهم يؤمنون بأنهم شيء متفوق وفريد وأنهم «شعب الله المختار» لدرجة أنه يمكن أن يقرروا مصير العالم، وأن الحق والصواب دائماً إلى جانبهم».

الوتر الرابع: «أعداؤنا يستغلون عبارات (التعددية الثقافية) و(التسامح) كحصان طروادة حتى يستطيعوا هدم روسيا وإضعافها، ولذا فإننا يجب أن نركز على ما يوحدنا كروس، يجب أن تظهر قيمنا التقليدية في المضامين الإعلامية وفي المدارس والجامعات وفي حياتنا الاجتماعية بل والجنسية، هناك كثير من الغربيين والأمريكيين معجبون بنا لأننا نحافظ على قيم الأسرة وقيم المسيحية».

وهو الأمر الذي يبدو للعيون الخارجية كما كان رجوعاً لإيديولوجية واحدة مثل أيام الاتحاد السوفيتي الشيوعية، ويعلق الخبراء أيضا بأن بوتين يعطي الغطاء الأيديولوجي للأنظمة الأوتوقراطية في العالم لتحدي النظام العالمي الذي تقوده الولايات المتحدة.

ورؤية بوتين القومية تلك هي رؤية متجذرة في الثقافة الروسية منذ الحقبة القيصرية لا سيما تلك المتعلقة باليهود ودورهم السلبي في الإعلام الروسي والحياة الروسية عامة، وكذا انحلال الحضارة الغربية الذي يهدد روسيا، ويمكن تتبع تلك الرؤية حتى الأديب الروسي الأشهر فيودور دوستويفسكي (١٨٢١-١٨٨١).

فاليهود ـ حسب رأي دوستويفسكي ـ يوجدون في كل مكان، فهم يوجدون داخل التشكيل الاستعماري الغربي ويهيمنون على الرأسمالية الغربية، وهم بطبيعة الحال موجودون في كل الحركات الاشتراكية والثورية والفوضوية والعدمية، وقد جعل اليهود همهم إفساد الشعب العضوي الروسي إذ كانوا يقومون ببيع الكحول لهم وبالشرب من عَرَقهم ودمهم. وحينما أُعتق الأقنان، انقض عليهم اليهود واستغلوهم واستفادوا من هفواتهم الإنسانية. وهم في استغلالهم للناس لا يتسمون بالرحمة، فاستغلالهم للأقنان لا يختلف كثيراً عن استغلالهم للزنوج في الولايات المتحدة بعد إعتاقهم.

ويرى دوستويفسكي أنه حتى لو أُعطيت لليهود حقوقهم كاملة، فإنهم لن يتنازلوا قط عن أن يكونوا دولة داخل دولة، وهم يفعلون ذلك لأن مصالحهم مستقلة عن مصالح المجتمعات التي يعيشون في كنفها بل إنه يرى أن هناك مؤامرة يهودية عالمية عبر التاريخ لخدمة المصالح اليهودية المستقلة وللدفاع عنها. (راجع اليهود مزدوجي الجنسية أمثال بوريس بيريزوفسكي وفلاديمير جوسينسكي الذين كانوا يسيطرون على الإعلام وإزاحة بوتين لهم).

وإذا كانت الروح اليهودية هي الروح النفعية المادية، فإن حلقات المؤامرة اليهودية أصبحت على وشك الاكتمال، كما أن حكم اليهود للعالم اقترب وهيمنتهم الكاملة أصبحت أمراً وشيكاً، وقد لخص دوستويفسكي المسألة كلها بقوله إن ثمة تناقضاً أساسياً بين الفكرة السلافية (الروحية المسيحية) والفكرة اليهودية (المادية العلمانية)، وصعود الفكرة اليهودية يعني تراجُع الفكرة السلافية، أي أن اليهودي هو الآخر الذي لابد من القضاء عليه.

ويمكننا الآن أن نطرح السؤال التالي: كيف يمكن أن يعتنق أديب إنساني مثل دوستويفسكي مثل هذه الآراء التي لا تختلف كثيراً عما ورد في بروتوكولات حكماء صهيون وكتاب هتلر كفاحي؟ لمحاولة تفسير هذه الظاهرة، يمكننا أن نشير إلى بعض الأسباب، بعضها خاص بدوستويفسكي ورؤيته للكون والبعض الآخر خاص بالمجتمع

الروسي ككل وبوضع اليهودية فيه وموقف الروس منهم، ولنبدأ برؤية دوستويفسكي للكون:

كان دوستويفسكي يرى أن روسيا قد تكون امتداداً لأوربا ولكنها في الوقت نفسه نقيضها. ورغم إيمانه بأن روسيا مدينة لأوربا إلا أنه يرى أن«المرحلة الأوربية» في تاريخ روسيا قد انتهت، وأن أوربا تمثل الماضي، بينما تمثل روسيا المستقبل، والغرب، من منظور دوستويفسكي، دمرته المادية والقيم الديمقراطية وضمور الحس الخلقي وظهور النفعية والتمركز حول الذات.

وكان دوستويفسكي يؤمن بالرسالة الأزلية لروسيا. فكل أمة، حسب وجهة نظره، لابد أن ترى أن خلاص العالم يكمن في خلاصها هي، وأن هدفها لابد أن يكون توحيد شعوب العالم كافة تحت قيادتها.

ومن أهم أفكار دوستويفسكي فكرة الشعب العضوي (بالروسية: نارود)، فالشعب الروسي، حسب رأيه، شعب مرتبط بأرض روسيا الأم يستمد منها الطهر والأصالة، وهو شعب لم تفسده الحضارة الغربية بعد ولم يسقط في القيم التي دمرت هذه الحضارة. وهذا لا يعني عدم وجود فساد في روسيا وإنما يعني أن الفلاح الروسي حينما يرتكب الخطيئة يعرف أنها خطيئة، فهو لم يفقد بعد مقدرته على التمييز بين الخير والشر (أي أن حسه الخلقي لم يتم تحييده تماماً).

وتشكل الكنيسة الأرثوذكسية (أطهر أشكال المسيحية) الإطار الديني لهذه الرؤية الكونية، كما تشكل الجامعة السلافية الإطار الحضاري أو العرْقي لها. ولذا، فإن مستقبل العالم منوط بإرادة النارود الروسي تحت رعاية الكنيسة الأرثوذكسية وبقيادة القيصر.

رابعا: صورة الاتحاد الأوروبي ودول الجوار في الإعلام الروسي

رصدت دراسة مهمة صورة الاتحاد الأوروبي في وسائل الإعلام الروسية خلال الحملات الانتخابية وطبقت الأساليب الكمية والكيفية على مصدرين رئيسيين للمعلومات: مجمع الأخبار Yandex.news وقاعدة بيانات الصحف الروسية المسماة Integrum.

وتعلق التحليل الكمي في هذه الدراسة بمدى تكرار كلمة (الاتحاد الأوروبي) والصيغة المختصرة له في اللغة الروسية في الصحف المطبوعة والإلكترونية بشكل يومي، وذلك في الفترة من ٥ نوفمبر ٢٠١١ إلى ٣١ مارس ٢٠١٢ وهي الفترة التي حوت كل من الانتخابات البرلمانية والرئاسية الروسية، وتعلق الجزء الكيفي برصد مدى إيجابية صورة الاتحاد الأوروبي في أكثر الجرائد الروسية اليومية والأسبوعية تأثيرا.

وكانت القضايا المتعلقة بتركيز الملكية في الاقتصاد الروسي هي أكثر القضايا التي ذكر في سياقها الاتحاد الأوروبي، ولما كانت مبيعات الغاز الروسية هي القضية الأكثر أهمية للإعلام الروسي فقد كان لهذا الإعلام اهتمام حقيقي بالأزمات المادية في الاتحاد الأوروبي خاصة في اليونان، وكانت الصحافة الروسية حساسة لأي تقارير تتعلق بعلاقة الاتحاد الأوروبي بأوكرانيا وروسيا البيضاء. وتنبأت الصحافة الروسية بانحلال الاتحاد الأوروبي وهو ما عزاه الباحثان إلى الذكريات المريرة لانحلال الاتحاد السوفيتي.

وانتهت الدراسة إلى أن الانتخابات البرلمانية والرئاسية لم تغير من إدراك الصحافة الروسية للاتحاد الأوروبي على العكس من خطاب الصحافة تجاه الولايات المتحدة الذي علت نبرة العدائية فيه، ولم تجتذب الخطابات السياسية للاتحاد الأوروبي الصحافة الروسية التي لا تعترف بأوروبا الموحدة كلاعب سياسي رئيسي دولي مقارنة بالولايات المتحدة.

لاتفيا العدو:

وفي دراسة عن صورة لاتفيا في الإعلام الروسي، أثبتت النتائج كثيرا من الشكوك التي تواجدت قبلها ولكنها حملت أيضاً بعضاً من المفاجآت بالنسبة

لدولة منطقة البلطيق (لاتفيا)، إذ صنعت وسائل الإعلام الروسية بشكل ممنهج صورة العدو ولكن ليس في كل الموضوعات الخاصة بها.

وكما كان متوقعا، أبرز القضايا التي تم تأطيرها بشكل سلبي ووضعت لاتفيا في صورة العدو هي طريقة معاملة لاتفيا للمتحدثين باللغة الروسية، نظرتها إلى التاريخ وانضمام لاتفيا إلى حلف (الناتو)، ولكن تم تأطير بعض القضايا الثقافية والاقتصادية بشكل إيجابي وفي السنوات

الأخيرة بدأ اهتمام الإعلام الروسي ينخفض بجمهورية لاتفيا عموما.

تعتبر الأقلية الروسية في لاتفيا هي التيمة الاساسية التي تطغى على بقية التيمات أو الأفكار السائدة وتخدم الانتقادات التي تطال لاتفيا واستونيا حول معاملتهم للأقليات الروس عدة أغراض منها: العمل كورقة ضغط على لاتفيا والاتحاد الأوروبي وهي قضية يسهل على النخب الروسية الموافقة عليها، وتخدم أغراض بوتين وميدفديف في صناعة الإجماع الوطني، وتشيطن (لاتفيا) وتساهم في توحيد الروس.

وفي عيون الصحفيين الروس، فإن لاتفيا ليست فقط تنتهك حقوق الأقليات المتحدثة بالروسية ولكن تحصرهم في وضعية مهينة معتبرة إياهم ليسوا مواطنين خاصة في سياستها المتعلقة بإعادة هيكلة تعليم الأقليات ومحاكمة مسئولي المخابرات الروسية السابقين وعائلتهم بما يهدد وضعهم في لاتفيا كما يتم تصويرهم على أنهم جماعة واحدة ضد الحكومة اللاتفية، ووسائل الإعلام الروسية تساندهم على طول الخط.

يتم تصوير لاتفيا على أنها تهاجم روسيا ورؤيتها للتاريخ، فهي تدعي حقها في بعض الأراضي الروسية وتشوه التاريخ خاصة عملية (تحرير) لاتفيا بضمها إلى روسيا وتخليصها من النازيين في الحرب العالمية الثانية، بينما يتم تصوير استقلال لاتفيا على أنه خطأ تاريخي، ويدّعون على اللاتفيين أن دوافعهم للأسف انتقامية من الروس الذين حرروهم.

ويتم تصوير قرار انضمام لاتفيا للناتو على أنه قرار لا تستطيع لاتفيا أن تقابل تبعاته الاقتصادية فضلا عن تصويرها كجبهة متقدمة للولايات المتحدة تهدد روسيا، واللاتفيين على استعداد دائم للتعاون مع الغربيين ضد روسيا ومصالحها.

فيما كانت القضايا الثقافية والاقتصادية تقدم في قالب أكثر موضوعية وحيادية وأحياناً إيجابية بتذكر الأسماء اللاتفية التي لمعت في الحقبة السوفيتية كالمغنيين وعازفي البيانو والممثلين، وفيما تشير الصحافة الروسية للأسماء اللامعة الحالية في المسرح والغناء اللاتفي التي يحبها الروس،

ينعون على اللاتفيين عدم اهتمامهم بالثقافة الروسية الثرية، وكذلك يتم تصوير النظام البنكي اللاتفي وشركات الغاز الطبيعي بشكل إيجابي إذا حققت المصالح الروسية.

وفي السنوات الأخيرة خفت نغمة العداء للاتفيا، بينما تصاعدت أكثر ضد جورجيا وأوكرانيا عندما سخنت الأحداث هناك.

خامسا: لا للاتجاهات الجنسية الشاذة في روسيا

تناقش دراسة حديثة مهمة تغطية وسائل الإعلام الروسية التي تمثل التيار السائد للتشريع الذي صدر عام ٢٠١٣ بمنع الدعاية للاتجاهات الجنسية غير التقليدية، يطبق المقال نظريات الانتماء والهوية ومدى ظهور القضايا في وسائل الإعلام حتى يبين أن وسائل الإعلام تبنت خطاباً سائداً يمثل/ يصور الاتجاهات الجنسية الشاذة على أنها تهديد لبقاء الأمة الروسية إذ تمثل فرض للقيم الجنسية الراديكالية للأقلية على الأغلبية، فضلاً عن ارتباطها بخطاب الغرب الاستعماري الذي يبغي تدمير روسيا.

يرى إميل بيرسون باحث العلوم السياسية بجامعة لوند بالسويد أن صراعات الهوية الجنسية في روسيا تبني بشكل متزايد تبعاً لمنطق «إلى أي مدى هي مرئية وظاهرة في وسائل الإعلام؟»، فالموضوع الذي يناقش يمثل تهديداً والذي لا يظهر لا يمثل تهديداً بنفس القدر، وهو الأمر الذي يعد جزءاً لا يتجزأ من الثقافة السائدة في روسيا المتعمدة على الخفاء وازدواجية الخطاب بين المجالين العام والخاص، والتشريع الصادر بحق الشواذ هو جزء من الهوية الظاهرة التي يجري التأكيد عليها وهي جزء من شخصية الزعيم بوتين الذكورية الكارزمية.

وقد بدأ الاهتمام يتزايد بالاتجاهات الجنسية الشاذة في روسيا مع المسيرات السنوية في موسكو منذ ٢٠٠٦، والتي حظيت تغطيتها من قبل وسائل الإعلام بعاصفة من ردود الأفعال خاصة المعارضة والتي تمثل تحالفاً ما بين القوميين والشيوعيين وحزب بوتين الحاكم (روسيا الموحدة)، ومنظمات الآباء والكنيسة الأرثوذكسية والتي جعلت من الخطاب المناهض للشواذ هو المعيار السائد في الفضاء الروسي العام.

واعتمدت الدراسة على التحليل الكيفي لخطاب الصحف وقنوات التليفزيون الإخباري حيال (قانون منع الدعاية للشواذ) في الفترة من يناير-يونيو ٢٠١٣ وشملت صحف (روسيسكايا جازيتا)، (كومسومولسكايا برافدا)، وقنوات Channel 1 وخاصة برنامجها الإخباري اليومي Vermaya وهي الصحف وقناة التليفزيون المعروفة بتوجهها المناصر للرئيس بوتين وللكرملين.

ويكشف التحليل التاريخي كيف لعب التحكم في النواحي الجنسية في روسيا دوراً رمزياً في تكون الثقافة ومن ثم الهوية.

كان أول منع للممارسات الشاذة على يد القيصر بطرس الأكبر للتحكم في القوات المسلحة وقد تم إلغاؤه على يد البلاشفة في ١٩١٧ كجزء من جهودهم للتخلص من الأخلاقيات البورجوازية القديمة ثم أعيد منع هذه الاتجاهات أيام ستالين عام ١٩٣٤ خوفا من أن تحوي الشبكات الخفية للشواذ خلايا غربية للتجسس والتخريب، ثم ألغيت مرة أخرى عام ١٩٩٣ لمساعدة روسيا على التقرب من الاتحاد الأوروبي.

وكما تقدم، كانت هناك علاقة بين التحكم في الانحراف الجنسي وبين التحديث والتغريب، وكلا من القوانين المشجعة والمانعة تم تقديمها في سياق علاقة روسيا بالتحديث الغربي، ولعل من النقاط الهامة هو أن زيادة الحضور العام للاتجاهات الشاذة في أواسط العقد الأول من القرن الحادي والعشرين قد صاحبه خطاب قوي ضد الغرب والذي لعب دوراً في منعها الأخير.

وكان منع الدعاية للاتجاهات الجنسية غير السوية في عام ٢٠١٣ حدثاً إعلامياً بارزاً أو «فرجة» بتعبير الدراسات الثقافية، ولا يمكن فهمه دون الحضور السابق لهذه الاتجاهات في وسائل الإعلام.

وبهذا المعنى، يعد القانون منعاً للمضامين الإعلامية المحبذة للاتجاهات الشاذة ورد فعل على هذا الحضور الإعلامي للشواذ في الميديا الروسية.

وكان رد الفعل الذي جعل هؤلاء (كبش فداء) ووصمهم بالعار محركاً للحملة الإعلامية ضدهم وأكثر تأثيراً من أي غرامات مالية تم فرضها عليهم

في القانون، وهذه الصراعات الخطابية هي مادة شديدة الأهمية في رصد بيئة الإعلام الروسي وسياسات الهوية.

وأكدت الدراسة أن تحليل الخطاب الإعلامي لهذه القضية انقسم لثلاثة أقسام تبعاً للحبكة القصصية والدرامية التي تم استخدامها: ١ـ الشواذ يمثلون تهديدا لمستقبل الأمة الروسية، ٢ـ يفرضون معاييرهم المتطرفة على الأغلبية وهم أقلية، ٣ـ هم عرض على الفشل الذي اعترى التحديث الغربي، وروسيا يمكن أن تقدم بديلاً عنه .

كانت الآليات التي جعلت خطاب الشواذ "حاضراً" في وسائل الإعلام متفاعلة بين الإعلام البديل على الإنترنت وفعاليات الشارع الروسي والميديا التي تمثل التيار السائد.

وتمخض عن ذلك أن المواطن الروسي العادي أصبح متعرضاً لنوع من نمط الحياة لم يره قبل ذلك، وبسبب أن الشواذ الروس لا يعترفون بهويتهم حتى للأسرة والزملاء والأصدقاء كان ظهور هؤلاء بفعل انتشار وسائل الإعلام وتدخلها في الشأن الخاص صدمة للمواطن الروسي العادي.

ولم تعط وسائل الإعلام الروسية الفرصة لهذا المواطن الروسي ليستوعب ما يراه، بل سريعاً «وضعت إطارا» لهؤلاء الشواذ في صورة: الخطر على الأمة، التعدي على حريات الأغلبية، وحصان طروادة الذي جاء من الغرب حاملاً التدمير لروسيا، ولم ينظر أبداً للأمر على أنه اعتداء على حقوق الإنسان بل حماية للوطن من الاعتداء.

وتم تقديم الأمر في سياق روسيا التي تقف ضد ثقافة الغرب والولايات المتحدة المتحللة مقدمة بديلاً للمشروع الحداثي الغربي، وقيادة أخلاقية لهؤلاء الممتعضين من الغرب لأسباب شتى في الوقت الذي لم تسترع الاهتمام الجرائم المرتكبة بحق الشواذ مثل حادثة مقتل مراهق تحت زعم شذوذه الجنسي.

وكأي شيء في روسيا إذا بقى سراً فإنه لا يثير المخاوف، أما أن يأخذ مكاناً في وسائل الإعلام لشرعنته، فهذا ما لا يمكن السكوت عليه، بل ـ وهذا هو الأهم ـ يتم استغلاله للدعاية ضد الغرب ولترويج صورة عن الرئيس بوتين القائد الكاريزمي الذي لا يرضى عن هذه الممارسات.

***

مراجع الفصل

١ـ عبد الوهاب المسيري: اليد الخفية: دراسات في الحركات اليهودية الهدامة والسرية (القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٨).

1- Anna Dekalchuk and Thomas Schneider, The Image of the European Union in Russian Media, Konrad Adenauer Stif- tung Center, May 2012. pp. 1-15.

2- Emil Persson, Banning "Homosexual Propaganda": Belong- ing and Visibility in Contemporary Russian Media, Sexuality & Culture, 14 (1), 2014, pp. 245- 295.

3- Gregory Simons, Russian Crisis Management: Communi- cations and Media Management under Putin, Arbetsrapport- er Working Papers, No. 85, Department of East European Studies, Uppsala University, Sweden, January 2005. Pp. 1-28.

4- Jill Dougherty, Everyone Lies: The Ukraine Conflict and Russia's Media Transformation, Discussion Paper Series, No. 88, Shorenstein Center on Media, Politics, and Public Policy, Harvard Kennedy School, CA, USA, July 2014. pp.1-30.

5- Laura Belin, Russian Media Policy in the First and Second Chechen Campaign, A paper given at the 52nd Conference of the Political Studies Association, Aberdeen, Scotland, 5-8 April 2002. pp 1- 35.

6- Markku Lonkila, Russian Protest on–and offline: The Role of Social Media in the Moscow Opposition Demonstrations in December 2011, The Finnish Institute of International Affairs, February 2011. pp. 1-9.

7- Natalia Mirimanova & Toby Mendel, Covering Conflict: Reporting on Conflicts in the North Caucuses in the Russian Media, Article 19, Global Campaign for Free Expression, London, UK, May 2008. Pp. 70-72.

8- Nils Muiznieks, Manufacturing Enemy Images? Russian Media Portrayals of Latvia, UDK, Academic press of the University of Latvia, 2008, pp. 161-163.

9- SREO, Russian News Media Coverage of the Syrian Conflict: A Content Analysis Report, Syria Research and Evaluation Organization, September 2014. pp. 1-30.

***

الفصل السادس

جمهور وسائل الإعلام الروسية

مقدمة:

خلال الخمسة عشرة عاما الماضية تحولت روسيا من دولة قارئة للصحف إلى دولة مشاهدة للتليفزيون، فقد زاد عدد قنوات التسلية والترفيه وزاد جمهورها بشكل دائب ووصلت إلى نصف الشعب الروسي في المدن الصغيرة والقرى، و٩٥٪ في العواصم والمدن الكبرى.

وتشير المسوح التي أجريت في العشر سنوات الأخيرة أن الإنترنت قد أخذ مكان الصحف خاصة بين النخب والشباب المتعلم ذوي المستوى الاقتصادي المرتفع.

ويبدو أن الصحف الورقية لا تستجيب لحاجات الطبقة الوسطى الروسية في الوقت التي أصبح فيه الإعلام الإلكتروني والمجلات الورقية المتخصصة أكثر أهمية وانتشارا، وفي العموم شكلت الأخيرة نفسها على مثال وسائل الإعلام الغربية و نجحت في الاحتفاظ بجمهورها وزيادته.

ومنذ انهيار الاتحاد السوفيتي السابق في ١٩٩١ ووسائل الإعلام الروسية تواجه فترات متعاقبة من الاضطراب وعدم الاستقرار، وكنتيجة للإصلاح الاقتصادي وإعادة تشكيل الأسواق فإن توزيع الصحف شهد سقوطاً سريعاً وتحولت روسيا من دولة قارئة للصحف إلى دولة مشاهدة للتليفزيون.

وشهدت روسيا ظهور إمبراطوريات إعلامية وحروبا معلوماتية في ظلها تصادمت وتقاتلت مجموعات سياسية واقتصادية على امتلاك وسائل الإعلام وعكست هذا الصدام مضامينها، ولكن رئاسة بوتين أنهت كل ذلك وسانده الرأي العام في ذلك، وزادت سيطرة الدولة على قنوات التليفزيون القومية، في الوقت الذي ظلت الصحف خاصة على المستوى الجهوي والإقليمي تتلقي الدعم السياسي والاقتصادي من الحكومة وحققت تنوعًا كبيرًا في المقاطعات الثلاثين للاتحاد الروسي.

في نفس الوقت، زادت النزعة التجارية لوسائل الإعلام الروسية وزادت عوائد الإعلانات بشكل سريع على الرغم أن عددا محدودا من وسائل الإعلام هذه وصلت لمستوى الوسائل في غرب أوروبا وأمريكا الشمالية، وبشكل تدرجي شكلت وسائل الإعلام الترفيهية الروسية نفسها إداريا على غرار النموذج الغربي.

وفي الوقت الذي أجريت عدد كبير من الدراسات حول مدى انتشار وسائل الإعلام الروسية، فإن قليل منها نجح في التخلص من التوصيف إلى التحليل، قليل منها فقط من استخدم مداخل نظرية مثل استخدامات وإشباعات هذه الوسائل، ومدى اعتماد الجمهور الروسي عليها.

وتعد دراسات الباحث الفنلندي (جوكا بيتالانين) هي الأنضج والأشمل في هذه الفترة، وهدفت إلى تفسير أسباب اختلاف الجمهور الروسي وتقسيماته مستخدمه مدخل الاستخدامات والإشباعات الذي يعطي أهمية لتوصيف هذا الجمهور ليس كأفراد ولكن كجماعات وكطبقات للمجتمع الروسي.

ولأن توزيع استمارات البحوث أمرا يرتبط بالأمن القومي لابد من أن توافق عليه السلطات الروسية فقد تم استبعاد مناطق إنتاج البترول والمواد الخام، وكذا استبعاد الجمهوريات الإسلامية في الجنوب ذات القلاقل والمطالبة بالانفصال.

أولا: التليفزيون .. الوسيلة الإعلامية السائدة في روسيا

على الرغم من الأهمية التي تعطيها التقارير العلمية والصحفية عن انتشار الإنترنت في روسيا ووسائل محاصرته، فإن التليفزيون يظل الوسيلة ذات الشعبية الجارفة التي تشكل التيار السائد لوسائل الإعلام.

وترك «تطهير» قنوات التليفزيون من أي تغطية مستقلة متوازنة آثاراً سلبية هائلة على الجمهور، عندما جعل الرئيس بوتين التحكم في التليفزيون من ضمن أولوياته المهمة منذ قدومه إلى السلطة في عام ٢٠٠٠ ووجه جهوده للسيطرة عليه.

ونتيجة للفجوة بين الأغنياء في المدن والفقراء في الريف والمدن الصغيرة، فإن الأخيرين يعتمدون على التليفزيون بشكل كامل في معرفة ما يدور في بلادهم والبلاد الأخرى، وتستخدم السلطة كل إستراتيجية ممكنة لجعل الأصوات المعارضة غير مرئية على الإطلاق في تقارير وبرامج التليفزيون، فلا مجال لاستضافة النشطاء والشخصيات المعارضة أو الاقتطاف من كلامهم.

ليس على الساحة الإعلامية إلا رؤية الكرملين للعالم وللأشياء والشخصيات التي يعتمد عليها الكرملين في التعليق على الأحداث، وهذا يساعد النظام على إجبار الجماهير على اللجوء لسبيل مباشر شبه وحيد لاستقاء الأنباء يمثل قاعدته السياسية.

ويثبت تحليل المضمون أن أغلب التعليقات مؤيدة لكرملين وناقدة للمعارضة وإن قلّ تعرض الجماهير للقنوات نسبيًا من ٨٧٪ عام ٢٠٠٠ إلى ٧٣٪ عام ٢٠١٢ للقنوات الرئيسية وهي: الأولى، روسيا، الثقافة، RTR وقنواتها المحلية.

وتحظى برامج انتقاد المعارضة بشهرة مثل البرنامج الوثائقي (تشريح للمعارضة) على قناة NTV التي تملكها مجموعة البترول والغاز الطبيعي Gazporm والتي زعمت أن مظاهرات ومسيرات ٢٠١١ المعترضة على حكم بوتين والمطالبة باستقالته وانتخابات حرة كانت مدفوعة من قبل منظميها، فيما وصفت المعارضة هذا البرنامج بأنه دعاية وقحة للسلطة في روسيا.

ومن الجدير بالذكر أن القنوات التليفزيونية الحكومية والتي دأبت على تجاهل المسيرات المناصرة لبوتين، غيرت من سياستها وبدأت في نقل صورة قريبة مما يحدث بالفعل في ديسمبر ٢٠١٢، وهو ما جعل المشاهدين الروس يثقون في تغطيتها بدلًا من التحول عنها تماما، بل وأظهرت المعارض إلكسي نفالني الذي جعل من مهاجمة الفساد الحكومي نقطة تركيزه الأساسية.

وقد لاحظ الباحث ليف جودكوف أن التليفزيون نجح في بناء دعما جماهيريا للقانون الذي سنته الحكومة الروسية، والذي يمنع تبني الأمريكيين للأيتام الروس تحت زعم تعرضهم للتعذيب والاستغلال الجنسي.

ومن أجل إخراس الألسنة التي تنتقد الكرملين بصراحة مثل مقدم البرامج فلاديمير بونزر، هدد البرلمان الروسي بتحرير قانون يمنع مزدوجي الجنسية من الظهور في أي وسيلة إعلامية روسية مثل بونزر إذا أهانوا السلطات.

وكثير من القضايا الحساسة تمنع من النقاش في التليفزيون ومن بينها صحة الرئيس بوتين، ولا يتم تقديم أي أسباب لاعتذار بوتين عن عدم الظهور في برامج تليفزيونية بعد أن يتم الإعلان عنها كما حدث في خريف ٢٠١٢.

أكثر من ٩٨٪ من الجمهور الروسي يشاهد التليفزيون بينما ٦٦٪ فقط يقرأ الصحف ٥٣٪ يستمع للراديو، ٣٨٪ يقرأ الدوريات الثقافية والعلمية.

وتمتلك روسيا قناتان رئيستان هما: القناة الأولى First Channel التي كانت تسمى سابقًا ORT، وقناة روسيا Rossiya التي كانت تسمى سابقًا (RTR).

وتشاهد قنوات NTN والقنوات الترفيهية STS، TNTعدة مرات في الأسبوع وجميع القنوات كانت جماهيرية منذ أواسط التسعينات ولكن الأخيرتين تشاهدان أكثر في المدن الكبيرة (أكثر من ١٠٠ ألف نسخة) ومن قبل الشباب، وكذا قناة الجيش الروسي زفيزستا (قناة النجم) وقناة الكنيسة الأرثوذكسية Saviour ، وقناة Ren – TV التي توصف بأنها أخر قناة روسية مستقلة.

ويعتبر التليفزيون أهم مصدر للمعلومات لقطاعات متنوعة من الجمهور الروسي خاصة في القضايا القومية والخارجية وأيضًا في القضايا المحلية، ويعتقد ثلثا الجمهور الروسي أن قنوات التليفزيون الروسية مصدر موضوعي للأخبار وهو الأمر الذي يعتمد عليه بوتين الدعم أجندته السياسية وقد ظهر ذلك في الأزمة الأوكرانية في القرم، إذا ارتفعت شعبيته عقب الأزمة وأعرب ٨٦٪ من الروس عن رغبتهم في إعادة انتخابه.

ثانيا: الصحف في روسيا .. قارئية متدهورة

تعتبر الصحف مصدرا مهما للمعلومات المحلية والأقلية ولكنها لا تقارب التليفزيون المسيطر على الجماهير في ذلك، وتقريبا لا يستخدم ثلثا الجمهور الروسي الصحف كمصدر للأخبار.

ويعتبر الراديو والإنترنت مصادر مهمة للأخبار لجزء ضئيل من السكان الروس ويعتمد ذلك على الموضوع المطروح للنقاش ويأتي بعدهما المجلات بحوالي 6,٣ فقط يستخدمها كمصدر للمعلومات، ويعد الراديو والصحف الرسمية مصادر هامة في المدن الصغيرة (أقل من ١٠٠ ألف نسخة) وفي الريف.

وقد زاد عدد الصحف الورقية والالكترونية وأصبح للجمهور الروسي طيفاً اختيارياً واسعاً من وسائل الإعلام ليختار من بينها أكثر من فترة روسيا السوفيتية بكثير، وفي الوقت الذي كانت فيه الجرائد عددها زهاء ٤٨٠٠ في عام ١٩٩٠، وصلت إلى ٢٦,٥٥٨ في عام ٢٠٠٦، أما المجلات والدوريات فزادت من ١١٤٠ إلى ١٩,٥٠٣ في نفس الفترة.

وكان أهم الظواهر فقدان الصحف الورقية عرشها وجماهيرها، وفيما عدا الراديو والتليفزيون، أصبحت وسائل الإعلام محلية وازدهرت في المقاطعات الجهوية.

وتحولت وسائل الإعلام من معبرة عن رغبة الجماهير في التحول الديمقراطي إلى أدوات للصراع الداخلي على السلطة بين النخب الاقتصادية والسياسية، ثم رجعت رويدا للدور التي لعبته في الفترة السوفيتية كماكينة دعاية واسعة للجمهور مع استثناء أن مصالح الجمهور غير موضوعة في الحسبان على عكس الفترة السوفيتية.

وعلى الرغم من أن الإنترنت يزداد استخدامه زيادة مطردة، فإن التليفزيون يتفوق عليه أيضًا فحوالي ٨٣,٣ من الجمهور تعتبره المصدر المهم للمعلومات ولكن الإنترنت أكثر أهمية من الراديو والمجلات في ذلك.

ويغلب على استخدام الإنترنت الوصول لمعلومات عن السلع والخدمات

والمواعيد الرياضية والثقافية، والإنترنت مهم في موسكو العاصمة وكذلك المجلات مقارنة بالمدن الصغيرة والريف.

يستخدم الرجال التليفزيون بشكل أكثر قليلا من السيدات الروس وضعفين المرأة الروسية في الإنترنت، ولكن النساء تتميز باستخدام الصحف الورقية والمجلات كمصدر للمعلومات.

وتعتمد الشرائح الأعلى في المستوى التعليمي على الصحف والمجلات والإنترنت بينما يعتمد هؤلاء ذوي المستوى التعليمي الأقل على التليفزيون، والأغنياء أقل استخداما للتليفزيون من المتوسطين والفقراء، ويزداد دور الصحف والإنترنت كمصدر للمعلومات مع ارتفاع المستوى الاقتصادي وبعض القضايا التي تهم هذه النخب لا تظهر في وسائل الإعلام.

تعتبر السنوات من ١٩٩١ – ٢٠٠٤ فترة متقلبة غير مستقرة للإعلام الروسي وأوضح شيء فيها الانخفاض الهائل في قراءة الصحف وزيادة الاعتماد على التليفزيون، ولأن النخب تطلع على المجلات أكثر من الجرائد الورقية، فإن ذلك يعني أن المجلات تحدّت نفسها واستجابت لرغبات الشرائح الغنية الإعلامية أكثر من الجرائد التي انسحبت من قراءتها حتى الطبقة الوسطى.

فقدت الصحف الورقية جمهورها أساسا بسبب التليفزيون، وفي المدن بسبب المجلات والانترنت، وعامة هناك سبب أهم ألا وهو أن الصحف لا تكتب عن القضايا التي تهم أغلب الجمهور الروسي.

تعتبر الصحف الورقية وقنوات الخدمة العامة الروسية أقل وسائل الإعلام الروسية تحديثًا وأبعدها عن النموذج الغربي، في المقابل فإن قنوات الترفيه تشابه القنوات الغربية وكذلك المجلات المتخصصة ومواقع الإنترنت الأكثر تصفحا.

وأحد أهم الأسباب للنتيجة السابقة أن الجمهور الروسي لم يتعود على القيم العامة المشتركة للميديا الغربية المحايدة سياسيا نظريا على الأقل، فالوسائل الإعلامية (الجرائد – قنوات الخدمة العامة) تعبر عن وجهة النظر

الحكومية التي عادت قوية، وأيضا لأن الصحف الورقية لم تحدث نفسها

مقارنة بالتليفزيون التجاري، وفقدت الصحف الورقية الجمهور الذي يسعى إليه المعلنون.

تستعيد المجلات جمهورها عبر كوكبة من المجلات الجديدة التي تناسب أذواق النخب الاقتصادية والتعليمية في المدن والعواصم مقدمه المضمون الذي يحتاجونه ويتمتعون به.

تعتبر المجلات ومحطات الراديو القومية أكثر الوسائل تحديثًا على النمط الغربي وبالطبع فإنه شائع استهلاكها في المدن والعواصم بين الجمهور صغير السن والشباب أكثر من متوسطي السن في المقاطعات وكذلك الأمر بالنسبة للإنترنت.

لم توفق الصحف الورقية لإيجاد دورا جديدا لها في المشهد الإعلامي والسياسي الروسي، والطبقة الوسطى الجديدة لا تشبعها الصحافة الموجودة، وكذلك فإنها ليست مهتمة بالقضايا الحزبية والسياسية قدر اهتمامها بتحسين الأحوال المعيشية والاقتصادية وهو ما لا تهتم به الصحف الورقية عكس التليفزيون التجاري والراديو التجاري والمجلات المتخصصة ومواقع الإنترنت الشائعة وتحتاج روسيا إلى نوع جديد من الصحف الورقية إذا أرادت الصحافة المكتوبة الوجود والاستمرار.

بعض الصحف الورقية (تحديدا كومسومولسكايا برافدا) هي أفضل الصحف توزيعا واحتفاظًا بالجمهور لأنها توحدت مع رغبات شعبية للقراء، في الوقت الذي يأخذ الإنترنت مكان الصحف للطبقة الوسطى والنخب.

في الوقت الذي ارتفع فيه توزيع الصحف الروسية مع سياسة إعادة البناء (البيروسترويكا) في نهاية الثمانينات، تدهور التوزيع مع ١٩٩١ بسبب الانهيار الاقتصادي والتضخم المرتفع جاء بتدهور أخر في ١٩٩٢و ١٩٩٣، فارتفع سعر الجرائد مع وجود ضغوط على الميزانيات المحلية على الرغم من زيادة أعداد الصحف.

ومع عام ٢٠٠٧، كانت هناك صحيفتان لهما توزيع ذو وزن في روسيا وهما: كومسومولسكايا برافدا، وأرجيومني إي فاكتي، والأولى لها توزيع

جيد في المدن الصغيرة بينما الأخيرة في موسكو وسان بطرسبرج وفي القرى، وتعتبر صحيفة موسكوفسكي كومسومولتس منافساً قوياً لصيغة كومسومولسكايا برافدا في موسكو.

وتعتبر كومسومولسكايا برافدا جيدة التوزيع بين القراء متوسطي العمر بينما أرجيومنتي إي فاكتي جيدة التوزيع في كل الأعمار ماعدا تحت الثلاثين كونها جريدة أسبوعية متخصصة في التحليل العميق.

الجريدة الثالثة الجماهيرية هي Telesem Antenna وكما يبدو من أسمها فهي متخصصة في عرض قوائم برامج التليفزيون.

الصحفية الرابعة في التوزيع هي جريدة جيزن Zhiznأو الحياة وهي صحيفة نصفية ظهرت ١٩٩١ وكانت جزءًا من مجموعة صحفية إقليمية واسعة ولكنها اندمجت مع أخرى قومية عام ٢٠٠١ وهي صحيفة جيدة التوزيع في المدن المتوسطة.

في المركز الخامس، صحيفة الإثارة الجنسية SPID – Info أو (معلومات لإلإيدز!!)، وتليها الصحيفة الحكومية روسيسكايا جازيتاGazeta - Ro siiskaya ، بعدها صحيفة الاتحاد العمالي السابق المسماة (ترود) Trud أو العمل.

تم تأتي الجرائد المتخصصة وأهمها صحف الرياضة وهي: Sport, Sovetskii sport، والاسم سوفيتي يظهر ببنط صغير وتصدر من سان بطرسبرج صحيفة رياضية أخرى هي Sport den’zadnem منذ عام ٢٠٠٥.

وتعد الصحف المحلية شائعة على المستوى الجهوى والمقاطعات مثل صحيفة Svirskieogni (نيران نهر السيفر) وغيرها من جرائد المقاطعات.

وقد قل توزيع صحف كانت تحظى بتوزيع كبير كما في صحيفة San Petersburg kievedomosti التي تصدر في سان بطرسبرج وقد

انخفض قارئية الصحف الروسية لكل الأعمار لاسيما في الفئة العمرية

من ١٧ - ٣٠ سنة والذين وجدوا في الإنترنت جنتهم المفقودة، وهو ما تعكسه الإحصاءات التي تقول أن ٥٥٪ من الجمهور الروسي يصله الإنترنت عام ٢٠١٤.

ثالثا: مطبوعات أكثر.. قراء أقل

منذ منتصف التسعينات زادت عدد الصحف والمجلات من ٨,٢١٦ إلى ٢٦,٢٤٤ عنوان في ١٩٩٧، ومع دخول رأس المال صدرت طبعات روسية لصحف أمريكية شهيرة مثل: بلاي بوي، كوزموبولتيان، صحة الرجل، نيوزويك، وتمتلك موسكو وحدها ٣ صحف باللغة الإنجليزية هما: موسكو تايمز، موسكو هيرالد، موسكو نيوز، وأغلبها تطبع في فنلندا أو النمسا وتنقل لتوزع في روسيا، وتعتبر أسعار هذه الصحف في غير إمكان الروسي المتوسط لذا فتوزيعها قليل.

قل التحمس لمتابعة الصحف نتيجة الإحباط الذي أصاب القارئ/المواطن الروسي فأي فساد في الحقبة السوفيتية كان يصل للمسئولين، الآن نادرًا ما تتحول قضايا الفساد المثارة في الإعلام إلى القضاء فقل توزيع صحيفة (حقائق وأراء) من ٢٣ مليون إلى 1,٢ مليون في ١٩٩٧، وكذلك صحيفة نوفي مير، وقد تدهورت (البرافدا) لتصبح صحيفة فقيرة مولها لفترة رأس المال اليوناني ثم أغلقت بينما كانت الصحيفة الأولى في الحقبة السوفيتية.

والنجاح الآن منعقد لصحيفة (أخبار الإيدز) وهي صحيفة شهرية متخصصة في التعليم الجنسي وهو الأمر الجديد على المجتمع البيورتانى الأرثوذكسي الروسي، وكذلك كومرسانت اليومية أو (رجل الأعمال) وعدد من الدوريات التي تحاكي السوق الرأسمالي الغربي.

وفي دراسة كيفية عن الجمهور الروسي بواسطة المقابلات تستخدم إطار (التعليم الإعلامي) أو (المعرفة الإعلامية)، وجد أن ثورات الربيع العربي ساعدت على إشعال اهتمام الباحثين للإجابة على التساؤل: كيف يؤثر الاتصال عبر الانترنت على النظم السلطوية، وهو السؤال التي تلقي اهتمام غير مسبوق من تخصص الإعلام.

وهدفت الدراسة إلى تجسير هذه الفجوة المعرفية باقتراح أربعة أوجه متعاقبة للمعرفة النقدية بالأخبار وهي مطبقة في نظام هجين شبه سلطوي مثل المجتمع الروسي على الشباب الروسي المتعلم في المدن، وهذه الأوجه هي: تفتت بيئة الأخبار، عملية إنتاج الأخبار، بنائية الرسائل السياسية، ودور الإعلام في المجتمع الروسي.

وأوضحت الدراسة كيف أن كثافة المعلومات عن هذه الأوجه الأربعة يؤثر بشكل حاسم على كيفية تصفح الشباب الروسي للأخبار وفهمهم لها.

ونتيجة قلة عدد أفراد عينة هذه الدراسة، فإن تعميما حذرا جرى تطبيقه على النتائج، وكل وجه من أوجه المعرفة النقدية بالأخبار تستدعي دراسات أخرى عميقة كيفية، وربما يتمخض عن هذه الدراسات الكيفية دراسات كمية تختبر أشرت عليها المقابلات المتعمقة.

وهي دراسة يمكن نقدها أيضًا لأن حدود تأثير (المعرفة الإعلامية) على دمقرطة روسيا ربما يكون محكوما بمدى فعالية الرسائل السياسية الروسية في وسائل الإعلام المسيطرة عليها الدولة، وعلى تكونّ حركات اجتماعية لها القدرة على تغيير بنية السلطة في روسيا.

وحاولت دراسة أخرى رصد العلاقة بين وسائل الإعلام والسلوك الانتخابي في روسيا للإجابة على تساؤلين هما: كيف تؤثر وسائل الإعلام في روسيا على السلوك التصويتي؟ وما الفارق الذي تستطيع أن تصنعه وسائل الإعلام المستقلة في دولة تتحكم فيها الدولة بالإعلام؟

في سبيل الإجابة على هذين التساؤلين، قارنت الدراسة نتائج التصويت الانتخابات البرلمانية التي انعقدت عام ١٩٩٩ بين هؤلاء الذين يعيشون في مناطق جغرافياً تمكنهم من الوصول لقناة NTV المستقلة وبين هؤلاء الذين يعيشون في مناطق أخرى لا تستطيع الوصول لقناة NTV.

وأسفرت النتائج عن أن وجود قناة NTV المستقلة قلّل من التصويت لحزب الحكومة بنسبة ٢,٥٪ زادت من التصويت لأحزاب المعارضة بنسبة ٢,١٪، وأن احتمالية التصويت لأحزاب المعارضة زادت للأفراد الذين شاهدوا قناة NTV

حتى بالنسبة للأفراد التي كانت نيتهم الانتخابية غير ذلك قبل شهر من التصويت، وكان لقناة NTV تأثيرًا ضئيلاً على أصوات الأفراد ذوي المعرفة السياسية العالية والذين يستخدمون مصادر أخرى للأخبار السياسية، ولكن كان لها تأثيراً كبيراً على الأفراد المتقاعدين وأصحاب المعاشات الذين شاهدوا القناة أكثر من الأفراد العاملين.

***

مراجع الفصل

1- Florian Toepfl, Four Facets of Critical News Literacy in Non-Democratic Regime: How Young Russian Navigate their News, European Journal of Communication, (12) 1, 2013.

2- Gennadi Gerasimov, Russia Media Revolution: From Party Control to Money Control, Asia Pacific, 37(1), June 1998. pp. 1-8.

3- Jukka Pietiläinen: Media Use in Putin's Russia, Journal of Communication Studies and Transition politics, 24 (3), 2008, pp. 365-385.

4- Robert Orttung and Christopher Walker: Putin and Russia's Crippled Media, Russian Analytical Digest, 23(1) February 2013. pp. 1-5.

5- Ruben Enikolopov, Maria Petrova and Ekaterina Zhuravskaya., Media and Political Persuasion: Evidence from Russia, Working Paper no. 113, Centre for Economic and Financial Research at New Economic School, March 2009. pp. 1 – 55.

***

الفصل السابع

صورة العالم الإسلامي في الكاريكاتير الروسي

مقدمة:

عرفت روسيا الإسلام منذ أن وصلت طلائع الفتح العربي إلى (دربنت) في حوض نهر الفولجا عام ٩٢٢ ميلادية، وتَسمّى السكان الذين اعتنقوا الإسلام ببلغار الفولجا على أساس أن تسمية بلغاري كانت تعني الغريب أو غير الروسي، ثم جاء الغزو المغولي/التتري لروسيا في بداية القرن الثالث عشر ليمثل العلامة الفارقة في تاريخ روسيا التي دان أمراؤها في موسكو ونوفجورد بالولاء لخانات التتار[١]، وتحديدا ذلك الفرع من أحفاد جنكيز خان الذين أطلق عليهم اسم: القبيلة الذهبية.

وفي القرن السادس عشر، نجح الروس في الغزو المضاد للأقاليم التتارية ووصلوا إلى العاصمة قازان في عام ١٥٥٢ وأجبروا سكان هذه المناطق على اعتناق المسيحية، ثم واصلت روسيا القيصرية توسعها في القرم عام ١٧٣٨ وفي آسيا الوسطى فضمت طاجيكستان وتركمنستان وأوزبكستان، وورث هذه الأقاليم المسلمة الاتحاد السوفيتي السابق ١٩١٧- ١٩٩١ الذي حاول كبح جماحها بتوطين الروس في هذه الأقاليم وإعادة توطين المسلمين في مناطق أخرى في روسيا[٢].

وأضاف الصراع بين الإمبراطورية العثمانية وبين روسيا بعدا أخر لتاريخ المسلمين في روسيا، عندما نجحت الأخيرة في ضم أقاليم كانت تابعة لنفوذ العثمانيين في شمال القوقاز ذلك عندما غزا الإمبراطور بطرس الأكبر الشيشان عام ١٧٢٢[٣].

ولم يكن انضمام هؤلاء إلى روسيا ثم إلى الاتحاد السوفيتي سهلا سلميا، بل كان مخضبا بدماء الثورات والحركات الانفصالية، فدامت الحروب مع الشيشان ومسلمي داغستان من ١٨١٧-١٨٦٤، ومع جمهوريات آسيا الوسطى طوال النصف الثاني من القرن التاسع عشر حتى الثورة البلشفية.

ومنذ تفجر الحركات القومية للاستقلال عن الاتحاد السوفيتي، طالت هذه الحركات المسلمين الذين يشكلون جمهوريات ذات حكم ذاتي داخل الاتحاد الروسي في منطقتين أساسيتين في روسيا: منطقة شمال القوقاز في: داغستان والشيشان وإنجوشيا وقبردين بلقاريا وأوسيتيا الشمالية، ومنطقة حوض الفولجا - الأورال في: تتارستان وبشكيرستان وتشوفاش وموردوفيا إضافة إلى إقليم أورنبرج، فضلا عن الملايين من المسلمين الذين هاجروا من طاجاكستان وأوزبكستان ليضيفوا بعدا أخر للمشهد المسلم داخل روسيا[٤].

وتختلف المصادر الروسية الرسمية عن مصادر الأقليات المسلمة في تقدير عدد المسلمين في روسيا، فبينما تقدرهم المصادر الروسية بما لا يقل عن ٢٨ مليون مسلم بما فيهم ثلاثة ملايين مهاجر يمثلون ٢٠٪ من عدد السكان، تقدرهم المصادر الإسلامية بما يربو عن ٣٢ مليونا يمثلون ما لا يقل عن ٢٢٪ من إجمالي عدد السكان.

وفيما يتعلق بعلاقات روسيا مع العالم العربي فترجع العلاقات الطيبة بين روسيا القيصرية والقوميين العرب في سوريا وفلسطين ولبنان (الشام) إلى أواخر القرن التاسع عشر قبل قيام الاتحاد السوفيتي السابق، حيث ساندت روسيا تحرر العرب من ربقة الحكم التركي نتيجة العداء التاريخي بين الدولة العثمانية وروسيا القيصرية، فتم إنشاء عدد كبير من المدارس الروسية الأرثوذكسية والمراكز الثقافية، ومن خريجي هؤلاء المدارس جاء الأدباء العرب الشوام الذين ترجموا الأدب الروسي وعلى رأسهم اللبناني سالم قبين والسوري خليل بيدس[٥].

وعلى الرغم من أن الاتحاد السوفيتي السابق كان ثاني دولة اعترفت بإسرائيل، فإن مساندته للدول العربية التي كان يحكمها أحزاب اشتراكية عربية في سوريا والعراق ومصر معروفة، عندما كان مورِّد السلاح الرئيسي لدول المواجهة العربية.

واليوم يدرس الآلاف من الطلاب العرب في الجامعات الروسية لرخصها خاصة في جامعات مدينة كازان ذات الأغلبية المسلمة في جمهورية تتارستان، وتعنى روسيا بالتواصل مع العالم العربي وآلياته عندما أطلقت قناة روسيا

اليوم بالعربية عام ٢٠٠٦ لمعادلة الصوت الغربي المهيمن على الإعلام الدولي ومساندة الحقوق العربية، في الوقت الذي يتواجد ما لا يقل عن أربعة آلاف مقاتل من مسلمي روسيا في سوريا للحرب في صفوف تنظيم الدولة الإسلامية.

ويشغل الشأن الإسلامي في روسيا وتوقعات تطوراته الإقليمية والمحلية حيزا كبيرا من دراسات مدرسة العلوم السياسية والدراسات البينية في أوربا والولايات المتحدة، لا سيما المستقبل الديموغرافي للمسلمين في روسيا وما يترتب عليه من تغيير في البنية السكانية، وتحول الإسلام الذي يعتنقه أبناء روسيا المسلمين إلى الراديكالية والتطرف تأثرا بأيديولوجية تنظيمات مثل القاعدة والدولة الإسلامية بل والسلفية الجهادية حتى وصل أمر هؤلاء إلى قلب روسيا.

وقد انضم علم الإعلام إلى النشاط البحثي عن صورة الإسلام والمسلمين لا سيما في فترات المواجهات المسلحة داخل روسيا وخارجها، ولذا تكتسب هذه الدراسة أهميتها من عدة نقاط؛ إذ تمكن هذه الدراسة الباحثين من التعرف على الكاريكاتير الروسي وأبرز مراحله التاريخية و نجومه، وكذا كيفية تشكل صورة العرب والمسلمين في الإعلام الروسي وتفسير هذه الصورة عبر التحليل الثقافي لتاريخية علاقة روسيا بالإسلام.

وقد آثر الباحث أن يستخدم كلمة العالم الإسلامي لأنها تستوعب كل القضايا والأحداث التي صورها رسامو الكاريكاتير الروسي، فلم يقتصر الأمر على الشأن السياسي في دول العالم الإسلامي أو الأقليات في روسيا أو في أوروبا، بل تجاوز ذلك إلى صورة المرأة المسلمة وصورة العقيدة الإسلامية ذاتها.

وتقدم هذه الدراسة رصدا لصورة العالم الإسلامي قضاياه وأحداثه والقوى الفاعلة فيه في الكاريكاتير الروسي سواء المنشور في الصحف الروسية الأوسع انتشارا، أو في مواقع الإنترنت المتخصصة في الكاريكاتير ومدوناته

وأبرزها موقع (حركة الكارتون السياسي) أو Cartoon Movement، أي أن الدراسة تعالج الكاريكاتير الروسي على المستويين الاحترافي والهاوي، في كل من الإعلام المؤسسي والإعلام الجديد.

تعتمد دراسات الكاريكاتير المحدثة على تحليل الخطابين اللغوي والبصري، وقد اختار الباحث من بين مدارس نظرية الخطاب وتحليله مدرستين مهمتين تتسق منطلقاتهما مع الفن الصحفي الذي اختاره للدراسة ألا وهو الكاريكاتير، فضلا عن وجود علاقات تأثير وتأثر بين المدرستين: المدرسة السيميولوجية أو العلاماتية، والمدرسة الثقافية، وتمثل هذه الدراسة امتدادا لتوجهات الباحث النظرية والمعرفية التي تخصص فيها منذ حصوله على درجة الدكتوراه: المدارس الكيفية النقدية والعلاماتية والثقافية[٦].

والدراسات العلاماتية والثقافية هي التي أسست لمفهوم التمثل (أو التمثيل في بعض الترجمات) Representation وهو الاصطلاح الذي تجاوز في الدراسات الإعلامية الراهنة مفهوم المحتوى بما لا يقارن، لأن التمثل يبحث دائماً عن السياق والثقافة في كل نص إعلامي مدروس يصنع بدوره الحقيقة الاجتماعية، وغالباً ما تبحث كلمة (تمثل) عن المعاني العميقة المستترة وراء المعاني الظاهرة[7]، فضلا عن المنحي البيني الذي يربط التاريخ والسياسة والاقتصاد بالإعلام.

التراث العلمي:

في دراستنا هذه سوف تنقسم الدراسات السابقة إلى محورين:

الأول: يعرض دراسات السخرية في الإعلام الروسي بأشكالها المختلفة، وذلك لقلة دراسات الكاريكاتير الروسي باللغة الإنجليزية.

أما المحور الثاني: فيعنى بدراسة صورة العالم الإسلامي في الإعلام الروسي، والتي شملت دراسات رصدت صورة قوى التطرف والعنف الإسلامي في وسائل الإعلام الروسية سواء داخل الاتحاد الروسي في الشيشان وداغستان وتتارستان، أو خارجه مثل صورة القوى الإسلامية في سوريا والعراق، فضلا عن

دراسات تغطية الإعلام الروسي لظواهر إسلامية أخرى كالحجاب والأعياد الإسلامية، وسيتم عرض الدراسات من الأقدم إلى الأحدث.

المحور الأول: دراسات السخرية في الإعلام الروسي

أهم مساهمة علمية رصدت تاريخ الكاريكاتير الروسي هو المقال العلمي للباحثة فيرا أيفانوفا Ivanova الذي عالج نشأة وتطور الكاريكاتير الروسي منذ أوائل القرن التاسع عشر وحتى بداية القرن الحادي والعشرين(٨).

تطور الكاريكاتير الروسي من الصور والرسوم الشعبية الفلكلورية ذات النزعة الفكاهية التي ظهرت في القرن السابع عشر والتي تسمى في الروسية (لوبوك)، وقد أغضبت الرسوم الكاريكاتورية الإمبراطور الفرنسي نابليون بونابرت عندما سخرت منه أثناء حملته على روسيا والتي عرفت بالحرب الوطنية ١٨١٢، إذ كانت أول حملة كاريكاتورية في الصحافة الروسية ضد إمبراطور غربي عرف بحساسيته للسخرية.

وكان قائد الجيش الروسي (ميخائيل كوتوزوف) أول من أسس دارا لطباعة الرسوم الكاريكاتورية لتعليقها في الأحياء الروسية في شكل بوسترات تهدف إلى رفع الروح المعنوية والوطنية وإلى الحط من شأن الأعداء، ومنذ ذلك الحين والرسوم الكاريكاتورية تستخدم في الدعاية والدعاية المضادة في فترات الحروب والصراعات المسلحة.

وحاز الكاريكاتير اعترافاً وانتشاراً واسعين في القرن التاسع عشر عندما ارتبط بالصحافة الأدبية، وكانت الصحف ترفق بالمقالات المنشورة رسوماً كاريكاتورية مرتبطة بالأحداث لتفسرها وتعلق عليها بصرياً، وهو الأمر الذي استمر حتى الآن في الصحافة الروسية ويمكن ملاحظته في الجريدة الدولية متعددة اللغات (روسيا فيما وراء العناوين)، ثم تطور ذلك إلى نشر الرسوم الكاريكاتورية غير المرتبطة بنصوص مصاحبة، وكانت الأفكار واضحة دون الحاجة للتعليق بالكلمات.

وفي القضايا الداخلية، كانت الرقابة الموضوعة في زمن روسيا القيصرية شديدة الالتفات لقدره الكاريكاتير على تجسيد الأفكار الناقدة للممارسات السلطوية، ولذلك تم منع مهاجمة النظام السياسي والقيصر على وجه الخصوص، ولكن لم تكن الرقابة لتوقف هذا الجنس الإعلامي

الجذاب سريع الانتشار إذ تم توزيع هذه الرسوم دون توقيع يشير إلى رساميها بين الأصدقاء والمعارف، لاسيما تلك الساخرة المهاجمة للنظام الروسي المحافظ.

وحازت رسوم الكاريكاتير على مساحة معتبرة من صحف الاشتراكيين الثوريين وغيرهم، وعلى رأس هذه المطبوعات صحيفة (ابن الوطن) التي كان ربع المساحة بها على الأقل مخصص للكاريكاتير، والتي صدرت في الفترة ما بين ١٨١٢ـ ١٨٥٢.

وفي منتصف القرن التاسع عشر، صدرت مجلات ساخرة مثل مجلة (خلطبيطة i.e. jumble Yeralash) التي أسسها رسام الكاريكاتير (ميخائيل نوفاخوفيتش والتي صدرت في سان بطرسبرج ١٨٤٦ـ١٨٤٩، وتلاه رسام الكاريكاتير (نيكولاي ستيبانوف) بمجلته (المنبه) i.e. Budilnik alarm-clock) التي شهدت أول رسوم كارتونية قصصية للأديب أنطوان تشيكوف الذي كان يكتب تحت أسماء مستعارة منها (أنتوشا شيخونتي) أو (شقيق شقيقي)، ثم الرسام (ديمتري أركوف) الذي حاز شهرته تحت الاسم المستعار (مور)، وفي هذه الفترة لمع نجم الرسامين: ألكسندر ليبديف، ميخائيل ميكشين، فيكتور شباك الذي نشروا في صحف: ستيركوزا، زيرتيل، إيسكرا.

وباندلاع الثورة الشعبية في ١٩٠٥، وصلت درجة حرية التعبير إلى قمتها ونشر العديد من نجوم الكاريكاتير رسومهم دون رقابة، إلا أن عمر هذه الحرية كان قصيراً وفي هذه الفترة كان النجوم هم: سيرجي تشيخونين، فالنتين سيروف وظهرت مجلات ساخرة في الفترة من ١٩٠٨ـ١٩١٤ أبرزها (ساتيركون)، ثم هاجر كثير من الرسامين، والذين بقوا استمروا في العمل في مطبوعات سوفيتية عقب ثورة أكتوبر ١٩١٧ الشيوعية.

وهدف الكارتون السياسي في أوائل الحقبة السوفيتية إلى الهجوم على النزعات الطفيلية وإدمان الكحول والتزويغ من المدارس ودعم الرؤى

الاجتماعية للحزب الشيوعي، وظهرت رسوم سرية تهاجم النظام وقبضته الحديدية والتي كانت تعد من التابوهات أو الممنوعات، وبحلول عام ١٩٢٢

كانت هناك مطبوعات ساخرة مثل: التمساح، سميخاتش، زونوزا وغيرها ولم يكتب البقاء إلا لمجلة التمساح حيث تم إغلاق الباقي بالأمر الإداري المباشر.

وانتعش الكاريكاتير المرتبط بالملصقات السياسية الدعائية في فترة الحرب العالمية الثانية والتي هاجمت العدو النازي، ورفعت من الروح القتالية لاسيما بعد الهزائم في بداية الحرب وكان نجوم هذه المرحلة: بوريس يفيموف وديمتري مور.

وتم معاقبة الرسوم الكاريكاتورية السرية في الحقبة السوفيتية التي كانت تمثل صوت المعارضة ومنها قضية الرسام (فاتشيسلاف سيسموف) عام ١٩٧٨ الذي اضطر إلى الهروب والاختفاء حتى القبض عليه عام ١٩٨٣ بتهمة الترويج للمطبوعات الفاضحة، وحكم عليه بالأشغال الشاقة لمدة عامين في معسكرات سيبريا.

ومع سقوط الاتحاد السوفيتي السابق، انتهت الرقابة على رسوم الكاريكاتير التي تناولت الموضوعات المحظورة في الصحافة الروسية، وظهرت إلى الوجود الرسوم التي كانت ممنوعة في الحقبة السوفيتية وأعيد نشرها في الصحف وعلى مدونات الإنترنت.

أما في الفترة الانتقالية الروسية فظهر رسامون آخرون تناولوا الموضوعات الملحة مثل سيطرة القلة الأولجاركية من رجال الأعمال على الحياة الروسية، وظهور الأغنياء الجدد، والفساد، والصراع بين المعارضة والكرملين وسائر المشكلات الاجتماعية، مثل التضييق على الاتجاهات الجنسية المثلية، وتدهور أوضاع الطبقة الوسطى الروسية.

ورصدت الدراسة الكيفية للباحث هيبرتس جان Jahn تقنيات وثيمات السخرية التي أبرزها الكاريكاتير الروسي المصور للعدو الألماني في الحرب العالمية الأولى إذ تم التركيز على صورة القيصر فيلهلم الثاني (الذي شاع ترجمته في الأدبيات العربية باسم غليوم الثاني) وصورة الجنود الألمان، ثم كشفت الدراسة عن تحول صورة العدو مع هزائم عام ١٩١٥ من العدو الألماني في الخارج إلى أعداء الداخل الذين تسببوا في هزيمة الجيش الروسي في الحرب العالمية الأولى[٩].

وأكدت الدراسة على دور فهم الثقافة والسياق التاريخي لرسوم الكاريكاتير حتى تستطيع أن تصلك رسالة الرسام، وكذلك التقنيات اللغوية التي تلجأ إلى تكنيكيات التورية اللغوية والمفارقة والمبالغة، وهو الأمر الذي يستلزم المعرفة باللغة المرسوم بها الكاريكاتير وحتى لغة الجهة المستهدفة بالهجوم.

وعلى الرغم من نظرة الروس الإيجابية للثقافة الألمانية، وإعجابهم ببعض جوانبها حتى أنهم يعتبرون الألمان أحسن الأجانب، فإن ذلك لم يمنع الهجوم عليهم في بداية الحرب العالمية الأولى وكانت التيمة الأساسية هي الفلاح الروسي القومي من القوزاق (منطقة في جنوب روسيا) الذي يستطيع شكم القيصر الألماني وجنوده الذين مهما بلغوا من قوة فإنهم لا يقدرون على القوزاق الشجاع الذكي، والتي تحولت إلى الثنائية المتقابلة الشهيرة بين الألماني والنمساوي الغبي في مقابل الروسي الذكي، وهي التقنية المسماة في التحليل السيميولوجي بالثنائيات المتعارضة.

ويذكرنا الباحث بأن الكاريكاتير الروسي قد تطور عن الرسوم الشعبية الضاحكة المطبوعة في بوستر كبير أو كارت بوستال وكانت شائعة في القرن التاسع عشر والمسماة (لوبوك).

ومن أمثلة التورية اللغوية: الكاريكاتير الذي يصور القيصر الألماني وجنوده على أنه صراصير يتغلب عليها القوزاق الذكي (الروسي الجنوبي المحارب المشهور بشجاعته) لقرب النطق بين الكلمة الروسية بروشكي (صرصار) وبروشكي أي البروسي.

ومن الثيمات المستخدمة والتي تتضح فيها الثقافة: الكاريكاتير المصور للدمية الروسية الشهيرة (ماتريوشكا أو ببوشكا) التي تأخذ الإمبراطور الألماني وتبيعه في السوق على أنه خنزير صغير.

ثم ما لبثت هذه الرسوم أن اختفت مع الإخفاقات المتلاحقة للجيش الروسي منذ عام ١٩١٥، وحل ملحها رسوم المرأة الروسية الجائعة التي يحيط بها أطفالها المنهكين وحولها يرقص في تجاهل وغلظة المستفيدون من الحرب من كبار

الرأسماليين الروس، وكذا كاريكاتير الثعلب المختفي وراء خطوط الجيش الذي يقوم بدور الطابور الخامس.

ويقدم الباحث أولج منين Minin تحليلاً اقتصادياً ثقافياً في ضوء نظرية المفكر الفرنسي (بيير بورديو) عن الإنتاج الثقافي، والعلاقة بين القيمة الرمزية والاقتصادية للأعمال الأدبية، وبين الفن البصري والعروض الدرامية وسائر المنتجات التي تنتجها مجموعة من الوكلاء الثقافيين، وذلك من أجل كسب الاعتراف وإضفاء الشرعية على الخطاب المناوئ للسلطات القمعية والدول الاستبدادية[١٠].

ويشمل هؤلاء الوكلاء الثقافيون: الناشرون والنقاد والقيميون على إصدار المجلات والجرائد، وكذا الفنانون والأدباء المشتركون في هذه المطبوعات أو المنتجات الثقافية.

وفي هذه الدراسة الكيفية، يطبق الباحث فرضيات بورديو على المجلات السياسية الساخرة الروسية التي صدرت عام ١٩٠٥ من قبل جماعات الاشتراكيين الثوريين في فترة شهدت اضطرابات سياسية وتحديداً من شتاء ١٩٠٥إلى ربيع ١٩٠٦، وهي الفترة التي صدرت فيها مجلة (جوبيل) والتي تعني بتصرف (الخازوق) وحرفياً مصدر للخوف والقلق والهم.

وهي المجلة التي كانت تستكتب الصحفيين الذين أصدروا صحيفة (ابن الوطن) الاشتراكية الثورية، وكتب فيها عدد من الأدباء المرموقين وعلى رأسهم ماكسيم جوركي.

وعلى الرغم من أن الهدف الأساسي لإصدار (الخازوق) كان انتقاد الحكومة والقيصر الروسي من خلال الصورة والكلمة، إلا أن منتجيها لم يخرجوا عن القواعد التي أقرها بورديو في نظريته؛ فقد أعدوا رأسمالا اقتصاديا ورمزيا لانطلاقة قوية للمجلة تجلب لهم المكانة في المجتمع، ولكن السلطات التي منعت المجلة ساهمت في الإعلاء من الرأسمال الاقتصادي حيث بيعت نسخ المجلة المصادرة بأضعاف سعرها الأصلي، وجلبت شهرة ضخمة لجميع العاملين بها.

ولإنتاج مطبوعة جذابة قادرة على المنافسة ولتسهيل تحويل الرأسمال الرمزي المستخدم فيها إلى رأسمال عيني، اتبع مشرفو ومنتجو (الخازوق) كل الاستراتيجيات لإنجاحها بدءاً من اختيار الاسم الجذاب الدال، الاهتمام بالنواحي الجمالية والفنية للمجلة، استخدامهم للأديب المشهور ماكسيم جوركي، استخدام شبكة توزيع ممتازة كانت في شراكة مع الناشر الروسي (سيرجي لورتين) الذي درس في السوربون ونشر الصحيفة الناجحة (ابن الوطن)، التي كانت متأثرة بالجرائد والمجلات السياسية الساخرة الناجحة في أوربا وخاصة في ألمانيا.

وجاءت الإجراءات الرقابية لتزيد من رأسمالها الرمزي ونجاحها المالي، إذ تخاطف الناس النسخ التي تم إخفاؤها وبيعت النسخة بخمسة عشرة كوبيك، ووصل ربحها لأربعة عشر ألف روبل، وهو مبلغ كبير بحسابات بداية القرن العشرين.

ولعبت المجلة دوراً هاماً في تأسيس (المجال العام الوليد) في روسيا عقب اضطرابات ١٩٠٥، وهي الأحداث التي تتالت صاعدة حتى ثورة أكتوبر ١٩١٧ الشيوعية.

وقد توسع الباحث أوليج منين بعد ذلك في معالجة هذا الموضوع في رسالته للدكتوراه التي درست الصحافة الروسية الساخرة أثناء ثورة عامي ١٩٠٥ و١٩٠٦، إذ كونت الصحف الساخرة التي كانت تعبر عن الاستقطاب السياسي ما أسماه يورجين هبرماس بالمجال العام الليبرالي البورجوازي، وهي بيئة سياسية واجتماعية جديدة على روسيا في خريف وشتاء ١٩٠٥/١٩٠٦ والتي كانت نقطة التقاء بين المراسيم القيصرية والتشريعات الحكومة وبين الضغط المجتمعي[11].

ويرى الباحث أن التناقضات الجوهرية بين اليمين واليسار الروسي منعت تلك القوى السياسية البازغة من تحقيق أي أهداف خاصة بتحسين المناخ السياسي الروسي أو إجراء إصلاحات سلمية، فقد كانت تلك الخطابات المتصارعة الساخرة أكبر من أن يتحملها النظام الاستبدادي فتتبع هذه الصحف أمنياً حتى أغلقها.

بل أن الصحافة اليمينية الساخرة ذات نفسها عوقت تطور المجال العام البورجوازي الليبرالي؛ عندما هاجمت وسخرت من البورجوازية البرلمانية واحترام الدستور والسوق الرأسمالي، وكذلك فعلت الصحافة اليسارية التي رفضت تقديم أي تنازلات مع النظام القيصري وساهمت في تدمير النزعة الليبرالية للبورجوازية الوليدة.

أما دراسة فيلاديمير راجيوفيف Razuvaev الكيفية فتعلقت برصد تأثير مناخ الديمقراطية في روسيا في عقد التسعينات المتواكب مع مرحلة التحول الديمقراطي على السخرية السياسية، كما تم رصدها في وسائل الإعلام السائدة آنذاك عندما تم إزاحة التابوهات الرسمية وغير الرسمية لاسيما تلك المتعلقة بالفكاهة السياسية(١٢).

إذ ظهرت موضوعات جديدة مثل السخرية من "الروس الجدد"، وهو التعبير الذي أطلق على الأغنياء الجدد الذين راكموا ثروات هائلة أغلبها غير معروف المصدر وإن كان يتمركز حول شراء الأصول السوفيتية بثمن بخس، والدخول في دائرة التوكيلات الرأسمالية مع مرحلة التحرر الاقتصادي التي كانت أقرب إلى رأسمالية المحاسيب على حد تعبير المفكر الاقتصادي سمير أمين.

واستمرت موضوعات أخرى مثل السخرية من رأس السلطة السياسية متمثلاً في الرئيسين يلتسين وبوتين، بيد أن نصوص هذه النكات انتقلت من التواصل الشفاهي في العهد السوفيتي إلى صفحات الصحف ومواقع الإنترنت بل وفي التليفزيون ومسارح الكوميديا الواقفة أو Stand-up Comedy، وبدت هذه أكثر صراحة في ظل التحرر من القيود الأخلاقية في العهد السوفيتي، وكذلك استمرت النكات الإثنية أو العرقية الموجهة ضد الروس ذوي الأصول الجورجية والأوكرانية.

وكذلك ظهرت السخرية من الأداء الانتخابي والتصويت في ظل تحكم الكرملين والشك في نزاهة بعض الانتخابات وتأثير رأس المال الجديد عليها.

وترصد الدراسة اشتداد السخرية من الرئيس بورس يلتسين في فترة رئاسته الثانية، وتقدم سبباً لذلك في وعود الديمقراطية التي لم تتحقق في الفترة الأولى والتي جعلت الروس متفائلين بتغيير المناخ السياسي، وكذلك

فقد اختفت السخرية السياسية من المخابرات وعادت مع إمساك بوتين بعنان الدولة الروسية، عندما تم تشديد القوانين التي نالت من حرية التعبير والإعلام تحت لافتات محاربة الإرهاب والوحدة الوطنية.

ولعبت الضغوط التي عانت منها الطبقة الوسطى الروسية- وانصرافها عن السياسة إلى كسب العيش من أجل البقاء- دورا كبيرا في تعاظم السخرية السياسية من مظاهر الثراء الغامض لبعض الفئات التي تم تسميتها بالروس الجدد.

وعلى صعيد تكنيكات السخرية، فإن المفارقة والمبالغة ظهرتا في السخرية من الأغنياء الجدد لإظهار غبائهم وضحالتهم الثقافية وتباهيهم بمظاهر الثراء، على حين ظهرت المحاكاة الساخرة في انتقاد رأس السلطة السياسية: الرئيسين يلتسين وبوتين.

أما المقال التحليلي للباحثة ناتاليا ريليوفا Rulyova فقد ركز على البرامج الساخرة في التليفزيون الروسي أثناء فترة رئاسة الرئيس ميدفيديف من خلال قاعدة المصارحة أو المكاشفة (الجلاسنوست)؛ تلك السياسة التي فتح الباب لها ميخائيل جورباتشوف أخر رئيس سوفيتي عام ١٩٨٦ وكان المقصود بها الهجوم على أعداء سياسته للإصلاح وإعادة البناء، ولكن تداعياتها أسفرت عن انهيار الاتحاد السوفيتي السابق ١٩٩١.

ويحلل المقال القصص الخبرية التي نشرت على موقع القناة الأولى الروسية وتأويلها الساخر كما يظهر في برنامجين ساخرين على نفس القناة، وذلك كمؤشر على تطور مفهوم المصارحة والشفافية في عهد الرئيس السابق ميدفيديف في الفترة من أكتوبر ٢٠٠٩ إلى يناير ٢٠١٠، وكذلك تم المقارنة بين اللغة المستخدمة في هذين البرنامجين وبين اللغة المستخدمة في مواقع الانترنت الساخرة من أجل رصد حدود المسموح في التليفزيون الساخر[13].

استخدم ميدفيديف سياسة المصارحة لوضع نفسه في إطار القائد/ الزعيم الليبرالي الذي يسمح بالنقد، ولكن النقد كان أغلبه موجه لخصومه السياسيين، وتصف الباحثة ذلك بأنه (تقليد للمصارحة) والتي ملأت خطاباتها

القنوات التليفزيونية التي تحكمت بها الدولة ومواقعها الإلكترونية، فالأمر لا يعدو كونه وهما للمصارحة والشفافية.

وهو الأمر الذي كُشف عنه عندما تمت مواجهة بين الفنان الروسي (مغني الروك) يوري شفيتيشك وبين رئيس الوزراء والرجل القوي آنذاك فيلاديمير بوتين في برنامج يسمى (الأمير الصغير)، عندما فوجئ بوتين بأسئلة الفنان المحرجة عن حرية التعبير في روسيا والتظاهرات المناوئة للنظام الحاكم وهل الحكومة ستستمر في السماح بذلك أم لا؟، وقد ظهر الحرج بوضوح على وجه بوتين، وسرعان ما انتشر الفيديو على اليوتيوب وانتقل إلى محطات الراديو المتمتعة بحرية نسبية آنذاك (إيكو موسكوفي)، (راديو سفودنيا).

وتعتقد الباحثة أن للحدث جذوره التاريخية الثقافية في روسيا متمثلة في المواجهة بين الفنان والقيصر، كما حدث من قبل بين بوشكين ونيكولاس الأول، وبين كارامزين وألكسندر الأول؛ فحرية التعبير هي تراث الفنان في روسيا وعلمٌ على شجاعته في مواجهة الكبت السياسي، وهو الشيء الذي لم يتكرر بعد ذلك خاصة بعد رجوع بوتين للرئاسة ومنعه للبرامج الساخرة.

وترى الباحثة أن الأمر كان (تقليداً للسخرية) وليست سخرية حقيقية، والدليل أنها لم تستمر تحت ضغط السلطة السياسية، ولكنها استمرت على مدونات الإنترنت ومواقع التواصل الاجتماعي ومنها اليوتيوب.

وهذا الصراع بين (السخرية الحقيقة) و(تقليد السخرية) خلق التوترات في الخطاب العام وهو ما ظهر جلياً في التظاهرات ضد بوتين في نهاية ٢٠١١ وبداية ٢٠١١، إذ انفرد الإعلام على الإنترنت بأطيافه المختلفة بالسخرية السياسية التي كانت جزءاً من ميكانزم النشاط السياسي، وهو ما تنبهت له الإدارة الروسية وقامت بمحاصرته فيما بعد.

ومن البرامج الساخرة التي كانت شائعة منذ ١٩٩٤حتى ٢٠٠٠: برنامج العرائس Puppets وبرنامج بالمختصر All in all، الجبن المطبوخ Processed Cheese، وكلها انتهت مع وصول بوتين للرئاسة ٢٠١١.

وفي سياق رصدهما للتدوين السياسي في عصر بوتين، كشف الباحثان نيكول بودي وأندريه ماكارتشيف Bode & Makarychev عن استخدام الصفحات الساخرة على مواقع التواصل الاجتماعي كجزء من ظاهرة الإعلام الجديد الساخر في روسيا، والتي استخدمته المعارضة خلال التظاهرات التي واكبت تزوير الانتخابات البرلمانية في روسيا لصالح حزب بوتين المسمى (روسيا المتحدة) من شتاء ٢٠١١ إلى ربيع ٢٠١٢.

اختار الباحثان عددا من الصفحات المنتشرة على موقع التواصل الاجتماعي للروسي Vkontakte، وكذلك بعض المدونات على شبكة التدوين - R Net، والتي تم النظر إليها على أنها تحمل دعاية مضادة لدعاية النظام المنتشرة على وسائل الإعلام السائدة التي هندسها بوتين خلال ١٥عاماً لتعبر عن صوت رسمي شبه وحيد إلا من راديو هنا (إيكو موسكوفي) وجريدة هناك (نوفايا جازيتا).

إذ اعتمدت تكنيكات الدعاية على اختيار كلمات وعبارات بعينها لتوصيف النظام مثل: (اللصوص، المحتالون، الأغبياء) ووُصف بوتين بشكل ساخر بأنه (رجل الوعد/ الموعود) أو (رجل البوتكس) وهي المادة التي يحقن بها وجهه حتى يبدو دائم الشباب، بينما وصف مؤيدو النظام بعبارات: الأغبياء، المغفلون، غير المثقفين، الجهلاء.

وفي مدونات النشطاء، أخذت السخرية أشكالاً عدة هي: الفوتومونتاج باستخدام برنامج الفوتوشوب وغيره، مقاطع الفيديو، والنصوص التي ضمت الشعر والنثر والأزجال الساخرة، وكانت من صنع المدونين أو منشورة فقط على مدوناتهم، وموجهة ضد بوتين ومؤيديه بالسخرية من صوره التي يتم الترويج لها وهو عار الصدر، أو وهو يصطاد أو مع النمور؛ تلك التي تعبر عن قوته وشبابه، فيما تم تصوير هؤلاء المؤيدين على أنهم مسلوبو الإرادة، مغيبون وأغبياء.

وكانت تلك الدعاية المضادة تهدف لحشد الناس في الشوارع في تظاهرات ضد النظام، لتحريرهم من قبضة الأيديولوجية المهيمنة التي تسود الخطاب الإعلامي الرسمي.

وتكمن قوة مواقع التواصل الاجتماعي الروسية في تعبيرها الصريح عن الحركية السياسية بخلق مجال عام مواز للموجود في وسائل الإعلام السائدة، وتحديدا مناقشة بدائل نظام بوتين ومستقبله، تلك التي تعد جوهر التابوهات في الإعلام الرسمي، وكسر احتكار الخطاب الإعلامي الرسمي الخطي الواحدي الاحتفائي والغائي الذي يبرز أنه ليس بالإمكان أبدع مما هو كائن في روسيا[١٤].

وأخيرا درس أستاذ التاريخ الأمريكي الجنسية أبوت جليسون Gleason الملصقات السياسية السوفيتية والكارتون السياسي أثناء الحقبة السوفيتية مستخدما التحليل الثقافي، إذ يرى أن الثقافة الروسية في الأغلب تفتقد إلى الوسطية والاعتدال، وليس لديها مساحة وسطا بين مثال السيدة العذراء وبين أرض سدوم وعمورة الملعونة في الإنجيل لارتكابها الفحشاء، وليس لديهم ـ كما في الغرب ـ مفهوم الأعراف (وسط بين الجنة والنار) [١٥].

ومن أبرز الثيمات (الأفكار المتواترة) المتواجدة في الكاريكاتير السياسي في الحقبة السوفيتية العدو المتخفي تحت رداء صديق وهو ما وصفت به بعض القوى الاجتماعية والاقتصادية التي كانت معادية للثورة الشيوعية مثل: طبقة الكولاك أو أغنياء المزارعين، الرأسماليين الروس قبل ١٩١٧، المتفرجون الصامتون غير الاشتراكيين وهم أشد خطورة من التحالف الدولي الذي كان يريد هزيمة الجيش الأحمر.

ومن الثيمات: الهجوم على النزعة الفردية الرأسمالية وهو الهجوم الذي كان مقروناً بالحسد والحقد على الغربيين الذي يمتلكون الأشياء المحروم منها الروس أثناء الحقبة الشيوعية.

وكشف الباحث عن تحول صورة العدو إلى صديق (بريطانيا ـ الولايات المتحدة) أثناء الحرب العالمية الثانية والقتال ضد النازي ثم رجوع صورتهما في شكل عدو مرة أخرى، ولم تكن الحرب الباردة أبداً في الكاريكاتير مجالاً لانتقاد الذات أو المراجعة نتيجة ديكتاتورية النظام الشيوعي وعدم سماحه بالنقد.

ويلاحظ على دراسات هذا المحور: قلة الدراسات المتناولة للسخرية السياسية بشكل عام والكاريكاتير بشكل خاص، ونزوع الدراسات إلى المنحى الكيفي سواء استخدمت التحليل السيميولوجي أو الثقافي، أو التتبع التاريخي.

المحور الثاني: الدراسات التي تناولت صورة العالم الإسلامي في الإعلام الروسي

تركزت أغلب دراسات هذا المحور في دراسة تغطية الإعلام الروسي بوسائله المختلفة للإرهاب الشيشاني الذي ظهر في أعقاب حربين في هذه الجمهورية القوقازية في الاتحاد الروسي والتي تحمل بذور التمرد منذ ضم روسيا القيصرية لها مرورا بحقبة الاتحاد السوفيتي السابق التي شهدت نزوحا قسريا للشيشانيين إلى مناطق أخرى من الاتحاد ثم سعيها للتحرر والاستقلال عن الاتحاد الروسي منذ ١٩٩٤ وحتى الآن.

في تلك الحقبة الأخيرة، يتقاطع العنف السياسي في الشيشان مع قضية الإرهاب العالمي نتيجة إيواء تنظيم القاعدة ـ ومن بعده تنظيم داعش ـ لعدد من المقاتلين الشيشان، وانتهاء الأمر بإعلان إمارة القوقاز الإسلامية، ونزوح المقاتلين من جمهوريات القوقاز للقتال في ظل تنظيم الدولة الإسلامية في سوريا والعراق.

فقد درست لورا بلين Belin المذيعة بالبرنامج الروسي براديو أوروبا الحرة السياسة الإعلامية الروسية في الحرب الشيشانية الأولى والثانية، وانتهت إلى أنه إذا حملة الشيشان الأولى أثبتت أن السلطات الروسية لم تستطع التلاعب بوسائل الإعلام، فإن الحملة الثانية على الشيشان التي بدأت عام ١٩٩٩ أثبتت العكس تماماً[١٦].

في الحملة الثانية، أصبحت أغلب وسائل الإعلام الحكومية والخاصة معتمدة على مركز المعلومات الرسمية الذي وصفه أحد المراسلين بعبارة (قسم الدعاية)، وإذا كانت تغطية الحرب الأولى نجاحا محققاً للصحافة الروسية الديمقراطية، فإنه في نهاية ١٩٩٩ لم تجد الباحثة إلا تغطية واحدية الاتجاه متحيزة لوجهة النظر الرسمية وصعّدت سياسات الدولة أثناء الحملة الثانية من حجب الأخبار وإخفائها الذي يفيد الكرملين فقط.

وفي دراستها التي شملت رصد أحداث داخلية وخارجية بحثت إرينا كوزينتسوفا مورينكو Kouznetsova-Morenko في تغطية الصحافة الروسية لاحتجاز عدد من مقاتلي الشيشان للرهائن في مسرح روسي يعرض مسرحية نورد- أوست ٢٠٠٢، والذي انتهى بقتل الإرهابيين وعدد من الرهائن أثناء عملية تحريرهم.

كانت أبرز النتائج هي مزج الإرهاب الشيشاني بفكرة الشهادة الإسلامية لاسيما في أبرز الأماكن للقصص الخبرية وهي العناوين على الرغم من رفض المرجعيات الدينية الإسلامية ذلك، وعدم اعتبارهم القائمين بعملية الإرهاب شهداء بل هم مجرمون، ولكن وجهة النظر الأخيرة هذه لم يتم إبرازها، وكذلك تم ربط إرهاب الشيشان بما تم تسميته بالإرهاب الإسلامي الدولي أو العابر للقومية على اعتبار أن تنظيم القاعدة ساند المقاتلين الشيشان، وبعضهم كان في أفغانستان وباكستان للقتال[١٧].

بينما أبرزت صحف قليلة فقط أن البلدان الإسلامية والعربية نفسها عانت من هذا العنف الدولي الذي رعته بلدان غربية في البداية، وكذلك تم إبراز اشتراك المقاتلات الشيشانيات في هذه الأعمال، واعتبار الأفكار المتطرفة كفيلة أيضاً بالقضاء على النزعة الإنسانية للمرأة في شكل تعبيرات مثل المرأة - الكاميكازي أو الانتحارية، وأبرزت صحف قليلة فقط الحقيقة المؤسفة بأن هؤلاء الإرهابيين يتمسحون الإسلام ويستغلونه.

بينما ذهب الباحث السويدي جريج سيمونس Simons في دراسته إلى أن الرئيس الروسي فيلاديمير بوتين بنى القاسم الأكبر من شعبيته السياسية من محاربة الإرهاب والنجاحات العسكرية التي تحققت في الحرب الثانية على الشيشان بدأً من ١٩٩٩، ثم ما لبثت أن تحولت إلى حرب استنزاف منهكة بعد أن وقعت أحداث إرهابية في قلب موسكو، ولعبت أحداث ١١سبتمبر ٢٠٠١ دوراً كبيراً في تدعيم السياسة الروسية التي ارتأت أن تضع الإرهاب الشيشاني في سياق أوسع هو الإرهاب الإسلامي العولمي[١٨].

والدراسة تحلل الأطر البلاغية التي استخدمها الفاعلون الروس والتي أظهرتها وسائل الإعلام السائدة؛ بدءاً من "تأطير" حرب روسيا على الإرهاب

في سياق دولي أوسع، وكذلك إبراز وسائل الإعلام لنقص فهم الغرب للحرب على الإرهاب في روسيا وكيلهم بمكيالين في ظل مخاوف الإدارة الروسية من كسب الإرهابيين المعركة الإعلامية.

ولتحقيق النصر الإعلامي في هذه الحرب، استخدم الإعلام الروسي الإطار المعروف بالاستقطاب (نحن في مقابل هم) وفي ظله تم تقديم الأحداث والفاعلين الرئيسين، وفي هذا السياق تتضح وظيفة الإعلام في الحشد والتعبئة وتقوية وقوف المجتمع الواحد ضد العدو المشترك في فترات الحروب والأزمات.

ويصف الباحث الاستخدام البلاغي بأنه فن إعلامي يشجع في النهاية الرقابة الذاتية حتى لا يُتهم الإعلاميين بدعم الإرهاب أو الوقوف إلى جانب الإرهابيين، ولذا فهم يتبعون الخطاب الرسمي السائد لتفسير الأحداث الإرهابية بنقل هذا الخطاب كي يتبناه الجمهور، ولذلك فإن هناك نموذجاً روتينياً متكرراً لإنتاج أخبار الإرهاب فيه عدة قواعد غير مكتوبة تحدد كيف يتم توصيف الأحداث عبر استخدام كلمات وعبارات سائدة، أما خطاب القوى الغربية الذي يكسر احتكار هذا الإطار الحكومي الرسمي السائد فيتم تحديه واستبعاده من الظهور، وهو ما يعزز توصيف هذه الأحداث بشكل معين.

وكذلك يهتم هذا الخطاب السائد بإظهار المعايير المزدوجة خاصة معايير القوى الدولية التي تكيل بمكيالين، وتظهر الإجراءات الأمنية التي تحمي روسيا على أنها إجراءات قمعية غير ديمقراطية، وذلك لإسكات هذه المعارضة في الداخل والخارج وتعليل مساندتهم للإرهاب الشيشاني والنزعة الانفصالية لهذه الجمهورية، وآلية (المعايير المزدوجة) هذه لا تُستخدم فقط لتخفيف الضغط عن السلطات الروسية بل للضغط على الدول الغربية التي تأوي بعض الإرهابيين مثل بريطانيا.

والآلية الأخيرة هي الإعلاء من شأنه الوحدة الوطنية والاصطفاف الوطني ضد الإرهابيين، أي ضد العدو المشترك الذي يريد تدمير روسيا متعددة الأعراق متعددة الأديان بالنزعات الانفصالية المتطرفة، مع إبراز المكاسب التي يمكن

أن تتحقق للأقليات جراء بقاءهم داخل الاتحاد الروسي، وهو ما ينسحب على ما يمكن أن يسمى بالاصطفاف العالمي ضد الإرهاب وإظهار ترابط التنظيمات الإرهابية الإسلامية ودعمهم لبعضهم البعض.

أما دراسة أجالايا سينتكوف Snetkov فرصدت كيف تم تمثيل الأحداث الإرهابية في الإعلام الروسي الرسمي وبسبب أن التعليق السياسي الرسمي الروسي تم حجبه منذ ١٩٩٩، فقد أصبح من المهم أن يرصد الباحثون التحليلات الصحفية والإعلامية لأنها أصبحت بحد ذاتها مصدرا مهما للمعلومات ونقطة تحول في الخطاب الحكومي الروسي عن الإرهاب الشيشاني.

وتم اختيار دراستي حالة: الأولى هي أزمة المسرح الموسيقي الروسي الذي كان يعرض مسرحية (نورد أوست) في عام ٢٠٠٢ وسميت الحادثة باسمها وكيفية تحرير الرهائن وقتل الإرهابيين، والثانية احتجاز التلاميذ في مدرسة بمدينة (بيسلان) عام ٢٠٠٤ نظراً لأهميتهما الفائقة في الوعي السياسي والوطني في روسيا، ونتيجة حضور التغطية الإعلامية في كل وسائل الإعلام الروسي، رغم حرص الخطاب الروسي الرسمي على عدم إظهار الشأن الشيشاني في وسائل الإعلام[١٩].

وقد تم تحليل كل الخطاب الصحفي المنشور في صحيفة (روسيسكايا جازيتا) الرسمية في خلال شهر بعد كل حدث، وكذلك في الصحف المستقلة آنذاك: (كومرسانت)، (نوفايا إزفستيا)، (نوفايا جازتيا).

وتم التركيز على الإجابة على تساؤلات معينة في الخطاب الصحفي الرسمي والمستقل وهي: مَنْ أرتكب هذه الأحداث ولماذا؟، وما الذي تعنيه بالنسبة للأمن الروسي، وكيف تستطيع روسيا التعامل مع مرتكبي هذه الأحداث وكيف تستطيع منعها من التكرار في المستقبل؟!.

وانتهت الدراسة إلى أن تصوير تهديد الأمن الروسي من قبل الإرهابيين قد تعرض لتحول كبير ما بين ٢٠٠٢ و٢٠٠٤، فعلى الرغم من بقاء الربط بين الإرهاب الإسلامي الدولي وبين الشيشان استمر في هيمنته على تغطية الأزمة في بيسلان عام ٢٠٠٤، فإن تركيز الإعلام الرسمي لم يعد على الشيشان ولكن

تحول إلى شمال القوقاز ككل، وكذلك زادت درجة التهديد من ٢٠٠٢ إلى ٢٠٠٤.

وجاء ذلك التحول استجابة من الخطاب الإعلامي الرسمي لتصاعد عدم الاستقرار في شمال القوقاز والذي لا يرتبط فقط بالشيشان بل امتد إلى داغستان، وكان هذا الخطاب التصاعدي للخطر وسيلة للحفاظ على شرعية النظام الروسي في مواجهة الهجمات الإرهابية في قلب موسكو/ روسيا، وتبرير الفشل الحكومي في معالجة الأزمة في الشيشان، ولدعم الإجراءات الأمنية المتشددة التي نحى إليها النظام (بوتين- الكرملين) والتي طالت حرية الإعلام في روسيا.

وتم تأطير الخطر الإرهابي في شكل (صراع الحضارات) لجعل المعادلة صفرية في التعامل مع الشأن الشيشاني برفض الخطاب الرسمي تقديم أية تنازلات للمتمردين في الشيشان.

وعلى الرغم من الإصلاحات النسبية التي بدأت في الشيشان ٢٠٠٤ على صعيد الخدمات وتوفير فرص العمل، فإن الخطاب الرسمي الصحفي لم يعالج الأوضاع الاقتصادية الاجتماعية في شمال القوقاز، مع استمرار قمع أي شكل من أشكال الإسلام غير الرسمي المسموح به في المدارس والجامعات والمؤسسات في شمال القوقاز، ولم يمنع ذلك استمرار الاشتباكات بين قوى الأمن وبين القوى الإسلامية المعارضة كما حدث في (نالتشيك) في أكتوبر ٢٠٠٥.

وقد قلت أحداث العنف في الشيشان في ٢٠٠٧ بمجيء الرئيس (رمضان قاديروف) للحكم، وتوالي عمليات الإصلاح لدرجة القول بأن الحرب انتهت في الشيشان فعلاً، على الرغم من بقاء المشكلات الثقافية والاجتماعية قائمة في شمال القوقاز عامة.

وهو الأمر الذي أكدته دراسة نتاليا ميرمانوفا Mirimanova - مستشارة الإعلام وحل الصراعات - في دراسة مولها مركز بريطاني للبحوث، إذ رأت أن المعلومات عن صراعات شمال القوقاز تعتبر محدودة وذات وجهة نظر واحدة ومسيسة، فالأخبار عن شمال القوقاز غالباً ما ترتبط بمصطلحات مثل (الهجمات الإرهابية) و(العمليات المكافحة للإرهاب).

وتحديدا فإن السلطات الروسية تحجب كل الأصوات المخالفة في الشيشان وجمهوريات الاتحاد الروسي الإسلامية مثل داغستان وتتارستان، مؤكدة بذلك على الرواية الرسمية للأحداث التي يمكن للجماهير الروس الوصول إليها، وتمنع اعتبارات الأمن أي أصوات بديلة[٢٠].

وفي سياق معقد اقتصادياً واجتماعيا، يزيده تعقيدا أحداث العنف والصراع العرقي والاعتداء على الحقوق والحريات، فقد ساهم كل ذلك في اتجاهات معادية منتشرة ضد الشيشان مرتبطة بمشاعر ضد الأعراق القوقازية وضد الأجانب عموماً.

وقد ساعد ذلك أيضاً على إضفاء الشرعية على الجهود العسكرية الروسية في المنطقة مانعة تغطية القضايا الخلافية مثل انتهاكات حقوق الإنسان التي يرتكبها الجيش الروسي في شمال القوقاز، والنتيجة أن الجمهور الروسي عامة لا يستطيع المشاركة والنقاش حول مسئولية السلطات عن الأحداث.

وهذا لا يمكن فهمه إلا في سياق قمع وسائل الإعلام في روسيا، فالميديا الروسية بفعل ضغوط السلطات صنعت إجماعاً حول السياسات الروسية، ففي روسيا حيث مهنة الصحافة مهنة خطرة يتعرض المشتغلون بها للقتل والتحرش والتقاضي والاعتقال، لم يبرز إلا الصوت الرسمي فضلاً عن ثقافة الامتثال والخضوع السائدة في الوسط الإعلامي الروسي، بالإضافة لتحول البرامج السياسية إلى برامج دعائية خاصة في قنوات التليفزيون الاتحادية، وشيوع برامج الترفية وبرامج تليفزيون الواقع التي استحوذت على اهتمام الجماهير.

في الوقت الذي أبدت فيه وسائل الإعلام المكتوبة (الصحافة) مقاومة من نوع ما، وقدمت تحليلا متعدد الجوانب لا يمكن أن تراه في وسائل الإعلام الأخرى، ولكنه يبقي محدودًا للغاية.

وأخيرا حللت الباحثة أماندا ألكوت Alcott في رسالتها للماجستير خطاب الإعلام الروسي المتناول لمشاركة النسوة الشيشانيات في الأعمال الإرهابية

الجهادية، والتي تنطوي على استشهاد أو تضحية بالنفس أو «انتحار»، كما في حادث مدرسة بيسلان وفي المسرح الروسي الذي كان يعرض مسرحية (نورد أوست).

وتحلل الرسالة تسمية الشيشانيات بالأرملة السوداء، والأرملة السوداء هي عنكبوت سامة خطرة للغاية، وهذه العبارة التي صكها الكرملين تم انتقلت إلى وسائل الإعلام لها دلالات شديدة السلبية تجرد هاتيك النسوة من صفات الرحمة الأنثوية الشائعة في الثقافة الروسية لتضعهم في إطار غير إنساني، لاسيما وأن هذه التقارير لا تذكر شيئاً عن معانتهن أو أحزانهن التي أوصلتهن لهذه المرحلة الانتحارية[٢١].

وتغلب التغطية السلبية على وسائل الإعلام الروسية أكثر من الغربية، وذلك لأن أفعال (الأرامل السوداء) ما زالت بعيدة عن الأراضي الغربية حتى الآن، وكذلك لأن التغطية الإعلامية كانت تتسق مع وضع الإعلام الروسي للإرهاب الشيشاني في إطار الإرهاب الإسلامي العالمي منذ سبتمبر ٢٠٠١، وتحذيراً من احتمال استخدام (الكيميكازي النسائي) للأحداث الإرهابية لإفساد دورة الألعاب الشتوية في سوتشي ٢٠١٤ أو كأس العالم في روسيا ٢٠١٨.

وترى الباحثة أن إظهار التوحش الشيشاني يتسق مع شيء أخر في الثقافة الروسية، وهو أن الرجل أكثر أخلاقية من المرأة، أو التفوق الأخلاقي للرجل، ولذا فإن الإعلام الروسي كان يخاطب الروس بشيء يعرفونه جيداً في ثقافتهم، وهو وضع النزعة الذكورية المسلحة في أعلى مكانة في المجتمع؛ فالرجال الروس يمكن أن يفقدوا أرواحهم في سبيل غاية نبيلة وطنية وهي تخليص المجتمع الروسي من أخطار الأرامل السوداء.

وهو ذات الإعلام الذي يظهر التهديد الشيشاني ـ (والأنجوشي) فيما بعد ـ على أنه خطر غير عقلاني، حيواني وخطير للغاية من وحوش متعطشة للدماء، لكسب تعاطف الجمهور الروسي حيال كل السياسات الموضوعة لمكافحة الإرهاب لاسيما تلك التي تمس الحريات العامة، وكسب الشرعية لها خاصة أن الشعار الروسي المرفوع هو (لا تظهر أي رحمة .. لا تأخذ أسرى).

وفيما يتعلق بالإعلام الجديد، فقد رأى كلا من ماتيو فرجاني ودينيس زيوف Vergani & Zuev أن فيديوهات اليوتيوب تقدم فرصة نادرة للحصول على فهم أعمق للنزعة الجهادية الجديدة في مناطق شمال القوقاز الإسلامية، وتقارن هذه الدراسة بين خطوط الحكي البصري المرتبط بحركتين تمرديتين آسيويتين اللتين ساعدتا على تشكيل الحركة الإسلامية العولمية الاجتماعية: التمرد في الشيشان وشمال القوقاز، والتمرد في إقليم سينكيانج الصيني (تركستان الغربية)[٢٢].

وهدفت الدراسة إلى توصيف السرديات التي تستخدمها الحركات الإسلامية المسلحة في هاتين المنطقتين في توصيف الصراع، ولتعريف أوجه الشبه والاختلاف في استخدام تكنيكات البلاغة البصرية من قبل جماعات الجهاد الجديد لترويج رؤيتهم للعالم، ومن ثم تشكيل الهوية الجماعية/ الجمعية في هذه المناطق.

وتم اختيار اليوتيوب لأن أكثر من دراسة أشارت إلى استخدام شبكة التواصل الاجتماعي هذه من قبل الأقليات وجماعات الشتات والجماعات المهمشة في تشكيل الهوية الجمعية، وللترويج للإيديولوجيات المتطرفة للجماعات الجهادية المتمردة.

وافترضت الدراسة أن الخطاب العنيف أو المسلح هو الأكثر بروزاً من باقي الخطابات الأيديولوجية في الفضاء البصري، ورأت أنه يمكنها رصد المشابهات بين الأكواد الثقافية التي تستخدمها هذه الحركات العابرة للقومية.

وتركز هذه الخطابات على مهاجمة الخطابات الغربية الرأسمالية والاشتراكية والقومية والديمقراطية، وتعمد إلى التوجه إلى جماهير لديها قابلية لاستقبال مثل هذه الرموز الثقافية أملاً في تثويرها، وضم أعضاء جدد إلى الحركات الجهادية الجديدة في كل من شمال القوقاز ومنطقة الإيجور.

وانتهت الدراسة إلى أن الحركات الجهادية تستخدم سرديات متشابهه عن الاستشهاد وأهميته، ولكن هناك فروق بينها منها أن الفيديوهات المنتجة من قبل المتمردين الشيشان توجه باللغة الشيشانية إلى دائرة محددة مستهدفة

من الجمهور ولذا فهي غير مترجمة، وتمثل مقاومة للمعتدي الروسي، على حين فإن قليل من فيديوهات جماعات الإيجور في إقليم (سينكيانج) يعجب بها الجمهور ونادراً ما يدعمها هذا الجمهور الذي توجه إليه.

وربما تُستخدم هذه الفيديوهات ـ التي تبرز الإيديولوجية المسلحة ـ من أجل الدعاية ضد الأقلية من الإيجور بتصويرهم على أنهم مسلحون خطرون، وعلى الرغم من وجود عناصر جهادية عولمية في خطاب الإيجور فإن العناصر القومية مازالت غالبة على هذه الحركة التمردية ويتراجع الخطاب الديني في الخلفية.

وإذا انتقلنا للمنطقة الساخنة الثانية في روسيا والتي تضم أقليات مسلمة، فإننا نجد بعض الدراسات التي أجريت على المسلمين في حوض الفولجا – الأورال وتحديدا في تتارستان، فقد رصد هاورد ديفيز وأخرون Davis et al التوتر الذي تعاني منه جمهورية تتارستان على صعيد الهوية إذ لها لغتان رسميتان: الروسية والتترية، ووسائل إعلامها تنطق بلغتين: الأولى تخاطب جمهور المدن الأكثر تعلماً والتي يسكن فيها المتحدثون بالروسية، والثانية تخاطب جمهور الريف الأكثر محافظة على التقاليد والدين الإسلامي[٢٣].

وقد بدأت السلطات في موسكو تحس بالخوف من هذه الوسائل الإعلامية مثل صحيفة القبيلة الذهبية التي يصدرها حزب الاتفاق في تتارستان، والاسم بحد ذاته شديد الحساسية لأن القبيلة الذهبية هي التي غزت روسيا في القرن الثالث عشر، ولكن الأهم أن هذه الصحف في الحرب الشيشانية وصفت المقاتلون الشيشان بأنهم يدافعون عن حريتهم في مواجهة القهر الروسي في ظل إحساس القوميون التتار بعدم التكافؤ والندية بينهم وبين الروس في العاصمة كازان، على حين ينظر الأخيرين إلى التتار في الأرياف على أنهم غير متطورين ومادة خام للتطرف الإسلامي، وعلى ذلك فإن هناك توتر لغوي وثقافي تغذيه وسائل الإعلام.

وانتهت دراسة جريفليف وسابيروفا Garifulliv & Sabirova إلى أن إعلام الانترنت منذ ظهوره في روسيا أوائل التسعينات لعب دوراً هاماً في إبراز الهوية الإسلامية سواء كان لمسلمي الفولجا ـ الأورال (تتارستان

باشكورستان) أو في شمال القوقاز (الشيشان- داغستان- أنجوشيا) وفي الأخيرة ارتبط بالحربين الشيشانية- الروسية، ومن رحم هذه المواقع الإخبارية يجيء استخدام الإمارة القوقازية الإسلامية للإنترنت في الدعاية وإظهار الهوية والتي تطورت إلى مواقع إعلامية قوية لتجنيد المقاتلين في داعش ذوي الأصول القوقازية[٢٤].

فالإعلام الجديد الذي بدأ بتقديم نمط الحياة الإسلامية في الجمهوريات ذات الحكم الذاتي، انتهى لأداة في حرب دعائية تشمل تقريباً العالم كله وتكافح السلطات الروسية لتدميره واحتواءه.

فيوفي سياق مقارن شديد الدلالة، رصدت جالينا ميازوفيتش وأخريات- M azhevich et al صورة الإسلام كتهديد للأمن في بريطانيا وفرنسا وروسيا كما تعكسه أخبار التليفزيون، ورأت الباحثات أن كل من البلدان الثلاثة له تاريخ طويل من العلاقات مع الإسلام، وكل دولة لديها جالية إسلامية كبيرة تعد جزءا من تركيبتها السكانية، والدول الثلاثة أيضاً شنت حملات لمكافحة الإرهاب الذي تحفزه الأيديولوجيات الإسلامية.

وأتي التحليل بوشائج قوية بالسياق الجيو- سياسي المتوتر بعد الحرب الباردة، وبمفاهيم مثل: الحرب غير المتكافئة، والتوتر الداخلي، والإرهاب الدولي، وتم تحليل نشرات الأخبار والتعليق عليها في ثلاث قنوات تليفزيونية هي: بي بي سي البريطانية والقناة الثانية الفرنسية والقناة الأولى الروسية[٢٥].

وكان الهدف الأساسي للدراسة هو دراسة كيف يعرف التليفزيون السياسي وأخباره الهوية الأوروبية في مقابل الأخر الإسلامي، وما أوجه الشبه والاختلاف بين القنوات الثلاث في ذلك.

وخلصت الدراسة أنه بتحليل أخبار الصراع العرقي والطائفي في العراق والرسوم الكاريكاتورية للنبي محمد (ص)، والملابس الإسلامية (الحجاب)، والحج، وزيارة الباب لتركيا، أوضحت هذه الأحداث جميعها كيف يتم تعريف الأنا والأخر، والقيم الإسلامية في مقابل القيم الغربية الأوروبية وتم إظهار المسلمين وتهديدهم للأمن في شكل كراهيتهم لحرية التعبير كالآتي:

- النزعة الإسلامية العنيفة المعادية لليبرالية في مقابل الليبرالية الأوروبية.
- عدم التسامح فيما يتعلق بحرية التعبير في مقابل "احترامنا" لحرية التعبير.
- كراهيتهم العرقية في مقابل احترامنا للتعددية.
- تناحرهم الطائفي وكراهيتهم المتبادلة في مقابل العلمانية واحترامنا لبعضنا البعض.

كل هذه الأبعاد التي تؤكد على الفارق «بيننا وبينهم، بين قيمنا وقيمهم» وتشكل صورة الأخر لدى الأوروبيين، الأخر الإسلامي المتشيطن.

وأيضا تم التفرقة بين المسلم الطيب والمسلم الشرير؛ إذ إن الأول هو الذي يقر بسمو القيم الأوروبية، غير العنيف، الذي وجد في أوربا ملاذاً لروحه ومستقبل لأبنائه، والأخير يريد أن يفرض قيمه على أوروبا والغرب.

بيد أن هناك فارقاً بين روسيا من جهة وإنجلترا وفرنسا من جهة أخرى، فالقنوات البريطانية والفرنسية تتعامل مع العالم الإسلامي في شكل الثنائيات المذكورة ولكن روسيا تتعامل في شكل ثالوث هو الذات الروسية في مقابل الآخر الغربي الكاثوليكي أو البروتستانتي والأخر الإسلامي.

وتميل صورة الأخر الغربي للسلبية، فالعلمانية الغريبة بتحللها الأخلاقي هي عدوة للقيم الأرثوذكسية الروسية المتماسكة، ويقف الأخر الإسلامي بين الذات الروسية والأخر الغربي، وهو الأمر المتفق مع التاريخ الروسي الذي حكم فيه المسلمون روسيا لقرنين من الزمان تشربت روسيا فيهما بعضاً من قيم الأخر الإسلامي التتري في الأغلب، وكذلك فإن تأكيد التليفزيون الروسي على الهوية الأوروآسيوية، وخوفه من التوترات الدينية والعرقية بين المسلمين والمسحيين الروس، وحاجته لتطبيع العلاقات مع الشيشان، كل ذلك يجعل التليفزيون الروسي حذراً في شيطنة الأخر الإسلامي.

وتعزو الباحثات جزءاً من الصورة الروسية إلى فشل القناة الأولى الروسية في تضفير المواد التليفزيونية الغربية التي اشترتها في نشراتها بسبب نظامها السياسي والإعلامي المتخبط، وتُرجع الباحثات رجحان كفة الأخر الإسلامي العنيف غير المتسامح على الآخر الإسلامي المعتدل المقر بقيم الغرب إلى تحيز قيم الأخبار وإنتاجها في التليفزيونات الغربية، والنزعة السلبية للأخبار في الغرب.

وفيما يتعلق بتغطية الإعلام الروسي للقضايا والأحداث الإسلامية الأخرى، رأت دراسة إرينا كوزينتسوفا مورينكو الشاملة أنه فيما يتعلق بالحرب في العراق تم استخدام تعبيرات إسلامية أقل لوصف أحداث العنف هناك، حيث تم إظهار أعمال العنف على أنها تصدي لجيش الولايات المتحدة الغازي لاسيما وأن روسيا كانت قد رفضت شن حرب على العراق، وكانت قد حذرت من أن الدولة القادمة في العراق ستكون متطرفة إسلامياً.

وفيما يتعلق بقضية الملابس الإسلامية أو الحجاب، فقد بدأ الأمر بوجود قانون روسي يمنع تغطية الرأس في صور جوازات السفر، ولكن ضغط الجمهوريات ذات الحكم الذاتي في تتارستان وباشكورستان أجبر السلطات الروسية على إلغاء هذا القانون، وبينما أبرزت صحف قليلة الأمر على أنه احترام للخصوصية الثقافية للمسلمين جاءت أبرز التغطيات لتضع الأمر في إطار زيادة الأسلمة في روسيا، ولتؤجج من مخاوف فقدان شخصيتها الثقافية، وكانت الخطورة هي ربط كلمة الحجاب بالتطرف الإسلامي وتصوير الأمر على أنه تنازل سياسي، وتم تهميش الإطار البديل وهو أن الحجاب دليل على القوة الأخلاقية لقطاع من الروس، وبدون هذه الأخلاق فلا مستقبل لروسيا[٢٦].

وفيما يتعلق بتغطية احتفالات المسلمين في روسيا بعيد الأضحى، فإن هذه المناسبات هي الأقل في ربطها بأي إرهاب أو عنف، وإن لم يخل الأمر من ضرورة تدخل الدولة لتنظيم ذبح الأضحية، وتم إبراز تهنئة بوتين للمرجعيات الإسلامية كدليل على تسامح الدولة، ولم يخل الأمر من بعض القصص الخبرية عن عمليات الذبح هذه بجعل المسلمين متعطشين للدماء، ورد المرجعيات الإسلامية على ذلك بأن الذبح دليل على الإيثار ووضع الفقراء في الاعتبار.

وعلى العموم، فإن هذه الدراسة - بالمقارنة مع دراسات أخرى - أبرزت أن تغطية الإسلام عامة في الصحافة الروسية أفضل من الصحافة الغربية، وأبرزت أن تغطية الإسلام في الصحف الروسية أفضل من التليفزيون الروسي المروج لصور ذات تبسيط مخل عن الإسلام.

وفيما يتعلق بالعوامل التي تجعل تغطية الإسلام متحيزة في الصحافة الروسية، فقد انتهت الدراسة بعد مقابلات مع القائمين بالاتصال في شكل نقاش جماعي لعدة أسباب هي: التعليم الإلحادي للقاسم الأعظم من الصحفيين الروس خاصة الجيل الذي تجاوز الأربعين، عدم إدراكهم للحقائق الأساسية عن الدين الإسلامي والمسلمين وتركيزهم على الأحداث الساخنة في تغطية الشأن الإسلامي مع أحداث العنف والإرهاب والحروب.

فضلا عن عوامل: غياب مفهوم التخصص في الشئون الدينية في الصحف الروسية فليس هناك متخصصون في أي دين إسلام أو يهودية أو مسيحية، إذ تغلب السلبية على تغطية أي دين من الأديان، إذا كان هذا هو الوضع في الصحافة المكتوبة فإنه أسوأ في قنوات التليفزيون الروسية المفتقدة للمتخصصين الذين يقدمون رؤية متوازنة للإسلام واعتمادهم على بعض المتخصصين ذوي التحيزات ضد الإسلام وأغلبهم من أصل يهودي.

ورصد البحث الذي أجرته مؤسسة سوريا للبحث والتقييم (سيرو) صورة الحرب الأهلية في سوريا وأطرافها في ١١٩ قصة خبرية نشرت في وسائل الإعلام الروسية المطبوعة والالكترونية والراديو والتليفزيون من خلفيات أيديولوجية عدة، وبلغ عدد وسائل الإعلام ٣٩ وسيلة إعلامية معظمها كانت متعاطفة ومرتبطة بالدولة الروسية، ثم تأتي الوسائل المعتدلة الوسطية وأخيرا الوسائل الناقدة للدولة الروسية[٢٧].

واختيرت الفترة الزمنية من أكتوبر ٢٠١٣ إلى نهاية مارس ٢٠١٤ لأنها تضمنت عدة تطورات في الدور الروسي في الصراع، وكذلك الإعداد لمؤتمر جنيف ٢ للسلام، وكذلك الصراع في شبه جزيرة القرم.

عكست نتائج الدراسة بشكل كبير بيئة الإعلام الروسي الموالي

في أغلبه للدولة الروسية في تبني أطروحاتها بشأن الصراع والدفاع عنها، أو على الأقل الامتناع عن معارضتها بشكل واضح، وأظهرت تغطية سوريا في الإعلام الروسي أن السياسات الروسية نادرا ما يتم نقدها، وعلى العكس من المطبوعات القليلة التي خرجت عن خطاب الدولة (أبرزهم صحيفة نوفايا جازيتا)، فإن معظم التقارير ساندت بقوة الجهود العسكرية والدبلوماسية الروسية وهاجمت بوضوح فرقاء الصراع ما عدا الفصيل الحاكم.

وبينما كانت التغطية الإعلامية في الأغلب لا مبالغة فيها ولا إشعال للصراع المسلح، إلا أن الإعلام أبرز تعاطفه مع نظام الأسد وضد بقية الفرقاء بأساليب حاذقة مثل: وضع السياق الاستراتيجي، الحذف والإضافة، أو الحضور/ الغياب، تسمية السياسات بلغة محبذة إن كانت للأسد ونظامه وبلغة منفرة

إن كانت لبقية فصائل الصراع خاصة داعش وينطبق هذا على القوى الفاعلة في الأحداث التي تم تأطيرها بشكل بالغ السلبية إن كانت في غير صالح الدولة الروسية، وبرز معلقون حكوميون على الأحداث مثل (سيرجي لافاروف) على حين غابت بشكل عمدي الرؤى المعارضة أو البديلة لرؤى الدولة.

ونلاحظ على دراسات هذا المحور الآتي:

- معظم البحوث رصدت تغطية الأحداث الإرهابية عندما طالت الأراضي الروسية، وليس الأحداث الإرهابية الأخرى حتى ولو كانت في أهمية أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١.
- رصدت تغطيات الإعلام الروسي الأحداث الدولية في الدول ذات الأهمية الجيوسياسية لروسيا وعلى رأسها سوريا والعراق، وراعت الدراسات أن تبرز صورة الفعاليات الأمريكية السياسية والعسكرية كجزء لا يتجزأ من الشأن المتعلق بالأمن القومي الروسي.
- قليلة هي الدراسات التي رصدت تغطيات قضايا مثل الحجاب الإسلامي، وكيف يحتفل المسلمون في روسيا بأعيادهم الدينية.

- جمعت الدراسات بين المعالجتين الكمية والكيفية وتفوقت الأخيرة في تحليل الخطاب لا سيما الخطاب السردي.
- غابت المداخل السيمولوجية عن دراسة تغطيات الإعلام الروسي في الصور والكاريكاتير، وحضر مدخل التحليل الثقافي في أكثر من دراسة كيفية سواء درس الخطاب المكتوب أو المرئي.

من العرض السابق لأهمية الدراسة والدراسات السابقة، يتبين لنا قلة الدراسات العلاماتية والثقافية الراصدة للكاريكاتير المنشور في الصحافة

الروسية أو الإعلام الإلكتروني الروسي، والغياب التام لتلك الدراسات الموصفة

والمفسرة للرسوم الكاريكاتورية المتناولة لشئون العالم الإسلامي، في ظل تركيز أغلب الدراسات المعروضة على تغطية الأحداث الإرهابية، وعلى تحليل الخطاب اللغوي غير البصري.

فضلاً عن ذلك، فقد ثبت أيضاً غياب الدراسات التي حاولت رؤية الكاريكاتير كخطاب مصور للأنا والآخر الثقافي، لا سيما في ظل خصوصية الإسلام بالنسبة لروسيا المختلفة عن خصوصيته بالنسبة لباقي القوى الأوروبية والغربية عامة.

وعلى هذا، تتحدد مشكلة الدراسة في تحليل الأفكار المتواترة عن شئون العالم الإسلامي والسائدة في خطاب الكاريكاتير، واختبار علاقة استخدام أفكار متواترة بعينها بطبيعة رسام الكاريكاتير، فضلا عن رصد النماذج الأساسية للكاريكاتير وكذا تكويناته واستعاراته وتناصه في معالجة قضايا وأحداث العالم الإسلامي، ثم الانعطاف لدراسة التحليل الثقافي لكاريكاتير العالم الإسلامي متمثلاً في استدعاء الأحداث التاريخية لتفسير الصورة في الوقت الحاضر عن طريق رصد (التناص) التاريخي بين نصوص الكاريكاتير والنصوص الثقافية الروسية المصورة للإسلام، دوله وأحداثه وقضاياه.

◆ ◆ ◆

وعلى ضوء المشكلة التي تتعامل معها هذه الدراسة والإطار النظري الذي تستند إليه، فإنها تسعى إلى تحقيق الأهداف التالية:

١. تحديد الأفكار المتواترة عن العالم الإسلامي (التيمات) ومستويات استخدامها في الصحف الروسية المختارة .

٢. اختبار العلاقة بين رسام بعينه وبين استخدام الأفكار المتواترة عن العالم الإسلامي.

٣. تحديد الدوال الأساسية المعبرة عن المسلمين رجالا ونساء في الصحف المدروسة ومقارنتها بالدوال الأساسية للغربيين وكذا إجراء التحليل النماذجي لهذه الدوال .

٤. تحديد الاستعارات والكنايات البصرية المستخدمة في الكاريكاتير المعالج لقضايا وأحداث العالم الإسلامي في الصحف المدروسة والمعاني المتضمنة في هذه الاستعارات.

٥. إجراء التحليل الثقافي للكاريكاتير عن طريق تحديد نصوص التاريخية والآنية التي تتقاطع مع نصوص الكاريكاتير والتي تعبر عن الأنا الروسية والآخر المسلم، أي التناص التاريخي، وكذا التناص المعاصر.



تهدف الدراسة إلى الإجابة على ثلاث مجموعات من التساؤلات تتعلق كل مجموعة بأداة تحليلية متمايزة في الدراسة:

١- تساؤلات تحليل المضمون:

- ما الأفكار المتواترة الناقدة لرجال الأعمال أو (التيمات) التي يستخدمها الكاريكاتير في الصحف المدروسة؟
- ما العلاقة بين الأفكار المتواترة وطبيعة الرسام؟

٦. تساؤلات التحليل العلامي (السيميولوجي):

- ما الدوال الأساسية المستخدمة لوصف أحداث العالم الإسلامي في الصحف المدروسة، وما أوجه التشابه والاختلاف بينها التي تصنع ما يسميه العلاماتيون بالنموذج الأساسي للعلامات؟
- ما الاستعارات التي يستخدمها الكاريكاتير المعالج لشئون العالم الإسلامي في الصحف والمواقع الإلكترونية المتخصصة في نشر رسوم الكاريكاتير؟ وما المعاني المتضمنة لها؟
- تساؤلات التحليل الثقافي:
- على ضوء النماذج المنتقاة للتحليل، ما التناص التاريخي الذي يصنعه خطاب الكاريكاتير مع النصوص الثقافية التاريخية الروسية المصورة للأنا والآخر المسلم؟
- ما الاستعارات التي يستخدمها الكاريكاتير لشئون العالم الإسلامي وتتناص مع النصوص الثقافية التاريخية أو نصوص الثقافة الشعبية في روسيا؟



نوع الدراسة: تتميز هذه الدراسة بالطابع الوصفي في مرحلتها الأولى الراصدة للأفكار المتواترة عن العالم الإسلامي، وكذا الراصدة لعناصر النماذج الأساسية والاستعارات العلاماتية، ثم تنحو الدراسة في مرحلتها الثانية منحى تفسيرياً بإجراء تحليل ثقافي لرسوم الكاريكاتير المعالجة لشئون العالم الإسلامي للإجابة على السؤال التفسيري الأهم: كيف تتكون الصورة عن الإسلام والمسلمين ثقافياً عن طريق استعارة النصوص التاريخية المصورة للأنا والآخر، أو استعارة نصوص من الثقافة الشعبية أو الجماهيرية.

مناهج الدراسة:

- المنهج المسحي: وقد أفاد الباحث في دراسته للأفكار المتواترة عن العالم الإسلامي بشكل شامل خلال الفترة الزمنية المختارة .
- دراسة الحالة: لما كان الكاريكاتير الروسي المعالج لشئون العالم الإسلامي لم يُدرس علاماتياً أو ثقافياً من قبل، فقد اختار الباحث حالات ممثلة دالة للإجابة على التساؤلات العلاماتية والثقافية، إذ إن منهج دراسة الحالة يغطي عن طريق الدراسات المتعمقة مجموعة من المعلومات الوصفية والتفسيرية القيمة والتي لا يوفرها المسح الشامل.
- أدوات الدراسة:
- تحليل المضمون: وقد استخدمه الباحث بشقيه الكمي والكيفي لدراسة الأفكار المتواترة عن العالم الإسلامي في الصحف والمواقع الإلكترونية المدروسة.
- التحليل العلامي (السيميولوجي): وذلك في تحليل ومقارنة السمات النماذجية والتوظيفات الاستعارية المستخدمة في الكاريكاتير المعالج لشئون العالم الإسلامي، والتي يترتب عليها معاني ظاهرة وأخري كامنة عميقة، وهي اختيارات واعية يجريها رسامو الكاريكاتير لإحداث تأثير علامي خاص، ويقتضي هذا التوظيف العلامي وسائل دقيقة تتيح التعرف عليه وتوصيف تجلياته.
- التحليل الثقافي: ومتوسلاً أيضاً بأدوات التحليل العلامي، حاول الباحث أن يجري تحليلاً ثقافياً للإجابة على التساؤلات التفسيرية وهي: كيف ولماذا تتسم صورة المسلم بالسلبية، وذلك بالرجوع تاريخياً إلى الخطابات الروسية المصورة للأنا والآخر، وبالرجوع لنصوص الثقافة الشعبية.

اختيار عينة الدراسة:

تمثلت مادة التحليل في كل الكاريكاتير المنشور في الصحف الروسية لأشهر رسامَيْن روسيين والأوسع انتشارا في الصحف الروسية: سيرجي تايونين Tunin وسيرجي إلكين Elkin خلال الفترة من يونيو ٢٠١١ وحتى أكتوبر ٢٠١٥ .

وقد جمعت الرسوم الكاريكاتورية لسيرجي تايونين من أرشيف موقع حركة الكارتون التي يرسمها في صحيفة كومرسانت الخاصة، وصحيفة كومرسانت Kommersant هي الصحيفة اليومية الاقتصادية الرائدة في روسيا، وأكثر الصحف مصداقية وموثوقية وتأثيراً في صانعي القرار الروسي، ونصف قرائها تقريباً من المديرين والمتخصصين(٢٨).

وجمعت رسوم الثاني من أرشيف صحف موسكو تايمز والموقع الإلكتروني للنسخة الروسية لراديو أوربا الحرة، وكذا من الصحيفة الإلكترونية politi.ru(٢٩).

وضمت العينة أعمال ثلاثة رسامين آخرين ينشرون رسومهم على موقع حركة الكارتون وهم: إيجور كورلجريف Kolgarev، وإيجور باشيتشينكو Pashchenko، وفلاديمير خاخانوف Khakhanov، أي أن الدراسة تعالج الكاريكاتير الروسي على المستويين الاحترافي والهاوي، في كل من الإعلام المؤسسي والإعلام الجديد، وقد اختير الثلاثة الأخيرين رغم قلة أعداد رسومهم وغلبة الهواية عليهم لأهمية رصد هذا الفضاء الإلكتروني، ووضوح تأثير رسامي الإعلام المؤسسي عليهم خاصة تايونين، وكذلك لأن واحدا من الثلاثة وهو إيجور كورلجريف ذو ارتباط قوي بالكنيسة الأرثوذكسية الروسية إذ يعمل أيضا منشدا دينيا ومدونا في الشئون الدينية وعكست رسومه ذلك كما سيتم تبيانه.

بلغ مجموع الرسوم الكاريكاتورية المحللة ١٠٢ كاريكاتيرا موزعة على الرسامين على النحو التالي: سيرجي تايونين (٥٤)، سيرجي إلكين (٤٠)، إيجور كورلجريف (٥)، إيجور باشيتشينكو (٢)، فيلاديمير خاخانوف (١).

وقد تم اختيار الفترة من يونيو ٢٠١١ إلى أكتوبر ٢٠١٥ لأن عددا من القضايا

والأحداث المهمة المرتبطة بالعالم الإسلامي وقعت أثناءها وهي:

- الثورات التي سميت بالربيع العربي في تونس ومصر وليبيا واليمن وتداعياتها، وكان الباحث ينتوي البدء من يناير ٢٠١١ ولكن لم يتوفر أرشيف سيرجي إلكين إلا منذ يونيو ٢٠١١ فقط.
- الحرب الأهلية السورية بمراحلها وتطوراتها المختلفة، وتدخل روسيا عسكريا في سوريا.
- صعود القوى الإسلامية الراديكالية أو المتطرفة في شمال القوقاز وحوض الفولجا-الأورال ووصول ما يقرب من ٤٠٠٠ منهم إلى سوريا للقتال في صفوف تنظيم الدولة الإسلامية في سوريا والعراق والمسمى ب(داعش).
- إعلان ولاية القوقاز الإسلامية في روسيا وتصاعد الأعمال المقاومة للإرهاب على حد التسمية الروسية.
- تصاعد أحداث العنف الإسلامية في أوربا، وأبرزها اغتيال رسامي الكاريكاتير الفرنسيين لصحيفة شارلي إبدو.

الإطار الإجرائي (أساليب التحليل والقياس):

- بناء فئات التحليل: تم بناء استمارة تحليل المضمون والتحليل العلاماتي الثقافي في إطار الفئات التالية:
- فئة الرسام: سواء ارتبط بصحف مؤسسية أو بمواقع ومدونات إلكترونية.
- فئة الفكرة المتواترة أو(التيمة) Theme : وقد آثر الباحث استخدام هذه اللفظة المستعارة من البحوث السيميولوجية أو العلاماتية، وهي تعني فكرة واسعة أو رسالة عريضة يتم نقلها بواسطة عمل فني أدائي كالتمثيل والرقص أو بصري كالصورة الفوتوغرافية والكاريكاتير.

- النموذج الأساسي Paradigm: وهو مجموعة من الدوال الأساسية المرتبطة بعضها بالبعض، والتي تصنع صورة سائدة لموضوع ما أو شخصية ما كما في شخصية المسلم وفي النص اللغوي تتكون هذه الدوال من الأفعال والأسماء والصفات كل على حدة، أما في النص البصري فتتكون من خطوط الرسام كما في الكاريكاتير، ويعنى التحليل النماذجي Paradigmatic Analysis بالتعرف على كل نموذج متمايز يصنع بدوره معان ظاهرة للنص وأخرى عميقة

- مستترة له، وكذلك يجرى التحليل النماذجي اختباراً علاماتياً باستبدال بعض الدوال داخل النموذج بدوال أخرى والتي تغير من معناه، ويعرف هذا الاختبار باختبار التباديل أو Commutation Test.

- الاستعارةMetaphor : تعبر الاستعارات عن المعاني غير الاعتيادية والتي يلزمها إعمال الفكر لإدراكها، والاستعارة تشير إلى معنى أو مدلول ما تحول بدوره إلى دالة أو علامة تشير إلى معنى أو مدلول آخر، والاستعارة تعول على المعاني الضمنية التي يفهمها القارئ من السياق، وتعنى هذه الدراسة برصد التشبيهات التي يصنعها رسامو الكاريكاتير للمسلمين قادتهم وعوامهم ومعانيها الصريحة والضمنية، تلك التشبيهات التي تستخدم مزيجاً من الأساليب البلاغية المعتادة: كالمبالغة والتورية والمفارقة والعبث بالإضافة لخطوط الرسام.

- التناصIntertextuality : وهي عناصر الشكل والمحتوى التي تربط الكاريكاتير كنص بغيره من النصوص سواء أكانت رسوماً كاريكاتيرية أو نصوصاً إعلامية بصرية أخرى، وهي الروابط التي يتعرف عليها الباحث عند مقارنة النصوص، وهذه الدراسة سوف تعنى بالتناص العلاماتي، والتناص الثقافي التاريخي.

- الثنائيات المتعارضة Binary Oppositions: وهي التكوين العلاماتي الذي يؤدي معنى أيديولوجياً للعلامات، وقد اخترع نظام

- العلامات الثنائيات المتعارضة للتبسيط وسهولة التواصل، وفيها يجري الرسام تخفيضاً أو اختصاراً لكل العلاقات المعقدة والمتشابكة في

- المجتمع في شكل تفسيري واحد هو متصل من قيمتين متعارضتين مثل الثنائية المتعارضة الشهيرة بين الأوربي المتحضر والمسلم المتخلف، ويرى دارسو العلاماتية أن إحدى الثنائيات المتعارضة يكون لها الهيمنة على الأخرى سواء هيمنة متعلقة بالجندر أو النوع مثل ثنائية (الرجل-المرأة) أو بالإثنية/العرق مثل ثنائية (الأبيض-الأسود) أو بالطبقة مثل ثنائية (الأغنياء-الفقراء) أو ثقافية (الأنا- الآخر) وهو ما يؤسس لقيم عميقة في الثقافة.

- الأسطورة العلاماتية Myth : وهي علاقة أو فكرة سائدة تعبر بشكل استعاري عن كل المفاهيم في نظام علاماتي معين، وقوة الأسطورة تكمن في أنها تبسيط مخل يتم تداوله في نظام العلامات حتى يصبح بحد ذاته علاقة واضحة تعبر عن قيم ثقافية معينة، مثل أسطورة ارتباط الرجل الأبيض بالجمال والذكاء والحضارة أي أنه المعبر عن الإنسانية الحقة، وأي عرق أخر هو أقل إنسانية[٣٠].

٢- تحديد فئات العد أو القياس: اعتمد الباحث على وحدة الفكرة في تحليل الأفكار المتواترة المصورة لشئون العالم الإسلامي، بينما اعتمد التحليل الكيفي الانتقائي لنصوص كاريكاتيرية معينة على وحدات التحليل العلاماتي والتحليل الثقافي الذي سيتم شرحها بالتفصيل في الدراسة.

٣- اختبارا الصدق والثبات: تحرى الباحث بناء فئات استمارات تحليل المضمون، والتحليل العلاماتي، والتحليل الثقافي بالشكل الذي يعكس أهداف البحث بأكبر درجات الصدق بالإضافة إلى التعريف الدقيق لهذه الفئات، وتم اختبار الثبات بين الباحث ونفسه بعد ثلاثة أسابيع من التحليل باستخدام معامل الثبات (هولستي) وقد بلغت درجة الثبات المتوسطة لكل الفئات المحللة كمياً ٩٣٪ وهي نسبة ثبات جيدة.

٤ ـ التحليل الإحصائي للبيانات: اعتمدت الدراسة فقط على الوصف التكراري المزدوج والنسب المئوية لمتغير الأفكار المتواترة عن العالم الإسلامي في علاقته برسام بعينه وإجراء اختبار معامل التوافق لقياس شدة العلاقة، وذلك لطبيعة الدراسة المعتمدة على التحليل الكيفي بالأساس.

نتائج الدراسة:

أولا: تحليل الأفكار المتواترة للكاريكاتير الروسي عن العالم الإسلامي

فئة الرسام / فئة الأفكار المتواترة	سيرجى تايونين		سيرجى إلكين		الإجمالي	
	ك	%	ك	%	ك	%
الإرهاب مكون أساسي للدين الإسلامي	4	7.4	2	5	6	6.5
تخلف المسلمين الحضاري و تعصبهم	5	9.3	4	10	9	9.6
مواجهة التطرف الإسلامي	9	16.6	3	7.5	12	12.8
تلون قادة الشيشان وتظاهرهم بالسلمية	0	0.0	4	10	4	4.3
خطر المسلمين على الحضارة الغربية	5	9.3	3	7.5	8	8.5
أزمات إيران مع روسيا والغرب	4	7.3	3	7.5	7	7.4
الحرب الأهلية في سوريا	2	3.7	6	15	8	8.5
توحش الإرهاب الإسلامي	3	5.6	2	5	5	5.3
الموقف الأمريكي الملتبس من الإرهاب الإسلامي	6	11.1	1	2.5	7	7.4
المرأة المسلمة القاهرة والمقهورة	4	7.4	3	7.5	7	7.4
الأثر السلبي لثورات الربيع العربي	4	7.4	3	7.5	7	7.4
وصول الإسلاميين للحكم عن طرق الانتخابات	5	9.3	0	0	5	5.3
أخرى	3	5.6	6	15	9	9.6
الإجمالي	54	100	40	100	94	100

جدول رقم (1)

العلاقة بين فئة الرسام والأفكار المتواترة

يوضح جدول (١) الذي يرصد العلاقة بين نوع الرسام ونوع الأفكار المتواترة عن العالم الإسلامي في الكاريكاتير أن الأفكار تقاربت بين الرسامين بحيث أن قيمة المعنوية لاختبار كا^2 لم تكن دالة إحصائيا (٠٩٣,٠

ومن ثم ليست هناك علاقة إحصائية بين المتغيرين، ويكشف أيضا أن التحليل الكمي للكاريكاتير يعد أضعف أنواع التحليل في إدراك المعاني الثرية لكل رسم على حدة، ولكن الباحث آثر أن يضمنه دراسته على الأقل لتجميع الأفكار وتنظيمها، ولتوضيح الأفكار الذي تميز بها كل من الرسامين ولماذا.

١- سيرجي تايونين:

كانت فكرة (مواجهة التطرف والإرهاب الإسلامي) هي الفئة الأكثر حضورا للرسام تايونين، بيد أن هذه الفكرة تحورت على يديه لتتحول إلى مواجهة التطرف الإسلامي ليست كافية ولا ناجعة، أو أن هذه الجهود تحولت إلى فرجة للعالم أكثر من كونها مواجهة حقيقية، خاصة بين داعش والولايات المتحدة أو بين تنظيم القاعدة والولايات المتحدة، حيث تظهر الأيقونة الداعشية السوداء أمام أيقونة الجندي الأمريكي في ملعب على شاشة تليفزيون بينما يظهر المتفرجون مشغولين عن الصراع العنيف بقراءة الجرائد[٣١]، ومرة تظهر أيقونة الأفغاني أو الباكستاني أمام الجندي الأمريكي في ملعب لكرة القدم ومن حولهما الإعلانات، ومرة في ملعب للتنس بينما يستخدم الأفغاني القنبلة اليدوية ككرة التنس[٣٢].

وربما تنتقل الفكرة لمجال أخر مصورة جهود الغرب الضعيفة في شكل شخصية (دون كيشوت) وهو يواجه امرأة مسلمة تطحن غلة في (رحى) أو طاحونة يدوية تقليدية من الحجر وبجانبها رجل مسلم يحمل مدفع (أر بي جي) معلقا تايونين بأنها أحدث طاحونة، في تورية بين طواحين الهواء التي كان يحاربها دون كيشوت وطاحونة المرأة المسلمة[٣٣]، فيما كان أحيانا يعبر تايونين عن حلمه بأن يقطع الجيش الأمريكي رأس داعش كما يقطعون هم الرؤوس[٣٤]، وعن سخريته من القس الأمريكي تيري جونز الذي يتصور أن حرق القرآن هي طريقة لمقاومة المد الإسلامي.

وتجيء فكرة (الموقف الأمريكي الملتبس من التنظيمات الإسلامية المسلحة) في المركز الثاني فمرة يواجه أوباما الإرهابيين في سوريا، ومرة

يعطيهم السلاح، ومرة يعتذر عن حربه لهم[٣٥]، وهي فكرة تميز بها تايونين عن إلكين موضحا ما حدث بالفعل، وقالت به كثير من الدراسات السياسية العميقة[٣٦].

وتميز تايونين بفكرة (وصول الإسلاميين إلى السلطة عن طريق الانتخابات) في كل من تونس ومصر وتركيا وأوكرانيا بوجود الهلال ـ الرمز الإسلامي الشهير ـ حاضرا في صناديق الانتخابات[٣٧]، تلك التي لم تظهر على الإطلاق في رسوم إلكين.

وتأتي فكرتان قريبتان من بعضهما في المركز الرابع هما: (تخلف المسلمين الحضاري وتعصبهم)، و(خطر المسلمين على الحضارة الغربية)، في الأولى يصور تايونين جموع المسلمين من مختلف البلدان وهم ينهالون بالحجارة والعصي على قصاصة من فيلم سينمائي مسيء للرسول (ص) تحول إلى ثعبان كوبرا[٣٨]، وفي الثانية يصور الرسام الأيقونة الداعشية وهي تقطع رأس تمثال فينوس أيقونة الجمال للحضارة الغربية، تلك الحضارة التي تعرف نفسها على أنها يهودية مسيحية، ويونانية رومانية[٣٩].

وتشاركت فئتان في المركز الخامس هما: (المرأة المسلمة القاهرة والمقهورة)، (والأثر السلبي لثورات الربيع العربي)؛ في الأولى تظهر المرأة المسلمة المرتدية النقاب الذي لا يظهر منه غير العينين على أنها شيء في يد الرجل مثل حقيبة اليد، أو أنها تستحم عارية إلا من حزام ناسف على خصرها قبل قيامها بعملية إرهابية، وتعددت آثار الربيع العربي السلبية منها: ظهور تنظيم همجي مثل داعش، ومقتل حليف مثل معمر القذافي.

ثم جاءت (أزمات إيران مع روسيا والغرب) في المركز السادس حيث تظهر إيقونة الشخص الإيراني في ٢٠١٣ وهو يتوسل لشخص غربي لإنهاء العقوبات وشراء البترول، وأيقونته في ٢٠١٥ عندما اتفقت إيران مع الغرب وبدأت في بيع بترولها وهو يغرق شخصاً روسياً في بانيو أو حوض استحمام مملوء بالبترول، نتيجة الانخفاض الهائل في سعره بعد تزايد المعروض منه وتأثر روسيا اقتصاديا بذلك.

وجاءت أفكار (أخرى) في المرتبة قبل الأخيرة لأنها تعرضت لموضوعات جد مختلفة بعضها إيجابي مثل: وقوف المقاومة الفلسطينية أمام القهر الإسرائيلي، أو سلبي كوجود بن لادن في الجحيم بعد قتله، أو محايد ضاحك يعلق على حدث أو موقف ما مثل: وجود الهيكل العظمي للزعيم الفلسطيني الراحل ياسر عرفات على طاولة الفحص الطبي وهو يبدو جالسا وكأنه إنسان حي يخاطب طبيبا.

ثم جاءت الحرب الأهلية في سوريا في المرتبة الأخيرة، وفي بدايتها صور تايونين المقاومة السورية على أنها نمل صغير يسهل على الرئيس بشار الأسد قتله بالحذاء، ثم تتعاظم شرورها بالحاجة لتدخل أمريكي لضرب داعش، فيما سكت تايونين عن الضربات الروسية تلك التي تميز بها إلكين كما سنوضح.

٢ـ سيرجي إلكين

جاءت فكرة (الحرب الأهلية في سوريا) في صدارة أفكار إلكين وتمركزت حول ضربات روسيا الجوية ضد داعش وفيها يبرز بوتين في ملابس لاعبي هوكي الجليد وهو يصوب الكرة على رؤوس أيقونات داعشية سوداء، أو على شكل أرنب يفتح عش الدبابير على نفسه في سوريا، وفيها أيضا الرئيس بشار الأسد وهو يمسك بقنبلة يدوية تحمل الرمز الروسي الشهير: الدمية ماتريوشكا(٤٠).

في المركز الثاني جاءت فكرة (تخلف المسلمين الحضاري وتعصبهم)، وفيها يرسم إلكين إثنان من متطرفي الحركات الإسلامية المسلحة وهما على باب الجنة المنشور بجانبه إعلان يقول: أنه بدلا من أن يكون لكل "شهيد" منهم ٧٠ من الحور العين، فإنه سيتم إجباره على قراءة ٧٠ رسما كارتونيا.

وتشاركت ٥ فئات من الأفكار المتواترة في المركز الثالث هي كما في ترتيب الجدول: (مواجهة الإرهاب الإسلامي) مثل الكاريكاتير الذي يصور أحد الرسامين وهو يشحذ أو يحد قلما من أقلام الرسم لمواجهة الإرهاب بعد

حادث اغتيال رسامي مجلة تشارلي إبدو، وكذا (خطر المسلمين على

الحضارة الغربية) مثل الرسم المصور لأحد إرهابي داعش وهو يتسلل إلى منزل كتب عليه اسم أوروبا بينما سكانه في الداخل منشغلين في نقاش حاد. وكذلك فئة (أزمات إيران مع الغرب) وفيها يظهر أحد الإيرانيين جذلا بعد رفع العقوبات وهو ممسك بخرطوم موصل بأنبوبة بترول يبعثره في كل مكان، وفئة (المرأة المسلمة القاهرة والمقهورة) وفيها تظهر امرأة مسلمة ترتدي النقاب وهي تخفى لافتة ترفعها امرأة غربية ـ في يوم المرأة العالمي ـ بلافتة أخرى سوداء على شكل النقاب الإسلامي، وفئة (الأثر السلبي لثورات الربيع العربي) وفيها يظهر إنسان عربي بجلباب وطاقية من نفس قماش الجلباب مربوط بسلسلة إلى جهاز كمبيوتر(٤١).

ثم تأتي الفئة التي تميز بها سيرجي إلكين وهي (تلون قادة الشيشان) في المركز الثالث وفيها يظهر رئيس الشيشان رمضان قاديروف وقد استبدل خوذة قائد الدراجات النارية بغطاء الرأس الشيشاني التقليدي تندرا بالعلاقة الخاصة بين بوتين وقاديروف الذي يظهر في رسم أخر وهو يرقص رقصة روسية فلكلورية.

ثم تشاركت فئتان في المركز الرابع هما (الإرهاب مكون أساسي للدين الإسلام) وفيه تتخذ البندقية الآلية الشهيرة (كلاشينكوف) شكل المسلم الساجد على سجادة الصلاة، وفئة (توحش الإرهاب الإسلامي) وفيه تتخذ داعش شكل الكلب الأسود العقور.

ثم تأتي فئة أخرى، وفيها تركزت الرسوم على مصر للدرجة التي من الممكن أن نطلق عليها (أفكار ضاحكة عن مصر)، وفيها يظهر رجل مرتدي الزي الفرعوني وهو ينظر إلى القطة: الإلهة الفرعونية الشهيرة على جدار أثري، وهو يقول مستخدما التورية اللفظية: (آووه .. ليست هذه القطة مرة أخري !)، ولفظ القطة في اللغة الروسية يتشابه مع كلمة أخرى تعني النقش البارز ولفظة أخرى تعني المرأة اللعوب، وفي رسم أخر تظهر أيقونة الدب

الروسي الشهيرة والتي بدلا من أن تحتفل بذكرى صمود ستالينجراد في الحرب العالمية الثانية تتوجه بملابس البحر إلى مصر للسياحة.

وكل الرسوم لا تحمل أي معنى سياسي لما يحدث في مصر، اللهم إلا في كاريكاتير واحد يظهر فيه أحد رجال الجيش وهو يستعجل الرئيس الأسبق محمد مرسي للدخول في تابوت فرعوني من الحجر المنقوش، تصويرا للمهلة التي أعطاها الجيش للإخوان المسلمين قبل إزاحتهم في ٣ يوليو ٢٠١٣[٤٢].

ويعزو الباحث وجود فئات لدي إلكين تركز على الشأن الروسي كما في الشيشان إلى أن جزءا كبيرا من رسومه ينشر في موقعي Politi.ru والنسخة الروسية لراديو الحرية، وهما الموقعين الذين يستخدمان اللغة الروسية فقط، ولذا جاءت معظم رسوم إلكين تحوي نصوصا روسية ترجمها الباحث كي يفهم السياق الضاحك أو الناقد للكاريكاتير.



ثانيا: التحليل النماذجي للكاريكاتير الروسي عن العالم الإسلامي

يهتم دارسو السيميولوجيا البنائية بتحديد الدوال المركزية أو الرئيسية في كل نظام علامي يتناول موضوعاً بعينه، وكذا يهتمون بالعلاقات البنائية التي يصنعها تعاضد وتساند هذه الدوال، تلك الأخيرة التي تشكل بدورها نموذجاً أساسياً أوParadigm ، ومجموعة الدوال الأساسية التي تشكل نموذجاً ما تنحو إلى تكوين نمطاً أساسياً لا يمكن أن يحل محله نمط أخر إلا بتغيير المعاني والدلالات التي يحملها النص(٤٣).

وتبين النماذج (من ١ إلى ٤) والتي تم اختيارها لتايونين وإلكين الذين نشرا أعمالاً تتعلق بالمسلمين أن الدوال البصرية المركزية تتشابه فيما بينها لتصنع نمطاً أساسياً لصورة المسلم والمسلمة، بينما ينفرد كل رسام وأحياناً تنفرد كل صحيفة بمجموعة من الدوال الأخرى المضافة إلى صورة المسلم والمسلمة لتميز رسام بعينه عن غيره أو صحيفة بعينها عن غيرها.

فيما يتعلق برسوم سيرجي تايونين، فإن نموذج الرجل المسلم هو رجل يرتدي ملابس تقليدية مثل الجلباب والسروال، يعتمر عمامة، يلبس في قدميه مركوبا تراثيا، مطلق لحيته ويمسك بمسبحة، وإذا كان الرجل من عامة المسلمين يغلب على الملابس اللون الأبيض، وإذا حمل السلاح يغلب عليه اللون الأسود، وقد يستخدم تايونين جمع من المسلمين لهم ملابس موحدة و يختلفون في غطاء الرأس ما بين الطاقية والعمامة والطربوش، فالمسلمون إما تقليديون أو إرهابيون.

أما نموذج المرأة المسلمة فهو امرأة لا يبين من ملامحها شيء سوى العينين، ترتدي البرقع الأسود أو النقاب والكلمة الأولى أكثر شيوعا في روسيا لأن مسلمي روسيا وجمهوريات آسيا الوسطى المسلمة ما زالوا يطلقون عليه لفظ البرقع، وكل رسوم تايونين للمرأة المسلمة يغلب عليها السواد إلا في رسم واحد ظهرت فيه امرأة مسلمة عارية (في الأغلب شيشانية) وحول خصرها حزام ناسف وهي تغتسل استعدادا للاستشهاد، فهي إما مقهورة من قبل الرجل أو تتستر بنقابها على أعمالها الإرهابية.

وفيما يتعلق بالرجل الغربي (أو أيقونة البلاد الغربية) فيرتدي بذلة عصرية، جاكيت أو بالطو وينتعل حذاءاً غربياً فوق رأسه قبعة ويحمل مظلة، ولم تظهر في رسوم تايونين أي إشارة للمرأة الغربية.

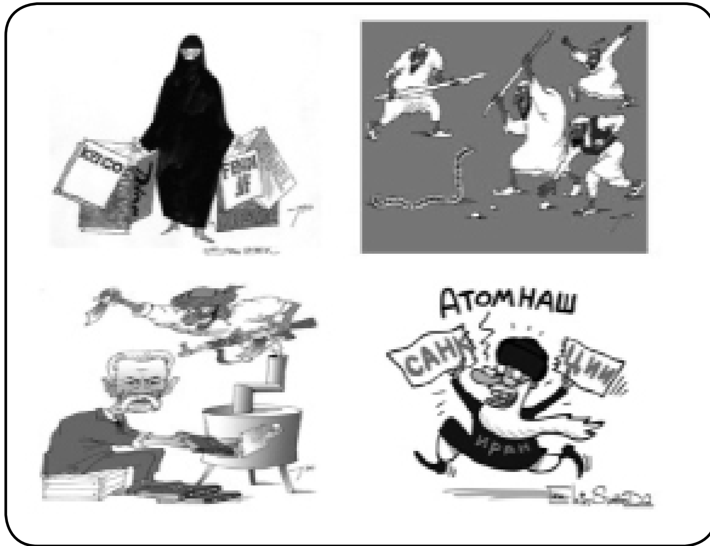
أما النموذج الأساسي للمسلم كما يرسمه سيرجي إلكين فيغلب عليه السواد سواء فيه الإيراني دلالة على مذهبه الشيعي، ومقاتل داعش المرتدي لبذلة عسكرية، أو المرأة المسلمة التي ترتدي البرقع التقليدي الذي يغلب عليه السواد أيضا، حتى الروسي المسلح في شمال القوقاز يرتدي كوفيه سوداء، أما عن الرجل الغربي فيرتدي البذلة العصرية أو الملابس الكاجوال تبعا للسياق، وكذلك ترتدي المرأة الغربية الملابس العصرية.

ومن الجدير بالذكر أنه عندما يعالج الكاريكاتير رئيس دولة مسلمة ما فإن رسام الكاريكاتير يستخدم الملابس الغالبة على الشعب لهوية الرئيس، وعلى ذلك نجد القذافي في ليبيا بملابس تقليدية والأسد في سوريا ببذلة عصرية.

ويتفاوت الأمر للرسامين على مواقع الإنترنت فمنهم من هو متأثر بتايونين مثل إيجور كورلجريف، ومنهم من هو متأثر ب(إلكين) مثل إيجور باشيتشينكو، وفيلاديمير خاخانوف، وسوف يجرى تحليل رسما لكورلجريف فيه يجبر رجل مسلم أوربا على خلع ملابسها البيضاء والصليب لترتدي البرقع الإسلامي الأسود.

ويرى (فيبر وميتشيل) أن هناك عناصر تناصية تتردد عبر الأجيال المختلفة ترسم صورة عرق ما أو دين ما، ويمكن تطبيقها في دراستنا هذه على صورة المسلم والمسلمة، ونستطيع أن نطلق على هذه العناصر التناصية (النص الثقافي المتراكم للمسلمين)، وتصبح بمقتضاها هذه الدوال الرئيسية أو المركزية هي الأيقونة الأساسية لشخصية المسلم التي تتحول شيئاً فشيئاً إلى أيقونة ثقافية خاصة بمجتمع معين تجاه الأخر الثقافي[٤٤].

وتبدأ رحلة الدوال الرئيسية عندما توضع لأول مرة في نص إعلامي ما (كاريكاتير ـ فيلم – مسلسل – الخ) ثم تنتقل من نص إلى أخر ومن سياق إلى أخر في عملية أشبه بالرنين أو الصدى الذي ينقل معان تفترض فهماً مشتركاً أو معرفة مشتركة.



النماذج من (١ إلى ٤)

ويهتم التحليل النماذجي بإجراء عمليات إحلال وإبدال للدوال المركزية أو الرئيسية للشخصيات المدروسة حتى يتم تبيان اختلاف المدلولات باختلاف للدوال، وهو ما استعارته البحوث العلاماتية من الرياضيات وأسمته Co mutation Test وأفضل ترجمة له هو اختبار التباديل، وذلك منذ أن قرر (رولان بارت) أن العلامات تكتسب قيمتها في نظام علامي ما عن طريق نفي وغياب العلامات الأخرى، أو لأنها تعبر عن مدلولات معينة تتغير لو استبدلناها بدوال أخرى.

ذلك لأن الأيقونة تتحول عبر الزمن إلى صانعة لتوقعات القراء أو المشاهدين، ولذلك يهتم التحليل النماذجي بالمقارنة بين العلامات الحاضرة والغائبة[٤٥]، وهو ما يجعل الرسم التالي للرسام باشيتشينكو نموذجا للتشوش الدلالي لافتقاد الدوال الأساسية أو النموذج الأساسي (نموذج ٥).

وفيه نرى رجلا يرتدي ملابس عصرية فوق رأسه عمامة أمامه امرأة ساجدة له ترتدي غطاء رأس أسود فوق ملابس عصرية أيضا وهو يمسك بيده سوطا، وهناك من الرموز/الدوال ما يمكن أن يجعل القارئ يفهم أن الرسام يقصد المسلمين، بيد أن اختفاء الدوال الأخرى لم يجعل الرسالة لا واضحة ولا قوية.



نموذج (٥)

ثالثا: التحليل الاستعاري لصورة العالم الإسلامي في الكاريكاتير الروسي

يعتبر كثير من دارسي العلاماتية أن دراسة الاستعارات والكنايات البصرية جزءا لا يتجزأ من دراسة نظام العلامات كجزء من الحياة الاجتماعية، نظراً لقدرتها الفائقة على الإقناع.

فالاستعارات تعمل بمثابة قائد الاوركسترا لربط الدوال بالمدلولات ليس على نحو حرفي ولكن على نحو فني وبلاغي من خلال نوع معين من التشبيهات يسمى الاستعارات داخل خطاب الكاريكاتير(٤٦).

تلعب الاستعارة الدور الرئيس في الوصف والتفسير؛ وصف القوى الفاعلة في الكاريكاتير وتفسير تصرفاتهم، وإذا كانت الاستعارة حيوية للتماسك الداخلي للنص اللغوي، فهي الأداة الجذابة للنص البصري الذي قد لا يحتوى على أية كلمات كما في بعض أنواع الكاريكاتير، والتي تنقله لجمهور أوسع كما في حالة دراستنا هذه، وليست الاستعارة أداة جمالية في النص البصري بل هي الأساس في التكوين المفاهيمي، أو كما يقول علماء السيميولوجي: الاستعارة عقل متجسد.

وتنقسم الاستعارة بنيويا إلى قسمين: المشبه ويسمى في الإنجليزية الهدف Target والمشبه به ويسمى في الأدبيات المصدر أو Source ولا نستطيع فهم الهدف إلا في إطار المصدر(٤٧).

فعندما وقعت أزمة انخفاض سعر اليورو كان لها مصدران رئيسيان يحكمان الاستعارات المستخدمة في الكاريكاتير: الأول أزمة اليورو كمرض وفيها تم تصوير اليورو على أنه رجل أو امرأة مريضة على الفراش أو على كرسي متحرك والإجراءات المتخذة لمواجهة الأزمة على أنها العلاج، والمصدر الثاني هو أزمة اليورو كظاهرة مناخية وفيها تم تشبيه الجو المحيط بالناس في أوروبا على هيئة علامة يورو سوداء تمثل عاصفة مدمرة توشك أن تهب أو على شكل تسونامي إلخ.

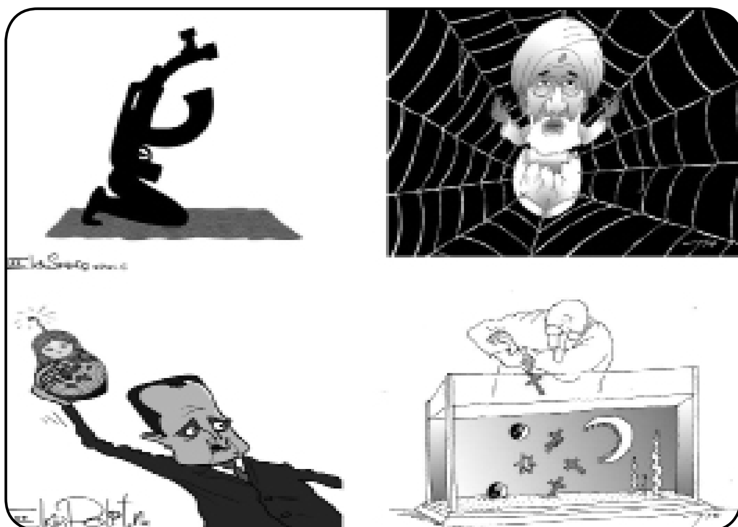
وكذلك تم تصوير الأزمة الاقتصادية عام ٢٠٠٨ بنفس الاستعارات الموت أو المرض والمناخ المتقلب ولكن تم إضافة مصادر أخرى مثل: سوق المال كحصان جامح، وسوق المال كأداة تعذيب.

وتوصف الاستعارة بمتعددة الوسائط Multi-modal عندما تتشارك الصورة والكلمة في صنع الاستعارة، فيستطيع الرسام أن يصور اليورو على شكل عاصفة متجمعة ويكتب أعلى الكارتون تسونامي اليورو، وهو هنا يعطي رسمه استعارتين من نفس المجال.

أما الكناية فهي علاقة تقوم على القرب بين مفهومين قد تكون في شكل الكل ينوب عن الجزء أو الجزء ينوب عن الكل، أو في علاقة السبب والنتيجة مثل أن تقول لأحدهم: أعطني أذنيك أو أصغ إلى جيدا فإن الإصغاء هنا يعني الفهم العميق القائم على التركيز الشديد، أو أن نقول القلم أقوى من السيف فإننا نعني: أن الكلمة المكتوبة أقوى من استعمال العنف.

وفي التصوير البصري إذا رسمنا جسم الإنسان بالخضروات والفاكهة فإن ذلك معناه أن كل عضو من أعضاء الإنسان يفيده نوع معين من الخضروات أو الفاكهة، أو إذا أردنا أن نقول أن هذا النوع من الخضروات سامة لأنها سقيت بماء ملوث فيمكننا رسم عقرب بمجموعة من الجزرات[٤٨].

وسوف نجد أن الرسام سيرجي تايونين أكثر استخداما للاستعارة البصرية المنفردة من الرسام سيرجي إلكين، على حين قد يلجأ الأخير للاستعارة متعددة الوسائط مازجا الصورة والكلمة، أما من حيث مجموع الاستعارات فيبرز تايونين لزيادة عدد رسومه ولأنه لا يستخدم الكلمات فيها، والنماذج التالية من ٦ إلى ٩ تبين عدد من الاستعارات لتايونين على اليمين وإلكين على اليسار:



النماذج من (٦ إلى ٩)

١ـ الرسام سيرجي تايونين:

برع تايونين في استخدام الاستعارات والكنايات البصرية، بيد أن الأخيرة زادت عن الأولي عن طريق استخدام الرموز الإسلامية التي تسيدت رسوم تايونين، وأول مجال هو توحش المسلمين وخطورتهم وفيه تم تشبيه الظواهري بأنه عنكبوت ينسج خيوطه على العالم، والهلال الإسلامي بأسنان بارزة متوحشة وسط حوض أسماك مليء برموز الديانات الأخرى المسالمة، والمسلم كائن أكثر توحشا من الكلاب، والقنبلة اليدوية عضو من أعضاء جسم الرجل المسلم، وكذا الحزام الناسف بالنسبة للمرأة المسلمة، التي ظهرت في رسم أخر تنزل من مركبة فضائية كالكائنات الغريبة Aliens، والمسلم يستعين بجني المصباح المخيف لكسب الانتخابات.

وخطورة المسلمين على الحضارة الغربية وأوروبا هي فكرة متواترة شائعة لها كنايات كثيرة؛ فأوربا قلعة يحرسها ساركوزي في مواجهة هجوم المسلمين، والبوليس الفرنسي يتعامل مع المسلمين بأنشوطة الإمساك

بالحيوانات، وداعش على وشك أن تقطع رقبة تمثال فينوس، والمسلمون يهاجمون تمثال (فاميدا) أو جاستشيا (أيقونة العدالة التي تمسك بالميزان والسيف) بعد تعرية صدرها، وهدية المسلمين للسيد المسيح في عيد ميلاده هي الأسلحة، وسوف يجري تحليل هذه الرسوم ثقافيا في الجزء التالي من الدراسة.

ويمكن أن تختص دول بعينها بكنايات تدل على الخطورة مثل تحول الصواريخ الإيرانية التي تبيعها روسيا إياها إلى مآذن كناية عن القوة التي أصبحت في حوزة المسلمين، أو تدل على التوحش مثل الرئيس نجاد الذي يأكل رأس سلمان رشدي الذي دفع فيها نصف مليون وأكثر لمن يقتله.

ببساطة وتبعا للبحوث المحدثة عن الاستعارة، فإن الهدف Targetهو المسلمين، والمجالSource هو الموت/الخطر.

ومن الاستعارات ذات الدلالة المهمة على مكانة المرأة في المجتمع الإسلامي تشبيه المرأة المسلمة بحقيبة يد سوداء تحملها أيقونة الرجل المسلم التقليدي بمناسبة يوم المرأة العالمي.

وفي مجال الحرب في سوريا فإن المعارضين لنظام الأسد ضعفاء مثل النمل الذي يبيده الرئيس بشار الأسد بحذائه، والحرب بالنسبة إلى جنرالاته نزهة أو لعبة Game ما أسهل أن يكسبونها.

فيما انفرد تايونين باستعارة إيجابية عن بعض المسلمين، حيث رسم دبابة إسرائيلية كثور هائج والفلسطيني كمصارع الثيران يمسك بالكوفية التقليدية كقطعة القماش الحمراء للميتادور في مواجهة الثور، بيد أن رؤية تايونين للفلسطينيين هذه ليست ثابتة؛ ففي رسم أخر شبه الإرهاب الإسلامي للدولة الإسلامية في سوريا والعراق على أنه سلخانة فيها جهاز داعش لجز الرؤوس، ويبرز من يدير الجهاز هم أنهم المسلمون الآخرون في مناطق أخرى من العالم الإسلامي أحدهم يرتدي الكوفية الفلسطينية معبرا عن حماس، والأخر العمامة الباكستانية الأفغانية، فهم ينسقون فيما بينهم وفي النهاية كل واحد منهم يخدم الإرهاب بشكل معين.

٢ـ الرسام سيرجي إلكين:

جاءت معظم الاستعارات مصورة لتوحش المسلمين وخطورتهم، فالمرأة المسلمة في نقابها تبدو كثعبان كوبرا سام، والبندقية الآلية الكلاشينكوف تسجد لله على طريقة المسلمين في صلاتهم، ورسوم الكارتون بمثابة المنشطات التي يحقنها المسلمون لأنفسهم لتستفز إرهابهم وعنفهم، والهلال الإسلامي يسبح في كأس من شراب الدم، أما الحرب الأهلية في سوريا فهي عش الدبابير السوداء الذي فتحه بوتين برعونته وتهوره.

وفي مجال بيع صواريخ دفاع جوي متقدمة إلى إيران، يقود عربة الصواريخ الرئيس بوتين ويتحول رأس الصاروخ إلى رأس ملا إيراني بالعمامة

التقليدية، أو تظهرعمامة الإرهابي على شكل ممحاة أو«أستيكة»تحاول محو عبارة شارلي إبدو، والخطر الإسلامي على أوكرانيا يتم التعبير عنه بالكلمات فتتحول أوكرانيا إلى أوكرانيستان.

وفي سياق خطورة المسلمين وخبثهم، يتم التعبير عن تلون الشيشان بتحول غطاء الرأس التقليدي لرمضان قاديروف إلى خوذة لقائد دراجة نارية مودرن لأن بوتين يحب هذا النوع من الرياضة ويسعى قاديروف لإرضائه، فيما يعبر عن (العلاقات الخفية بين المخابرات وبعض الزعماء الشيشان حتى أن مقالات الرأي للكتاب الروس تتندر بالعلاقة الخاصة بين بوتين وقاديروف)، الإرهاب الإسلامي كلب سمنه بوتين ورعاه وهو كاريكاتير غاية في العمق لأنه يعبر عن رواية تؤكد على دور المخابرات الروسية في صعود التطرف الإسلامي للسيطرة على السياسة الداخلية في روسيا بحجة محاربة الإرهاب بتقييد وسائل الإعلام التقليدية وملاحقة المدونين[٤٩].

وفيما يتعلق بمصر، فالرئيس السابق محمد مرسي عبارة عن مومياء تعود إلى تابوت حجري فرعوني الذي يحفظ فيه الموتى له المعروف لدى علماء الآثار باسم Sarcophagus، وهنا يبدو الخلط بين المومياء وأسطورة مصاص الدماء دراكولا، ويبدو في الرسم عسكري يرمز إلى الجيش يستعجل مرسي

للرجوع إلى التابوت بما يوحي بأن الأمور أكثر تعقيدا مما نراه، فالجيش أطلق جماعة الإخوان المسلمين لفترة محددة على أن تعود للموت في التابوت مرة أخرى.

وفي مجال إستعاري أخر هو كيفية مواجهة الإرهاب بعد حادث مجلة تشارلي إبدو، يتحول قلم الرسم في يد رسام إلى سلاح يسنه أو يحده على الإرهابيين بينما نظرته توحي بالتحدي والعداء، ولمّا كان إلكين من أكثر الرسامين الروس رسما للرئيس بوتين في الكاريكاتير الروسي فإن بوتين يظهر أحيانا على أنه أرنب أرعن يفتح على نفسه عش الدبابير، وأحيانا لاعب هوكي يصيب بالأهداف الفريق الخصم من داعش، وعموما يغلب على الرسوم فكرة أن بوتين زعيم أحمق.

ومن أعمق الاستعارات: الرئيس الأسد يضرب معارضيه بقنبلة على شكل الدمية الروسية الشهيرة ماتريوشكا[50]، بما يوحي بأن صورة روسيا الجميلة سوف تتأثر بالضربات التي تساعد فيها روسيا نظام الأسد، فالرئيس بوتين أرعن سوف تنقلب سياساته عليه، أما الضربات الجوية الروسية في سوريا فلا تفرق بين داعش وبقية الفصائل النصيرية والشيعية والكردية والسنية والدرزية، فهم في ساندويتش هامبرجر والكاتشب هو دمائهم المختلطة، وهو ما يتسق مع رؤية إلكين بخطأ التدخل العسكري في سوريا.

ويتم تشبيه الضربات الأمنية الروسية للمتطرفين في الشيشان وداغستان بمجيء الشتاء القاسي بعواصفه الثلجية بينما تبدو أيقونة الشيشاني بملابسه السوداء وبالسيف الذي يحمله بملامح مصدومة وخائفة، للذلك يعد كاريكاتير الرسام إلكين من النوع الذي يطلق عليه Mult modal أي الذي يستخدم مزيج الرسم والكلمة لتوصيل الاستعارة.

وفيما يتعلق بمكانة المرأة المسلمة ودورها: تظهر المرأة المسلمة على هيئة قفازات ملاكمة تتلقى الضربات عن الرجل المسلم، بل ويستخدمها ويكيل بها الضربات أيضا، أو المرأة المسلمة كمعوق لحرية المرأة في العالم، فهي المرأة التي تشذ عن الإجماع العالمي بملابسها الغريبة السوداء وترفع لافتة على شكل نقابها أو برقعها يخفي الشعارات التحررية للمرأة في العالم.

٣ـ رسامو المواقع الإلكترونية:

نتيجة قلة عدد رسوم الكاريكاتير للهواة على المواقع الإلكترونية، تركزت الاستعارات في فكرتين رئيسيتين هما: خطر المسلمين على الحضارة الغربية، ومواجهة الخطر الإرهابي المتدثر بالإسلام.

في الأولى رسم إيجور كولجراييف رجلا مسلما ذي ملابس تراثية أقرب للزي الأفغاني والباكستاني يخلع عن امرأة ـ تمثل أيقونة أوربا الموحدة التي تدور حولها النجوم ـ الصليب وثيابها البيضاء ويستعد لإرغامها على أن تلبس

البرقع أو النقاب الأسود، وفي رسم أخر يدخل جيش من المسلمين غازيا مدينة مسيحية يحطم أبنائها الكنائس والصلبان كما الطابور الخامس في إشارة استعارية للعلمانيين في روسيا لا سيما الليبراليون الذين يعادون الكنيسة الأرثوذكسية ويروجون لأفكار هدامة مثل حرية الشذوذ الجنسي[٥١].

وفي رسم أخر، تظهر أيقونة العم سام الأمريكي وأمامه الكرة الأرضية التي ما أن يضغط على جزء منها حتى يبدو رأس شيطان شرير ذو قرنين يمثل داعش أو تنظيم الدولة الإسلامية بعلمه الأسود الذي يحمل عبارة (لا إله إلا الله .. محمد رسول الله)، على حين تحول البرقع أو النقاب المسلم إلى رداء لأيقونة ملك الموت الذي يحمل منجله الذي يحصد به الأرواح في تصور إيجور باشيتشينكو.

أما فكرة مواجهة الإرهاب الإسلامي بعد حادثة مجلة تشارلي إبدو، فقد رسمها فلاديمير خاخانوف موضحا أن القلم أمضى سلاح في مواجهة البندقية الآلية، راسما أقلاما وممحاة تحاصر أيقونة إرهابية سوداء على صفحة رسم بيضاء[٥٢].

رابعا: التحليل الثقافي لصورة العالم الإسلامي في الكاريكاتير الروسي

١ـ دور الثقافة الجماهيرية أو الشعبية في فهم الكاريكاتير:



نموذج (١٠)

يبين نموذج (١٠) الذي رسمه سيرجي إلكين جنديا روسيا صغير الحجم أمام أيقونة المرأة المسلمة التي ترتدي البرقع أو النقاب ولكنها تبدو أضخم من المعتاد وهو يقول لها ساخرا: Гюпьчатай, покажи кпичико ! [٥٣].

أي (اكشفي وجهك يا جلتشتاي .. من؟! .. كليتشكو !)، فمن هي جلتشتاي؟ .. ومن هو كليتشكو؟ .. ولماذا قال لها الجندي: اكشفي وجهك؟. الحق لكي تفهم هذا الكاريكاتير لابد أن تعرف فيلما روسيا شهيرا من إنتاج الفترة السوفيتية، وتعرف أغنية ذائعة الصيت بنيت على بعض مشاهد الفيلم، وتعرف شيئا عن الملاكمين الأوكرانيين للوزن الثقيل، أي أن تكون ملما بالثقافة الشعبية أو الجماهيرية الروسية.

جلتشتاي هي أصغر زوجات عبد الله التركمنستاني، أحد شخصيات الفيلم الروسي (شمس الصحراء البيضاء) الذي أنتج عام ١٩٧٠، ويصور تدخل الجيش الروسي للاحتفاظ بتركستان الروسية (تركمنستان الآن) عام ١٩١٦ والتي أصبحت جزءا من الاتحاد السوفيتي السابق فيما بعد، ويقوم الجيش الروسي في الفيلم بقمع تمرد قبائل الباسماتشي التي يتزعمها الشيخ عبد اللّه الذي لديه حريم من تسع زوجات، وهو فيلم له شعبية كبيرة في روسيا يمزج الدراما التاريخية بالكوميديا بالموسيقى[٥٤].

وفي عام ٢٠١٢ تم إنتاج أغنية روسية بعنوان (اكشفي وجهك يا جلتشتاي) للمغني الروسي (ألكسندر ياريمنكو) تستخدم لقطات من الفيلم الشهير، وحازت الأغنية نجاحا كبيرا وتكشف عن قرب أجواء الحريم في تركمنستان من روسيا وغرابتها في آن واحد، ويمكن مشاهدة الأغنية وتحوى مشاهد من الفيلم على الرابط التالي:

https//:www.youtube.com/watch?v=n_XWSn٩XfNI

أما (فيتالي كليتشكو) فهو ملاكم أوكراني شهير للوزن الثقيل من أصل قرغيزي (من جمهورية قرغيزستان) تحوّل إلى سياسي وزعيم للمعارضة في أوكرانيا، مما جعله قريبا من قلب الروس الذين ضموا شبه جزيرة القرم الأوكرانية إلى روسيا عام ٢٠١٤.

إذن الجندي الروسي الضئيل - الذي هو إحدى شخصيات نفس الفيلم يدعي بتروخا - يسخر من المرأة المسلمة ضخمة الجثة التي ترتدي البرقع أو النقاب الأسود مستخدما عناصر وثيقة من الثقافة الشعبية الروسية مشبها إياها بالملاكم كليتشكو.

والحق أن التركيبة الثقافية للرسام إلكين جعلته يسخر حتى من الدين المسيحي وهو ما ظهر في رسوم أخرى له، مثل الرسم الذي يسخر فيه من زعيم الكنيسة الأرثوذكسية (فيسفولود شابلن) المعروف بعنفه وتحريضه على الشواذ جنسيا في روسيا بقتلهم، والمعروف بكراهيته لكل الأفكار

الليبرالية الغربية التي أفسدت الحياة الروسية عندما يسخر من الآيات الشهيرة في إنجيل لوقا على لسان السيد المسيح التي تقول:

(لكني أقول لكم أيها السامعون: أحبوا أعداءكم، أحسنوا إلى مبغضيكم، باركوا لاعنيكم، وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم، من ضربك على خدك فاعرض له الآخر أيضا، ومن أخذ رداءك فلا تمنعه ثوبك أيضا) معلقا بقوله: (أحيانا أردد كلاما فارغا)[٥٥] .. !

ومثل سخريته من الفارس المسيحي المقنع بالحديد الذي ازدهر مع الحروب الصليبية على لسان قنفذ يصيح عندما يراه: (ما هذا؟! حفلة لوشدكا !)، ولوشدكا Loshadka هو اسم حفلة روسية تنكرية يرتدي فيها الشباب الروس ملابس وإكسسوارات غريبة، وتعد في الثقافة الروسية المعاصرة مثالا على العصيان والجموح والتحرر من كل القيود الكنسية وعلى رأسها القيود الجنسية، فبعض الحفلات تشبه حفلات الجنس الجماعي.

وهي الرؤية التي يرجعها الباحث للتكوين التعليمي الإلحادي للمثقفين الروس، ومن بينهم معظم رسامي الكاريكاتير السلاف، إلا من ارتبط بشكل مباشر بالكنيسة الأرثوذكسية.

٢ـ السخرية من أفكار إسلامية باستخدام الثنائيات المتعارضة:

يوضح نموذج (١١) الذي رسمه سيرجي تايونين[٥٦] رجلا مسلما ذا ملامح متوحشة يتخذ جسمه وضع الحيوان المتأهب للانقضاض على فريسة، وله وجه غامق البشرة، في مقابل كلب ذي وجه أبيض قد استقام على قدمين

يلبس ملابس غربية: معطفا، وقبعة، وكوفية، ممسكا في يديه مظلة، ويضع على عينيه نظارة طبية وهو ينظر بتعجب لهذا المخلوق الذي أقعى كالكلب محدثا أصواتاً مفزعة، في مفارقة صارخة كتب تحتها الرسام عبارة (ضد الكلاب) إشارة إلى الثقافة الإسلامية، تلك التي ترى في الكلب من معاني النجاسة أكثر مما تراه من معاني الوفاء الشائعة في الثقافة الغربية.



نموذج رقم (١١)

ويعد هذا النموذج دالا للغاية على رؤية تايونين للإسلام والمسلمين، يسمي دارسو العلاماتية هذه المفارقة بالثنائيات المتعارضة - Binary O positions، وفيها يتم تخفيض كل العلاقات المعقدة داخل نظام العلامات في تفسير واحد هو متصل بين قيمتين أو شيئين متعارضين وبينما تحضر مجموعة من الصفات في أحدهما تغيب في الأخرى، وقد أخترع نظام العلامات هذه الثنائيات المتعارضة أو المتقابلة للتبسيط ولتسهيل عملية الاتصال.

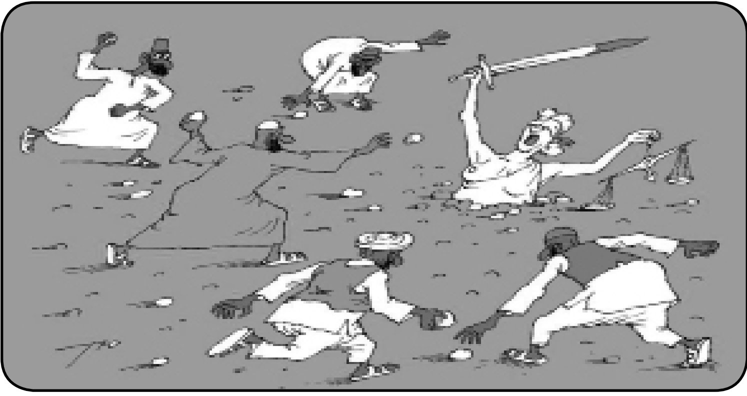
على سبيل المثال، ترتكز ثنائية الضوء/الظلام على غياب الضوء في الكلمة الثانية، وثنائية طيب/ شرير على غياب الطيبة والخيرية في الكلمة الثانية، أما ثنائية الجنس الأبيض/بقية الأجناس فترتكز على متصل يكون فيه الجنس الأبيض أرقى من بقية الأجناس بامتلاكه مجموعة من الصفات الجسدية والعقلية التي تجعله يمثل الإنسانية الحقة، وتغيب هذه الصفات في الأعراق الأخرى، وقد تأسست هذه الثنائية منذ مرحلة الاستعمار(٥٧).

وقد أوضح أكثر من منظر علامي أو سيميولوجي أن تحليل الثنائيات المتعارضة يكون مفيداً في النصوص اللغوية والبصرية التي تتميز بالانضغاط والتركيز ومحدودية المساحة مثل الشعر والكاريكاتير، وقد أهتم كل من (كلود ليفي شتراوس)، و(رولان بارت)، و(جاك دريدا) برصد الثنائيات المتعارضة في ثقافة ما والتي تختلف ثنائياتها عن ثنائيات ثقافة أخرى، فالمعنى العميق لكاريكاتير تايونين هذا: الكلاب أكثر تحضرا منكم أيها المسلمون.

وتكررت الثنائيات المتعارضة في معظم رسوم تايونين، لا سيما تلك التي يوضح فيها خطورة المسلمين على الحضارة الغربية مستخدما رموز الحضارة الغربية، فمرة أيقونة داعشية توشك أن تقطع رأس تمثال فينوس، ومرة أخرى يرجم المسلمون المتوحشون أيقونة العدالة الغربية بالحجارة والمسماة جاستشيا والتي تسمى في الروسية (فاميدا)، تلك تمسك بيدها الميزان والسيف وذلك بعد أن عروا نهدها نتيجة هوسهم الجنسي[٥٨]، وأوشكوا أن يدفنوها في التراب كما يوضح نموذج (١٢)، وهو ما تكرر مع الفيلم المسيء للرسول (ص) الذي تصوره المسلمون في شكل كوبرا سامة، محاولين قتله بالحجارة والعصي.

وللثنائيات المتعارضة تجليات سياسية أيضا، فالمتمردون في سوريا نمل في مقابل الرئيس بشار الأسد العملاق، والنظام الذي يقوده الجيش في مصر بعد ٣ يوليو ٢٠١٣ مثل تمثال أبو الهول المهيب الذي ارتدى كابا عسكريا في مقابل شراذم ضئيلة تحت قدميه تمثل الإخوان المسلمين، وعملية التطور الإنساني من القردة العليا إلى البشر المحدثين يمكن تطبيقها على المسلمين والغربيين، فالأولون لهم مسار حضاري مختلف عن الأخيرين.وفي هذا السياق، يعد إلكين أقل استخداما للثنائيات المتعارضة من تايونين، بيد أنها حاضرة في ضرب روسيا لداعش في سوريا، وفي انهيار أسعار النفط التي تسببت فيه

دول الأوبك الخليجية تحديدا، فيظهر رجل خليجي يقف على أنبوب بترول في الأعلى يسخر من بوتين في الأسفل قائلا له: я твой нефть шатап (цена)، أي (بدلا من أن أوصل لك البترول عبر الأنابيب، فإنني أنا من أخسف بأسعاره الأرض).



نموذج رقم (١٢)

٣ـ الهوس الجنسي للمسلمين وتشيؤ المرأة المسلمة:



نموذج رقم (١٣)

يوضح نموذج (١٣) الذي رسمه سيرجي إلكين اثنين من الشهداء المسلمين ـ من داعش غالبا ـ قد صعدا إلى السماء ووقفا على باب الجنة الذي علق عليه إعلانا صادما يقول:

Господа ТЕРРОРИСТЫб здеср вы лопучите ло 70
:краикаткрны X гурий

(أعزائي الإرهابيين: كل واحد منكم يدخل الجنة سوف يشاهد ٧٠ كارتونا في الساعة)، سخرية من الفكرة الإسلامية: أن أي شهيد مسلم سوف تبتدره ٧٠ من الحور العين في الجنة، مصحوبة برسم صغير يمثل إيقونة الشخص المصدوم أو المحبط[٥٩].

والسخرية هنا من الرجال المسلمين الذين لا يرون في المرأة إلا متاعا جنسيا، الأمر الذي يؤشر على نفيهم لكل إمكانات المرأة الأخرى، وتحويلها إلى شيء تابع لهم يحملونه أينما ذهبوا مثل الرسم الذي رسمه تايونين في جريدة كومرسانت والتي يظهر المرأة المسلمة على أنها حقيبة يد يحملها الرجل المسلم معه أينما حلّ ورحل، بيد أن الأمر لا يقتصر على ذلك بل أجبرها الرجل- بعد أن محا إرادتها - على أن تشاركه في الإرهاب ملمحا إلى اشتراك بعض النسوة المسلمات في بعض الأحداث الإرهابية واستخدامهم الكلاشينكوف والأحزمة الناسفة، تلك النسوة اللائي أصبحن يحملن معاني الدمار والخراب بدلا من الرقة والرحمة لدرجة تسميتهم في وسائل الإعلام الروسية بالأرملة السوداء، وهم اسم أنثى عنكبوت شديد السميّة.

ولذا يبدو في رسم أخر لتايونين امرأة مسلمة عارية تماما إلا من حزام ناسف حول خصرها، وهي تتأهب لعملية إرهابية بأخذ حمام يعرف عند المسلمين بالاغتسال.

وبتراكم الصورة الذهنية السلبية للمرأة المسلمة تحول نقابها أو برقعها الذي يحمل لدى المسلمين معاني العفة والاحتشام إلى رداء لملك الموت لا يحمل

إلا الفناء والدمار مثل منجله الشهير الذي يحصد به الأرواح[٦٠]، وهو ما أوضحه بجلاء الرسام إيجور باشيتشنكو في نموذجه التالي رقم (١٤):



نموذج رقم (١٤)

وبالطبع استخدم تايونين الثنائيات المتعارضة لتوضيح غرابة وضع المرأة المسلمة القاهرة والمقهورة في آن، فتارة تمسك أيقونتها السوداء التي لا يظهر منها سوى العينين بالأكياس التي تحوي أحدث الملابس من الماركات العالمية، وتارة تنزل نسوة مسلمات من مركبة فضائية مثل الكائنات الغريبة عن كوكب الأرض، وفي مقابلهم يركب سياحا غربيين سيارة مكشوفة وهم يلتقطون لهن الصور كما يلتقط السائح الصور للحيوانات في الغابة.

وقد استخدم كورلجريف - أحد رسامي مواقع الإنترنت - الثنائيات المتعارضة بشكل مبدع حين وضع الرجل المسلم في مقابل المرأة الغربية الشقراء التي تدل على أوروبا وقد خلع المسلم عنها ملابسها البيضاء التي تؤدي معنى النقاء وكذلك خلع صليبها، بينما يستعد لإلباسها قهرا البرقع الأسود للمسلمات، الذي يوحي بكل معاني الأفول الحضاري والتخلف[61] كما يبين نموذج (١٥).



نموذج رقم (١٥)

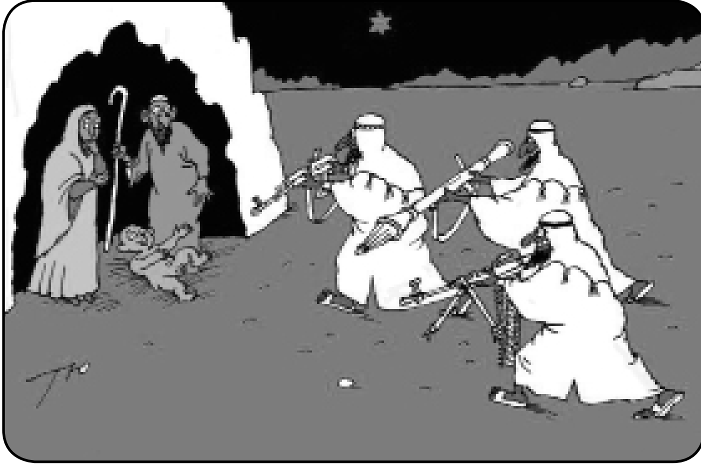
١ـ الأسطورة العلاماتية المعقدة للإسلام

ولا نستطيع أن نغفل في بحث كهذا تحليلات (رولان بارت) للأسطورة العلاماتية أو السيميولوجية، والتي تتضح في تصوير الإرهاب على أنه المكون الأساسي للدين الإسلامي والوجه الوحيد له، فالإرهاب وجه واحد من أوجه الإسلام وليس كل أوجهه، إذ إن المثقفين من الروس أنفسهم لا يستطيعون نفي الأوجه الحضارية الأخرى للإسلام مثل الأوجه الفكرية والصوفية، وإن كانوا لا يترددون في القول أن صوت العنف هو الصوت الأعلى، وصورة الإرهاب هي الصورة الأبرز[٦٢]، ولذا يعد النموذج رقم (١٦) لسيرجي تايونين مثالا ناصعا على الأسطورة العلاماتية التي للأسف تنتشر حول العالم لسهولة التواصل البصري في عصر الإعلام الالكتروني وشبكات التواصل الاجتماعي[٦٣].

يرى (رولان بارت) أن الأسطورة هي المعنى أو المعاني التي تعكس الإيديولوجية السائدة في زمن ما، مثل أسطورة العلم الموضوعي التي سادت قرون التنوير الأوروبي، وأسطورة المرأة الناقصة فيزيقياً وعقلياً مقارنة

بالرجل، ويرى (بارت) أن الأسطورة تزيح نظاماً علاماتياً كاملاً وتقدم عوضاً عنه (معنى ظاهر وحيد)، وهو ما يفيد في تطبيع المعنى أي جعله منتشراً وسائداً لدرجة اعتباره من البديهيات، وهو ما جعل الكثيرون من علماء السيميولوجي يركزون على السياقات الاجتماعية التاريخية التي تم فيها تأسيس هذه العلامات/الأساطير(٦٤).

بيد أن هذه الأسطورة تشتبك مع الديانات الأخرى، وعلى رأسها المسيحية واليهودية، ولعل نموذج تايونين يعبر عن غفلة المسيحية وصدمتها من الأسلحة التي يعطيها الكنعانيون – بأنوفهم الطويلة المعقوفة- إلى السيد المسيح عليه السلام، بيد أن هناك رمزا أخر لا يمكن أن نخطئه هو نجمة داوود السداسية في سماء حالك لونها، فما علاقة اليهود بما يحدث؟ ولماذا ضمّن الرسام الرمز اليهودي وسط العلاقة بين الكنيسة الأرثوذكسية وبين المسلمين؟!



نموذج رقم (١٦)

كانت أيديولوجية القوميين الروس الأرثوذكس ترتكز كراهيتها على أعداء المسيح، وعلى هؤلاء الخاضعين لأعداء المسيح وهم: اليهود، والكاثوليك، والغرب الليبرالي العلماني غير الأخلاقي، والنظام العالمي

الجديد. وحول منتصف التسعينات، لم يكن للإسلام مكاناً واضحاً بين هذه القوى المعادية؛ إذ إن البطريركية في موسكو والسياسيين القوميين المعتدلين - من منطلق وحدة أوروآسيوية - كانوا يرون المسلمين في روسيا في توائم مع الكنيسة الأرثوذكسية الوطنية الروسية، على الرغم من بعض المخاوف من أن اليهود يستخدمون المسلمين ضد روسيا.

إلا أن الأمر تغير مع الحرب الشيشانية الثانية، عندما بدأ القوميون الأرثوذكس في روسيا يحسون بخطر التطرف الإسلامي المسلح خاصة مع هجرة المسلمين إلى مناطق الداخل الروسية.

وأضحى الإسلام المتطرف - بالنسبة للكنيسة وللقوميين الروس - جزءا من خطر أكبر يأتي من اليهود والغرب العلماني، إذ إن الإسلام المتطرف - على حد زعمهم - يتم استخدامه من قبل أعداء المسيح ليس فقط لأنه دين خاطئ، ولكن لأنه بدأ يمزج التكنولوجيا الغربية بالغوغائية الشرقية.

وكذا رأى القوميون الروس في الجامعة التركية جسراً ما بين اليهود والغرب من جهة وعالم الإسلام من جهة أخرى، وبدأ الإسلام المتطرف يدخل بقوة في بنية العدو التقليدي للكنيسة الأرثوذكسية وللقوميين الروس على حد سواء، وهو أمر تصاعد مع الحوادث الإرهابية على الأرض الروسية[٦٥].

ومن الجدير بالذكر أن الأكاديميين اليهود يلعبون دورا رئيسيا في استعداء روسيا على الإسلام مثل هؤلاء المتخصصين في العلوم السياسية الذين يكنون عداءً للجهادية الإسلامية ومنهم (جوردون هان)، هذا الكاتب اليهودي المتخصص في الشأن السياسي الروسي والذي يرى في القوى الإسلامية في القوقاز - سواء المتطرفة الجهادية أو الوسطية - خطراً على روسيا والغرب على أساس أن أيديولوجيتها - كما رصدها من عدة مجلات ومواقع لهم على الإنترنت - هي أيديولوجية: ضد الغرب وضد الولايات المتحدة ومعادية للسامية[٦٦].

تختلف روسيا عن أوربا لأن الإسلام دين رئيسي لمواطنيها داخل الاتحاد الروسي (ما يقرب من ٢٠٪ من سكانها يدينون به)، وللإسلام فيها نسخة حكومية متعايشة مدجنة توافق عليها الإدارة الروسية (الرئيس ـ الكرملين) وتروجها باعتبارها الشكل المقبول في دولة متعددة الأعراق والأديان.

ولكن هناك نسخ أخرى لا توافق عليها: تلك النسخ التي ترتبط بالنزعة الانفصالية عن روسيا وتلك التي تستخدم إيديولوجية متطرفة مسلحة "إرهابية" لفرض هذا الانفصال بالقوة على روسيا، تلك التي تحاصرها روسيا في الشيشان وتتارستان وداغستان وأنجوشيا، والتي تكافحها في دول آسيا

الوسطى المحيطة بها، والتي كانت جزءاً من الاتحاد السوفيتي السابق وقبله جزءا من روسيا القيصرية.

ولذا فإن الصور السلبية في الإعلام هي صور لجماعات انفصالية متطرفة ومسلحة، وصور لنظم في الدول الإسلامية وزعماء لا ترتاح لهم الإدارة الروسية، وهم مرتبطين غالباً بالجهادية العالمية الإسلامية التي تعاديها الميديا الروسية.

ولكن لأن الكاريكاتير فن اختصاري تعميمي فيظهر فيه أفكار بسيطة مثل: مخاطر انتشار الإسلام كدين في أوربا، وتخلف المسلمين الحضاري واختلافهم عن الأخر الروسي الأرثوذكسي المتمدن، في الوقت الذي لا تظهر فيه كثيرا تعقيدات أفكار الخطاب السياسي الرسمي الذي تروجه وسائل الإعلام، بل وبعض الأفكار الخطيرة الأخرى.

تذهب بعض تقارير أجهزة المخابرات الغربية ومواقع المراكز البحثية في أوربا الشرقية للقول بأن بعض الشخصيات الشيشانية التي لعبت دوراً في تدويل الجهاد الإسلامي ـ مثل أبو عمر الشيشاني وغيره ـ ما هم إلا عملاء للمخابرات الروسية أو للمخابرات العسكرية للجيش الروسي، حتى تظهرهم روسيا على أنهم ليسوا مقاتلين من أجل استقلال الشيشان القومي، ولكنهم نواة لإنشاء إمارات إسلامية قوقازية تتحد لتكوين خلافة إسلامية، وحتى تظهر الحرب على أنها بين التطرف الإسلامي العالمي وبين العالم المتحضر،

وكذلك فإن هؤلاء يعادون الغرب والولايات المتحدة بأكثر مما يعادون روسيا، أو أنهم أدوات في يد الدولة الروسية لإضعاف الدول الغربية(٦٧).

ولا نستطيع أن نأخذ هذه التقارير بأنها مصدقة ١٠٠٪ ولكنها رواية من بين الروايات التي تفسر صعود التطرف الإسلامي خاصة في سوريا حتى تتدخل روسيا عسكرياً بشكل مباشر.

ويتم التدليل على ذلك بتقارير تُنشر في الصحف الغربية بأن بوتين ومخابراته يساعدان الدولة الإسلامية كذريعة للتدخل المباشر في سوريا، وذلك عن طريق غض الطرف عن هجرة المجاهدين في داغستان إلى مناطق الدولة الإسلامية في العراق والشام عبر تركيا، وذلك لتخفيض احتمالية قيامهم بأية عمليات عنف على الأرض الروسية، ونتيجة لأن هؤلاء على قوائم الترقب الروسية فصعب عليهم أن يعودوا إلى الأراضي الروسية، وهو ما نقلته أيضاً تقارير للصحفية الروسية (إلينا ميلاشنيا) في الصحيفة المستقلة الميالة للمعارضة (نوفايا جازيتا)، وتضيف الصحفية أن ذلك قد يكون في صفقة لإنهاء أعمال العنف في الشيشان وداغستان ولإقامة الإمارة الإسلامية في الرقة وليس في جروزني.

أما التحليلات الاجتماعية الاقتصادية التي تفسر بعمق لماذا ينضم الشباب المسلم ـ ومنهم الروس ـ لداعش فكانت من نصيب مراكز الاستشراق الروسي وشخصيات أكاديمية مرموقة مثل فاسيلي كوزينتسوف رئيس مركز الدراسات العربية والإسلامية في معهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم الروسية(٦٨).

يرى كوزينتسوف أن ما يحض المهاجرين المسلمين في روسيا وأوروبا على البحث في الإيديولوجيات الدينية عن توجهات قيمية، وأجوبة لما يواجهونه في حياتهم من مسائل، هو الإحباط الذي يعانونه، وخاصة على خلفية تصاعد الراديكالية اليمينية في أوروبا، والنزاع الجلي بين قيم المجتمع التقليدية القريبة إليهم من جهة، وقيم الليبرالية الأوروبية من جهة أخرى.

وأخيرا، فإن بعض من انضم لداعش هم أوروبيون اعتنقوا الإسلام، ويجدون في نشاط "داعش" منظومة صارمة من القيم، الأمر الذي لا يستطيعون اكتشافه في العالم المحيط بهم، شأنهم في ذلك شأن المهاجرين المسلمين، وتجدر الإشارة إلى أن طابع هذه المنظومة الصارم، ورفضها التوجه نحو الفرد، هما بالذات ما يتيح تجنب التيه والحيرة والتخبط في منظورات النسبية التي لا مناص منها في مجتمع ما بعد الحداثة.

مراجع الفصل

1- Elmira Akhmetova, Islam in Russia: History & Facts, @ http://onIslam.net/ , retrieved on August 12, 2015.

2- David Schimmel & Penninck van der Oye, Russian Orientalism: Asia in the Russian Mind from Peter the Great to the Emigration (New York: Yale University Press, 2011) pp. 298-300.

٣- أحمد عبد الحافظ : مسلمو شمال القوقاز بين دوافع الاستقلال وعوائقه من الحرب الشيشانية الأولى إلى الحرب الشيشانية الثانية، حولية أمتي حول العالم، العدد الثاني، مركز الحضارة للدراسات السياسية، القاهرة، مارس ٢٠٠٠، نشر ٢٩ أكتوبر ٢٠١٣، وتم الحصول عليه في ٢٥ سبتمبر ٢٠١٥.

4- Vera Tolz: Russia›s Own Orient: The politics of identity and Oriental Studies in the late imperial and Soviet periods (London: Oxford University Press, 2011) pp. 224-230.

٥- حيدر رشيد أغانين: العلاقات الروسية العربية الإعلامية والثقافية ماضيها وحاضرها ومستقبلها، ملتقى مركز الجزيرة للدراسات حول العلاقات العربية الروسية، فبراير ٢٠٠٩. ص ص ١-٧.

٦- محمد حسام الدين إسماعيل: ساخرون وثوار: دراسات علاماتية وثقافية في الإعلام العربي (القاهرة: العربي للنشر والتوزيع، ٢٠١٤) ص ص ١١-٢٥.

٧- المرجع السابق، ص ص ١٨٤-٢٠٠.

8- Vera Ivanova, History of Russian Caricature, @http://russia-ic.com/cuture-art/, reported June 5.2012.

9- Hubertus F. Jahn, Kaiser, Cossacks, and Kolbasniks: Caricatures of the German in Russian Popular Culture, The Journal of Popular Culture, 31(4), spring 1998. pp 109 – 122.

10- Oleg Minin, The Value of the Liberated Word: the Russian Satirical Press of 1905 and the Theory of Cultural Production, The Russian Review, 70 (1), April 2001. pp. 215-233.

11- Oleg Minin, Art and Politics in the Russian Satirical press 1905 – 1908, PhD Dissertation, University of Southern California, 2008. Pp. 2-10.

12- Vladimir VitalÉvich Razuvaev, Popular Humor in the Post-Soviet Period, Anthropology and Archeology of Eurasia, 44 (3), winter 2005/2006. pp. 37-63.

13- Natalia Rulyova, Television News and its Satirical Interpretation in Medvedev's Russia: Is Glasnost Back? Russian Journal of Communication, 3(3/4), Summer/Fall 2010. pp. 229 – 248.

14- Nicole Bode and Andrey Makarychev, The New Social Media in Russia: Political Blogging by the Government and the Opposition, Problems of Post-Communism, 60 (2), March-April 2013. pp. 53-62.

15- Abbott Gleason, Views and Re-Views: Soviet Political Posters and Cartoons,@http://library.brown.edu/cds/Views_and_Reviews/essay.html, retrieved on October 2, 2015.

16- Laura Belin, Russian Media Policy in the First and Second Chechen Campaign, A paper given at the 52nd Conference of the Political Studies Association, Aberdeen, Scotland, 5-8 April 2002. pp 1- 35.

17- Irina Kouznetsova-Morenko, Islam in Mass Media Space of Russia and Tatarstan: Policy and Social Analysis, Open Society Institute, CPS Fellowship Program, Central European University, 2003/2004. Pp. 10- 15.

18- Greg Simons, The Use of Rhetoric and the Mass Media in Russia's War on Terror, @ https://www.gwu.edu/.

19- Aglaya Snetkov, The Image of the Terrorist Threat in the Official Russian Press: The Moscow theatre Crisis (2002) and the Beslan Hostage Crisis (2004), Europe-Asia Studies, 59 (8), December 2007. pp. 1349-1365.

20- Natalia Mirimanova & Toby Mendel, Covering Conflict: Reporting on Conflicts in the North Caucuses in the Russian Media, Article 19, Global Campaign for Free Expression, London, UK, May 2008. Pp. 70-72.

21- Amanda J. Alcott, Gendered Narratives of "Black Widow" Terrorism in Russia's Northern Caucasus Region, MA Thesis, Department of International Relations and European Studies, Central European University, Budapest, Hungary, 2012. Pp. 2-10.

22- Matteo Vergani & Dennis Zuev, Neo-Jihadist Visual Politics: Comparing YouTube Videos of North Caucasus and Uyghur Militants, Asian Studies Review, 39(1), 2015, pp. 1-22.

23- Howard Davis, Philip Hammond & Lilia Nizamova, Media, Language Policy and Cultural Change in Tatarstan: Historic Vs. Pragmatic Claims to Nationhood, Nations and Nationalism, 6(2), 2000. pp. 203-225.

24- Vasil Garifulliv & Layilya Sabirova, Place of Internet Resources in the System of Islamic Mass Media in Russia, World Applied Sciences Journal, 30(12), 2014. pp. 1808-1810.

25- Galina Miazhevich et al, European Identity and Islamic Otherness in British, French and Russian TV News Broadcast, Paper Presented at the UACES 27th Annual Conference, University of Portsmouth, 3-5 September 2007. pp. 1- 24.

26- Irina Kouznetsova-Morenko, op. cit., pp. 10-15.

27- SREO, Russian News Media Coverage of the Syrian Conflict: A Content Analysis Report, Syria Research and Evaluation Organization, September 2014. pp. 1_30.

28- http://www.cartoonmovement.com/p/157/cartoons?p=26

29- http://www.themoscowtimes.com/multimedia/photogalleries/putins_russia/5123.html, http://www.svoboda.org/archive/cartoon_of_the_day/5/16979/16979.html, http://polit.ru/gallery/elkin/.

30- Danesi, Melvin. Understanding Media Semiotics. London: Arnold; New York: Oxford Inc., 2002. pp. 55_59.

31- Kommersant, 28/5/2015.

32- Kommersant, 1/9/2012.

33- Kommersant, 19/9/2014.

34- Kommersant, 8/9/2014.

35- Kommersant, 2/8/2014.

36- Roland Dannreuther, Russia, the Middle East and Political Islam: Internal and External Challenges, Russia and Eurasia Programme Seminar Summary, 13 May 2009. @ www.chathamhouse.org.uk/

37- Kommersant, 22/4/2014.

38- Kommersant, 16/9/2012.

39- Kommersant, 24/3/2015.

40- http://polit.ru/, 18/9/2015.

41- http://polit.ru/, 14/6/2011.

42- http://polit.ru/, 5/7/2013.

43- Terry Warburton: "Cartoons and Teacher: Mediated Visual Images as Data " in Jone Prosser (ed.): Image – based Research: A sourcebook for Qualitative Researchers (London: Flamer Press, 1998) pp. 252-262.

44- Ibid, pp. 265-270.

45- Jonathan Bignell: Media Semiotics: An Introduction (New York: Palgrave Inc., 2002) p.17.

46- Daniel Chandler: Semiotics: The Basics (New York, Routledge Inc., 2002) p. 57.

47- Liliana Bounegru & Charles Forceville, Metaphors in editorial cartoons representing the global financial crisis, Visual Communication, 10(2): 2011. Pp. 209-229.

48- Daniela Dălălău, the Use of Pictorial and Multimodal Metaphor in Editorial Cartoons Depicting the Euro

Crisis, Language and Discourse, 10(2), 2013. pp. 928-937.

49- Michael Weiss, Russia Is Sending Jihadis to Join ISIS, @ http://www.thedailybeast.com/articles/2015/08/23/russia-s-playing-a-double-game-with-islamic-terror0.html, retrieved on 25 September 2015.

٥٠ - الدمية الروسية أو ماتريوشكا أو بالروسية: Матрёшка هي عبارة عن دمية تتضمن داخلها عدة دمى أخرى بأحجام متناقصة، بحيث أن الأكبر تحوي الأصغر منها وهكذا، تعرف اللعبة أيضا باسم بابوشكا، تصنع الدمية عادة من الخشب مثل خشب الزيزفون أو خشب الصندل، و يختلف طرازها حسب الصانع، لكنها عادةً ما تمثل المرأة الروسية الريفية باللباس التقليدي سارافان، @ https://en.wikipedia.org/wiki/Matryoshka_doll.

50- http://www.cartoonmovement.com/p/7377

51- http//:www.cartoonmovement.com/p7838/

52- http://polit.ru/, 6/10/2013.

53- https://en.wikipedia.org/wiki/White_Sun_of_the_Desert

54- http://polit.ru/, 1/7/2013.

55- Kommersant, 27/2/2012.

56- Daniel Chandler, op. cit, pp. 40 - 45.

57- Kommersant, 3/11/2012.

58- http://www.svoboda.org/archive/cartoon_of_the_day, 12/1/2015.

59- http://www.cartoonmovement.com/cartoon/10616

60- http://www.cartoonmovement.com/p/7838

61- Benjamin Sutcliffe, Secular Victims, Religious Aggressors, Mystical Holy Men: Muslims, Islam, and Contemporary Russian Prose, 2013 -2014 Program for Research and Training on Eastern Europe and the Independent States of the Former Soviet Union, American Councils for International Education, 2014. Pp. 1-10.

62- Kommersant, 11/12/2012.

63- Daniel Chandler, op. cit, pp. 20-22.

64- Alexander Verkhovsky, Who is the Enemy Now? Islamophopia and Anti-Semitism among Russian Orthodox Nationalists before and after September 11, Patterns of Prejudice, 38(2), 2004. Pp.130-143.

65- Gordon Hahn, Anti-Americanism, Anti–Westernism, and Anti-Semitism among Russia's Muslims, Demokratizatsiya, 16(1), winter 2008. pp. 49-60.

66- Marius Laurinavicius, Do Traces of KGB, FSB and GRU lead to Islamic State? Center of Eastern Europe Studies, Analytical Report, No. 8. Jan 9 2014. p. 17.

٦٧- فاسيلي كوزنيتسوف: «داعش».. مأوى الضالين في القرن الحادي والعشرين، روسيا ما وراء العناوين، ٧ يوليو ٢٠١٥.

***

مراجع الكتاب

أولا: المراجع العربية

١. أحمد عبد الحافظ: مسلمو شمال القوقاز بين دوافع الاستقلال وعوائقه من الحرب الشيشانية الأولى إلى الحرب الشيشانية الثانية، حولية أمتي حول العالم، العدد الثاني، مركز الحضارة للدراسات السياسية، القاهرة، مارس ٢٠٠٠، نشر ٢٩ أكتوبر ٢٠١٣، وتم الحصول عليه في ٢٥ سبتمبر ٢٠١٥.

٢. أحمد عبد الله الطحلاوي: استعادة الدور .. المحددات الداخلية والدولية للسياسة الروسية، آفاق سياسية، المركز العربي للبحوث والدراسات، نوفمبر٢٠١٤. ص ص ٥٥ـ ٦٠.

٣. حيدر رشيد أغانين: العلاقات الروسية العربية الإعلامية والثقافية ماضيها وحاضرها ومستقبلها، ملتقى مركز الجزيرة للدراسات حول العلاقات العربية الروسية، فبراير ٢٠٠٩.

٤. سمير أمين: سمات الرأسمالية في روسيا بعد السوفيتية، السياسة الدولية، عدد (١٩٨)، سبتمبر- أكتوبر ٢٠١٤. ص ص ٦٠ـ ٧٥.

٥. سيرجي غورييف وآليه تسيفنسكي: روسيا وحتمية التحول الديمقراطي، السياسة الدولية، عدد (١٨٨)، إبريل ـ يونيو ٢٠١٢. ص ص ١٢٠ـ١٣٥.

٦. عبد الوهاب المسيري: اليد الخفية: دراسات في الحركات اليهودية الهدامة والسرية (القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٨).

٧. محمد حسام الدين إسماعيل: ساخرون وثوار: دراسات علاماتية وثقافية في الإعلام العربي (القاهرة: العربي للنشر والتوزيع، ٢٠١٤).

٨. محمد فراج أبو النور: هيكلة الإعلام في المراحل الانتقالية: خبرات عربية ودولية، موقع الائتلاف الوطني لحرية الإعلام، http://ncmf.info/?p=3570

٩. معتز سلامة: القطب العائد .. الدور الروسي في سياق إقليمي متغير، ملف مجلة السياسة الدولية، العدد (١٩٥)، يناير- مارس ٢٠١٤. ص ص ١٥٠-١٧٠.

١٠. نورهان الشيخ: مصالح ثابتة ومعطيات جديدة: السياسة الروسية تجاه المنطقة بعد الثورات العربية، السياسة الدولية، عدد (١٨٦)، أكتوبر- ديسمبر ٢٠١١. ص ص ١٥-٢٥.

١١. هاني شادي: التحول الديمقراطي في روسيا من يلتسين إلى بوتين: التجربة والدروس في ضوء الربيع العربي، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٥.

١٢. هاني شادي: «روسيا .. بوتين يعود إلى الكرملين»، الديمقراطية، عدد (٥٤)، مايو ٢١٠٢. ص ص ١٥١-٠٦١.

ثانيا: المراجع الأجنبية

1. Abbott Gleason, Views and Re-Views: Soviet Political Posters and Cartoons,@http://library.brown.edu/cds/Views_and_Reviews/essay.html, retrieved on October 2, 2015.

2. Aglaya Snetkov, The Image of the Terrorist Threat in the Official Russian Press: The Moscow theatre Crisis (2002) and the Beslan Hostage Crisis (2004), Europe- Asia Studies, 59 (8), December 2007. pp. 1349-1365.

3. Alexander Merkushev, the Russian and Soviet Press: A Long Journey from Suppression to Freedom, the Joan Shorenstein Barone Center, JFK School of Government, Harvard University, August 1991. pp.12-14.

4. Alexander Verkhovsky, Who is the Enemy Now? Islamophopia and Anti-Semitism among Russian Orthodox Nationalists before and after September 11, Patterns of Prejudice, 38(2), 2004. Pp.130-143.

5. Amanda J. Alcott, Gendered Narratives of "Black Widow" Terrorism in Russia's Northern Caucasus Region, MA Thesis, Department of International Relations and European Studies, Central European University, Budapest, Hungary, 2012. Pp. 2-10.

6. Andrei Richter, Post-Soviet Perspective on Censorship and Freedom of the Media: An Overview, International Communication Gazette, 70 (1), October 2008. Pp.307 – 324.

7. Anna Dekalchuk and Thomas Schneider, The Image of the European Union in Russian Media, Konrad Adenauer Stiftung Center, May 2012. pp. 1-15.

8. Anna Litvinenko, A New Definition of Journalism Functions in the Framework of Hybrid Media Systems: German and Russian Academic Perspectives, Global Media Journal, 3 (1), Spring/Summer 2013. pp. 1- 12.

9. Anna Popkova, Political Criticism from the Soviet Kitchen to the Russian Internet: A Comparative Analysis of Russian Media Coverage of the December Election Protests, Journal of Communication Inquiry, 38 (2), April 2014. Pp. 95-112.

10. Anna Sanina, Visual Political Irony in Russian New Media, Discourse Context & Media, Vol. 6, No.1, December 2014. pp. 11- 21.

11. Benjamin Sutcliffe, Secular Victims, Religious Aggressors, Mystical Holy Men: Muslims, Islam, and Contemporary Russian Prose, 2013 -2014 Program for Research and Training on Eastern Europe and the Independent States of the Former Soviet Union, American Councils for International Education, 2014. Pp. 1-10.

12. Brigitte Hopstad, the Russian Media under Putin and Medvedev: Controlled Media in an Authoritarian System, MA Thesis, Department of Sociology and Political Science, Faculty of Social sciences, University of Science and Technology, Norway NTNL, Feb 2011, pp.84-86.

13. Bruce Etling Karina Alexanyan, John Kelly, Robert Faris, John Palfrey, Public Discourse in the Russian Blogosphere: Mapping RuNet Politics and Mobilization, the Berkman Center for Internet and Society, Harvard University, publication No 2010-11, October 2010. pp. 1 – 55.

14. Danesi, Melvin. Understanding Media Semiotics. London: Arnold; New York: Oxford Inc., 2002.

15. Daniel Chandler: Semiotics: The Basics (New York, Routledge Inc., 2002) p. 57.

16. Daniela Dălălău, the Use of Pictorial and Multimodal Metaphor in Editorial Cartoons Depicting the Euro Crisis, Language and Discourse, 10(2), 2013. pp. 928-937.

17. David Schimmel & Penninck van der Oye, Russian Orientalism: Asia in the Russian Mind from Peter the Great to the Emigration (New York: Yale University Press, 2011) pp. 298-300.

18. David Wedgwood Benn, The Russian Media in Post-Soviet Conditions, Europe-Asia Studies, 48(3), 1996. Pp. 471 – 779.

19. DLA Piper, Navigating the New Russian Media Law, @ www.dlapiper.com.

20. Elena Rodina, How Publication Type, Experience, and Ownership affect Self- Censorship among Moscow Newspaper Journalists, MA Thesis, Department of Russian and East European Studies, University of Oregon, USA, June 2010. pp. 64 – 68.

21. Elisabeth Schimpfossl & Ilya yablokv, Coercion or Conformism?: Censorship and Self Censorship among Russian Media Personalities and Reporters in the 2010's, Demokratizatsiya, The Journal of Post-Soviet Democra-

tization, 22(2): 2014. pp. 295-312.

22. Elmira Akhmetova, Islam in Russia: History & Facts, @ http://onIslam.net/ , retrieved on August 12, 2015.

23. Emil Persson, Banning "Homosexual Propaganda": Belonging and Visibility in Contemporary Russian Media, Sexuality & Culture, 14 (1), 2014, pp. 245-295.

24. Florian Toepel, the New Networked Sphere of Social Media: A Challenge to the Russian Regime? Sciences Po., CERI, CNRS, March 2011 @ ceri-sciences-po.org/.

25. Florian Toepfl, Four Facets of Critical News Literacy in Non-Democratic Regime: How Young Russian Navigate their News, European Journal of Communication, (12) 1, 2013.

26. Florian Toepfl, Managing Public Outrage: Powers, Scandal, and New Media in Contemporary Russia, New Media & Society, 13(8), 2011. Pp. 1301 – 1319.

27. Fred Weir, Russian Media: True, We're not Free but we're not Zimbabwe, Christian Science Monitor, 5th February 2012. p. 11.

28. Galina Miazhevich et al, European Identity and Islamic Otherness in British, French and Russian TV News Broadcast, Paper Presented at the UACES 27th Annual Conference, University of Portsmouth, 3-5 September 2007. pp. 1-24.

29. Gennadi Gerasimov, Russia Media Revolution: From Party Control to Money Control, Asia Pacific, 37(1), June 1998. pp. 1-8.

30. Gordon Hahn, Anti-Americanism, Anti–Westernism, and Anti-Semitism among Russia's Muslims, Demokratizatsiya, 16(1), winter 2008. pp. 49-60.

31. Greg Simons & Dmitry Strovsky, Censorship in Contemporary Russian Journalism in the Age of the War against Terrorism: A Historical Perspective, European Journal of Communication, 21(2), June 2006. Pp. 189 – 211.

32. Greg Simons, The Use of Rhetoric and the Mass Media in Russia's War on Terror, @ https://www.gwu.edu/.

33. Gregory Simons, Russian Crisis Management: Communications and Media Management under Putin, Arbetsrapporter Working Papers, No. 85, Department of East European Studies, Uppsala University, Sweden, January 2005. Pp. 1-28.

34. Hedwing de Smaele, Limited Access of Information as a Means of Censorship in Post-Communist Russia, The Public, Journal of the European Institute for Communication and Culture (Javnost), 11(2), 2004. Pp. 65-82.

35. Howard Davis, Philip Hammond & Lilia Nizamova, Media, Language Policy and Cultural Change in Tatarstan: Historic Vs. Pragmatic Claims to Nationhood, Nations

and Nationalism, 6(2), 2000. pp. 203-225.

36. Hubertus F. Jahn, Kaiser, Cossacks, and Kolbasniks: Caricatures of the German in Russian Popular Culture, The Journal of Popular Culture, 31(4), spring 1998. pp 109 – 122.

37. Irina Kouznetsova-Morenko, Islam in Mass Media Space of Russia and Tatarstan: Policy and Social Analysis, Open Society Institute, CPS Fellowship Program, Central European University, 2003/2004. Pp. 10- 15.

38. Jill Dougherty, Everyone Lies: The Ukraine Conflict and Russia's Media Transformation, Discussion Paper Series, No. 88, Shorenstein Center on Media, Politics, and Public Policy, Harvard Kennedy School, CA, USA, July 2014. pp.1-30.

39. Jonathan Bignell: Media Semiotics: An Introduction (New York: Palgrave Inc., 2002) p.17.

40. Josh Machleder and Gregory Asmolov, Social Change and the Russian Network Society: Redefining Development Priorities in New Information Environments, Internews Center for Innovation and Learning NY, USA, August 2011. pp.1-21.

41. Jukka Pietiläinen and Dmitry Strovsky, Why Do Russian Support Censorship of the Media, Russian Journal of communication, Vol. 3, No. 1/2, Fall 2013. pp. 53 – 69.

42. Jukka Pietiläinen: Media Use in Putin's Russia, Journal of Communication Studies and Transition politics, 24 (3), 2008, pp. 365-385.

43. Karina Alexanyan, The Map and the Territory: Russian Social Media Networks and Society, MA Thesis, Department of Communication, Columbia University, 2013. pp. 10- 15.

44. Katherine Ognyanova, Careful What You Say: Media Control in Putin›s Russia, International journal of E-politics, 1(2), 2010, pp. 1-15.

45. Laura Belin, Russian Media Policy in the First and Second Chechen Campaign, A paper given at the 52nd Conference of the Political Studies Association, Aberdeen, Scotland, 5-8 April 2002. pp 1- 35.

46. Laura Belin, The Russian Media in the 1990's, Journal of Communist studies and Transition Politics, 18 (1), 2002. Pp. 139-160.

47. Liliana Bounegru & Charles Forceville, Metaphors in editorial cartoons representing the global financial crisis, Visual Communication, 10(2): 2011. Pp. 209-229.

48. Manuel Castells & Emma Kiselyova, Russia and the Network Society: An Analytical Exploration, a paper presented to the conference on "Russia at the End of the 20thceutury", Stanford University, CA, USA, 5 – 7 November 1998. Pp. 1 – 47.

49. Marina Viktorovna Zagidullina, Non-users of Internet in the information society, Webology, 11(1), June 2014. Pp. 1- 15.

50. Marius Laurinavicius, Do Traces of KGB, FSB and GRU lead to Islamic State? Center of Eastern Europe Studies, Analytical Report, No. 8. Jan 9 2014. p. 17.

51. Markku Lonkila, Russian Protest on–and offline: The Role of Social Media in the Moscow Opposition Demonstrations in December 2011, The Finnish Institute of International Affairs, February 2011. pp. 1-9.

52. Matteo Vergani & Dennis Zuev, Neo-Jihadist Visual Politics: Comparing YouTube Videos of North Caucasus and Uyghur Militants, Asian Studies Review, 39(1), 2015, pp. 1-22.

53. Michael Weiss, Russia Is Sending Jihadis to Join ISIS, @ http://www.thedailybeast.com/articles/2015/08/23/russia-s-playing-a-double-game-with-islamic-terror0.html.

54. Natalia Mirimanova & Toby Mendel, Covering Conflict: Reporting on Conflicts in the North Caucuses in the Russian Media, Article 19, Global Campaign for Free Expression, London, UK, May 2008. Pp. 70-72.

55. Natalia Moen-Larsen, Communicating with the Nation: Russian Politicians Online, Russian Analytical Digest, 123, 21 Feb. 2013. pp. 10-12.

56. Natalia Rulyova, Television News and its Satirical Interpretation in Medvedev's Russia: Is Glasnost Back? Russian Journal of Communication, 3(3/4), Summer/Fall 2010. pp. 229 – 248.

57. Nicole Bode and Andrey Makarychev, The New Social Media in Russia: Political Blogging by the Government and the Opposition, Problems of Post-Communism, 60 (2), March-April 2013. pp. 53-62.

58. Nils Muiznieks, Manufacturing Enemy Images? Russian Media Portrayals of Latvia, UDK, Academic press of the University of Latvia, 2008, pp. 161-163.

59. Oleg Minin, Art and Politics in the Russian Satirical press 1905 – 1908, PhD Dissertation, University of Southern California, 2008. Pp. 2-10.

60. Oleg Minin, The Value of the Liberated Word: the Russian Satirical Press of 1905 and the Theory of Cultural Production, The Russian Review, 70 (1), April 2001. pp. 215-233.

61. Peter Pomerantsev, Russia: A Postmodern Dictatorship, Global Transitions, Institute of Modern Russia, October 2013, pp.

62. Robert Orttung and Christopher Walker: Putin and Russia's Crippled Media, Russian Analytical Digest, 23(1) February 2013. pp. 1-5.

63. Roland Dannreuther, Russia, the Middle East and Political Islam: Internal and External Challenges, Russia and Eurasia Programme Seminar Summary, 13 May 2009. @ www.chathamhouse.org.uk/.

64. Ruben Enikolopov, Maria Petrova and Ekaterina Zhuravskaya., Media and Political Persuasion: Evidence from Russia, Working Paper no. 113, Centre for Economic and Financial Research at New Economic School, March 2009. pp. 1 – 55.

65. Rutger Von Seth: The Language of the Press in Soviet and post -Soviet Russia: Creation of the Citizen Role through Newspaper Discourse, MA thesis, Department of Politics, University of Glasgow, 2011.

66. Sergei Guriev and Andrei Rachinsky, Oligarchs: The Past or the Future of Russian Capitalism, Journal of Economic Perspectives, 19(1), winter 2005. Pp. 131–150.

67. SREO, Russian News Media Coverage of the Syrian Conflict: A Content Analysis Report, Syria Research and Evaluation Organization, September 2014. pp. 1-30.

68. Svetlana Pasti, Two Generations of Contemporary Russian Journalists, European Journal of Communication, 14 (1), 2005. Pp. 89-112.

69. Terry Warburton: "Cartoons and Teacher: Mediated Visual Images as Data " in Jone Prosser (ed.): Image – based Research: A sourcebook for Qualitative Researchers (London: Flamer Press, 1998) pp. 252-262.

70. Vasil Garifulliv & Layilya Sabirova, Place of Internet Re-sources in the System of Islamic Mass Media in Russia, World Applied Sciences Journal, 30(12), 2014. pp. 1808-1810.

71. Vera Ivanova, History of Russian Caricature, @http://russia-ic.com/cuture-art/, reported June 5.2012.

72. Vladimir VitalÉvich Razuvaev, Popular Humor in the Post-Soviet Period, Anthropology and Archeology of Eurasia, 44 (3), winter 2005/2006. pp. 37-63.

73. Vsevolod Markov, "Why not Censor the Internet?: A Case Study of Russian New Media", MA Thesis, Depart-ment of Political Science, Central European University, Budapest, Hungary, 2013. pp. 48- 50.

74. Wenjie Zhang: The Post-Soviet Russian Media Reform, MA Thesis, University of North Carolina at Chapel Hill, Center of Russian and East European studies, 2006, pp. 2-10.

75. William Andrews Evans: The Anomaly of Ekho Mos-kovy: Adaptation Strategies for the Survival of Diversity of Viewpoints in Russian Media during the Putin Era, MA Thesis, Department of Slavic and Eurasian studies, Duke University, 2012. pp. 85-86.

76. Yelena Sheftelevich, The State of the Media Law in the Russian Federation: A Difficult Past, an Interesting Pres-ent, and Uncertain Future, Touro International Law Re-view, 12 (1), 2009. pp. 88- 166.

الدكتور محمد حسام الدين إسماعيل

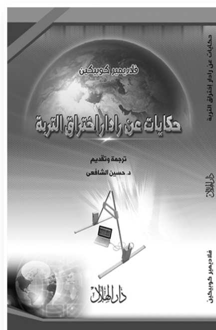
- من مواليد الجيزة بمصر عام ١٩٦٨
- حصل على درجة الدكتوراه عام ٢٠٠٢ مع مرتبة الشرف الأولى في برنامج للإشراف المشترك بين جامعة القاهرة وجامعة إنديانا بولاية بنسلفانيا الأمريكية.
- أستاذ الإعلام الدولي والدراسات الثقافية بكلية الإعلام جامعة القاهرة

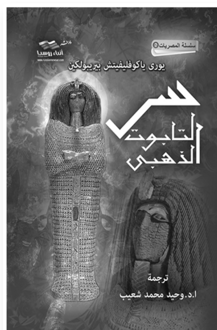
صدر للمؤلف:

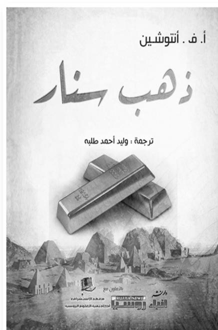
- المسئولية الاجتماعية للصحافة
- الإعلام وما بعد الحداثة
- الأغاني المصورة العربية المعاصرة (بالإنجليزية)
- الصورة والجسد: دراسات نقدية في الإعلام المعاصر
- ساخرون وثوار: دراسات علاماتية وثقافية في الإعلام العربي
- العولمة وصورة الإسلام في الإعلام الدولي
- النجومية الإعلامية في مصر

أنباء روسيا

www.russiannewsar.com

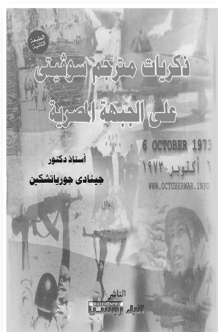


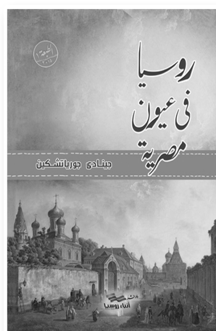


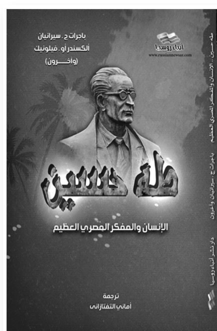


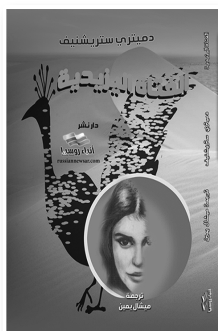






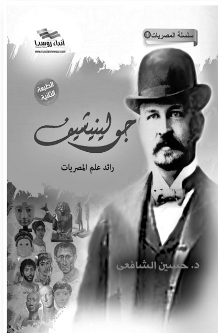


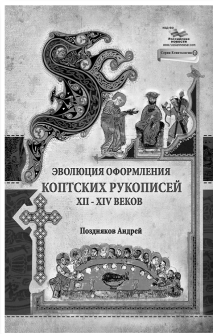


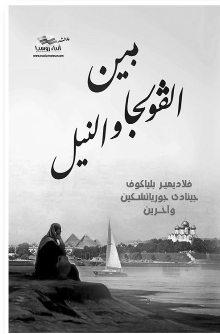


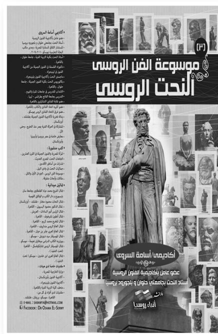
أنباء روسيا

www.russiannewsar.com

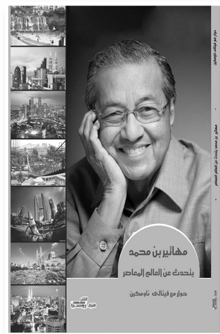


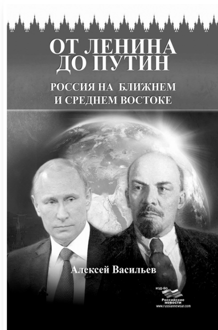




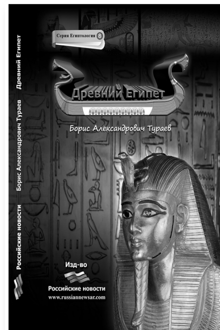












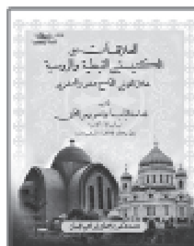
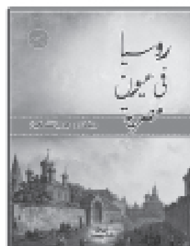


www.russiannewsar.com

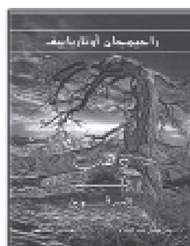


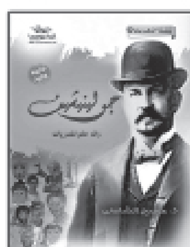




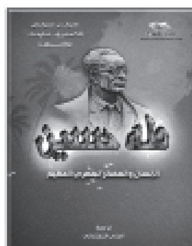




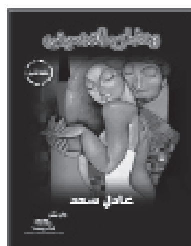



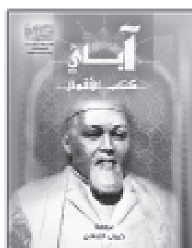
إصدارات

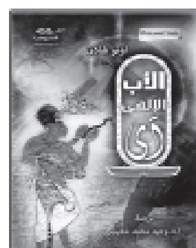
دار نشر
أنباء روسيا
www.russiannewsar.com



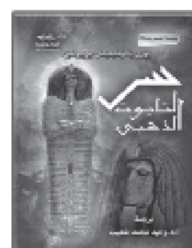








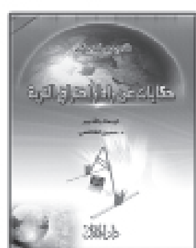


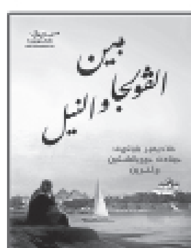












محتويات الكتاب